روائع تراث الزيدية

تفسير الإمام الهادي

(الجزء الثاني)

تأليف

الإمام الهادي

يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم
بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن
بن علي بن أبي طالب عليهم السلام

(٢٤٥-٢٩٨هـ)

تحقيق

عبد الكريم جدبان

روائع تراث الزيدية

تفسير الإمام الهادي

(الجزء الثاني)

تأليف

الإمام الهادي

يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم

بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن

بن علي بن أبي طالب عليهم السلام

(٢٤٥ – ٢٩٨هـ)

تحقيق

عبد الكريم أحمد جدبان

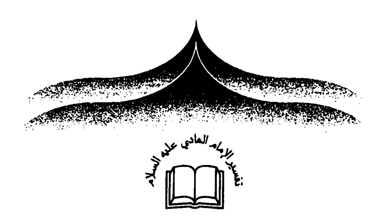
الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

رقم الإيداع بدار الكتب - صنعاء

(٤٤٠ / ٢٠١٢م)

التنفيذ الطباعي
دار الإمام زيد بن علي
ت (٧٧١٢٢٣٥٧٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



تفسير

سورة غافر





ومن سورة غافر

٢٤٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ... إلى قوله: فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر: ١٠-١١] [١]؟

فقال: معنى ذلك أن الله يخبر عن أهل النار، وما يكون من مقتهم لأنفسهم، ومعنى مقتهم فهو: بغضهم لأنفسهم، وبغضهم لها في ذلك اليوم فهو: على ما تقدم منها من المعاصي، في الدنيا حتى أهلكتهم بذلك في الآخرة، فلما أن صاروا إلى النار بغضوا [٢] أنفسهم، وتمنوا أنها كانت في التراب هالكة، كما كانت بالية فانية، فنادتهم ملائكة الله عند ذلك، فأخبرتهم أن مقت الله لهم في هذا الوقت أكبر من مقتهم لأنفسهم، فردوا على ملائكة الله ما تسمع من هذا القول، من قولهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ يقولون: جعلتنا في أصلاب آبائنا ماء مهينا مواتا [٣]، فهذه الموتة الأولى، ثم أمتنا من بعد الحياة الأولى والإيجاد، فصيرتنا إلى القبور، فهذه اثنتان، وأحييتنا الحياة الأولى، التي جعلتنا في بطون أمهاتنا أجساما وأرواحا، من بعد أن كنا نطفة وعلقة ومضغة مواتا [٤] لا حياة فينا، ثم أحييتنا الحياة الثانية، وهي نَشْرُكَ لنا [٥] من القبور بعد

---

(١) كمال الآيات: ﴿... إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ...﴾.

(٢) في (ب): أبغضوا.

(٣) في (ب): أمواتا.

(٤) في (ب): أمواتا.

(٥) في (ب): إيانا.

الفناء، وإخراجك إيانا بعد الفناء والبلاء من أجداثنا أجساما متجددة أحياء، فهذه الحياتان والميتتان، ثم قالوا: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، يقولون: هل إلى رجعة إلى الدنيا من سبيل، فنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل، إذ قد رأينا وأبصرنا، وعاينا وشاهدنا، واعترفنا بذنوبنا، ومعنى ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾ فهو: أقررنا بها، وشهدنا على أنفسنا بما كان منها.

٢٤٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝﴾ [غافر:١٥-١٦]؟

فقال: معنى ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ فهو: ليحذر ما يكون من العقاب في يوم التلاق، ويوم التلاق فهو: يوم الاجتماع، يوم يلتقي الخلق كلهم إلى موضع واحد، وهو يوم الحشر ويوم الميقات ويوم المعاد [١]، معنى ﴿بَٰرِزُونَ﴾ فهم: ظاهرون غير مستترين بدار ولا جدار، قد برز بعضهم لبعض، وعاين بعضهم بعضا، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾، معنى ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ هو: لا يخفى على الله من سرائرهم شيء [٢] ولا من أعمالهم، ظاهرا كان أو مستترا من أفعالهم، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، يخبر سبحانه أنه يوم قد انقطع فيه ملك كل مَلِك، وأثر كل متملك، إلا الله سبحانه الواحد القهار، النافذ أمره، الماضي في ذلك اليوم [٣] حكمه، المذل فيه الملوك الجبارين، المعز لأوليائه المؤمنين، ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ فهو: الذي ليس معه في الحكم في يوم [٤] الدين أحد يحكم، ولا يأمر، ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾، فهو: الغالب الجبار.

---

(١) في (أ): الميعاد.
(٢) في (ب): لا يخفى على الله شيء، من سرائرهم...
(٣) سقط من (أ): اليوم.
(٤) سقط من (أ): يوم.

٢٤٦) وسألته عن قول الله سبحانه ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ... إلى قوله: وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر:١٨-١٩][1]؟

فقال: الآزفة فهو: الهاجمة الواقعة، السريعة الهجوم والنزول بأهلها، وهي يوم القيامة والساعة الهاجمة على الخلق، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾، يقول: من شدة الهول والأمر العظيم الذي يعاينون، قد ارتفعت قلوبهم حتى قاربت حناجرهم، من الفزع المفزع [2]، والروع المفظع، ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ فهو: سكوت كاظمون، والكاظم فهو: الصامت الذي لا ينطق، يقلب عينه ويستمع [3]، لهول ما فيه قد وقع، ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾، يقول: ما لهم من ولي ولا قريب ينفعهم، لا طفل في طفوليته، ولا أحد مؤمن ينتسب الظالمون إليه، يطمعون في ذلك اليوم عنده بمنفعة، ولا يطمع هو لهم بخلاص من النقمة، فهؤلاء هو الحميم، يريد: القريب المناسب، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾، يقول: ليس في ذلك للظالمين شفيع يجيب الله دعوته، ولا يجيز في الظالمين شفاعته، فهذا معنى يطاع، أي: يعطى أمنيته فيهم فيجاب [4]. وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء:٢٨].

﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾، معناها: ما تشير به الأعين وتؤمئ به، فأخبر سبحانه أنه

---

(١) كمال الآيتين: ﴿...إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ...﴾.

(٢) في (ب): الفزع الأكبر.

(٣) في (أ): ويسمع.

(٤) في (أ): ويجاب.

يعلم ذلك من الأعين، قبل كونه وقبل كونها به، ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ فهو: غيب الصدور من خفي أمرها ودقيق ضميرها، مما لم يظهر في شيء من الجوارح عنها.

٢٤٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[غافر:٨٣]؟

فقال: المعنى في ذلك: أن الله أخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بخبر هؤلاء، الذي جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوا بها وفرحوا بما عندهم من العلم، والعلم الذي فرحوا به فهو: ما كان [١] عندهم من أخبار ما كان قبلهم، ممن عصى الله من آبائهم، ممن لم [٢] تحل به نقمة وإخزاء الله لأعدائه، فقالوا لرسلهم قد جاء غيرُكم آباءنا بمثل ما قد جئتم به، فلم ينزل بهم إذ عصوهم ما تعدوننا أنتم أنه ينزل بنا إذا عصينا، ففرحوا بما عندهم مِن علمِ سلامةِ مَن سلم من آبائهم، من علم من وقع به العذاب من أوائلهم، ففرحوا بسلامة السالمين وطمعوا بمثلها، ولم يخافوا ما نزل بالمعذبين فيتوقعوا أكبر منها، حتى جاءهم [٣] ما كانوا به يستهزؤن من هذا الوعيد الذي وعدهم به [٤] ربهم من العذاب، إذ لم يزالوا به مكذبين مستهزئين، حتى ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ومعنى ﴿حَاقَ﴾ فهو: وقع ونزل.



(١) في (أ): كان من عندهم.

(٢) سقط من (أ): لم.

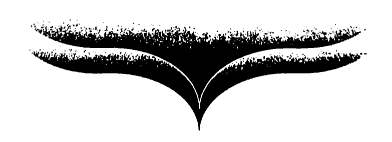
(٣) في (ب): حاق.

(٤) سقط من (ب): به.



تفسير

سورة فصلت





ومن سورة فصلت

٢٤٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]؟

فقال: معنى قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فهو: صار حكمه إلى تدبير السماء وخلقها، وهي إذ ذاك دخان في الهواء، فخلق من ذلك الدخان هذه السماوات العلى، فهذا معنى ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: صار حكمه وفعله إلى خلق السماء [١]، من بعد خلق الأربعة الأشياء الأصلية للأشياء [٢]، وهي الهواء والماء والريح والنار [٣]، فهذا معنى قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ لا أنه تبارك وتعالى انتقل إليها من الأرض، ولا كان في الأرض دون الهواء، هو محيط بكل الأشياء، يستغني عن الأمكنة والأشياء، تبارك وتعالى ذو الجلال والبقاء.

ومعنى قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ هو: أراد أن يأتيا فأتيا وليس ثَمَّ قول، وإنما هذا مثل يخبر سبحانه أن سرعة نفاذ إرادته، ومضي مشيئته، أسرع من قول القائل كن، ومعنى ﴿أَتَيْنَا﴾ هو: كونا ولم يكن ثَمَّ أمر منه لهما، لأنهما في ذلك الوقت دخان وحراقة، وإنما هو مثلٌ مُثِّل بالأمر، وإنما معنى ﴿أَتَيْنَا﴾ أي: أراد فجعل، وشاء كونهما فكانتا، فإيجاده لهما مراده لهما، ومراده لهما هو إيجاده إياهما، لا تسبق إرادته موجوده، ولا موجوده إرادته، إذا شاء شيئا كان بلا

---

(١) سقط من (أ): السماء.

(٢) سقط من (أ): للأشياء.

(٣) لعل المطرفية أخذت نظريتها في أصول الأشياء للإمام الهادي من هنا.

تكلف ولا إضمار، ولا استعانة بأعوان، ومعنى ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾: هذا أيضا مثله في الطاعة والاستواء، أراد سبحانه أنهما عند إرادته لإيجادهما كانتا، لم يمتنع عليه من أمرهما ممتنع، ولم يعسر عليه في خلقهما عسير، ولم يؤده من تدبيرهما صغير ولا كبير، فهذا معنى ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾.

٢٤٩) وسألته عن قول الله عز وجل: ﴿۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ كَانُواْ ... إلى قوله: خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٥]؟

فقال: معنى ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾ هو: خلينا وأمهلنا، ولم يحل بين هؤلاء القرناء وبين من اجترأ علينا، والقرناء فهم قرناء السوء، من شياطين الجن والإنس، فلما أن كان الله تبارك وتعالى قادرا على أن يصرف عن أعدائه [(١)] كيد هؤلاء القرناء، فلم يفعل جزاء على فعلهم، وخذلانا بكفرهم [(٢)]، جاز أن يقول: ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾ يريد: تركنا وأمهلنا حتى زينوا لهم، معنى التزيين فهو: التحسين، بما [(٣)] يبسطون لهم من الأمل في الدنيا، ويمنونهم من المغفرة في الآخرة التي تبقى، فهذا معنى: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾.

معنى ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾ فهو: اغواؤهم حتى حق عليهم ما نزل بالأمم من قبلهم، على مثل فعلهم، معنى ﴿خَٰسِرِينَ﴾ فهو: منتقصون، وانتقاصهم فهو: فوت ما ظفر به المؤمنون، من الثواب الذي حُرمه العاصون، وانتقصوه بمعصيتهم، وفاتهم بترك الطاعة لربهم.

---

(١) في (أ): أعدائه هولاء كيد.

(٢) في (ب): على كفرهم.

(٣) في (ب): لما.

٢٥٠) وسألته عن قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾[فصلت:٢٩]؟

فقال: المعنى في ذلك أن هذا السؤال من الكفار الظالين، طلبٌ [١] إلى الله أن يريهم من أضلهم وأغواهم من جبابرة الآدميين، ومغويهم من فراعنة الشياطين الموسوسين بالمعصية لهم، المزينين لما في صدورهم، ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾، يقولون [٢]: تحتنا في النار، ونطؤهم ونذلهم كما أهلكونا، معنى ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ فهو: ليكونا تحتنا في العذاب المهين، وذلك [٣] أن جهنم ظلل من فوقها ظلل، معنى ظلل أي: درجات متفاوتات، فأشدها [٤] عذابا أسفلها، فكل ما كان أسفل فهو: أشد عذابا ممن هو فوق، فأراد هؤلاء أن يكون المغوون لهم أسفل منهم، في الدرجة التي هي أنكأ عذابا، وأشد نكالا وأشقى.

٢٥١) و[سئل] عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [فصلت:٢٩]؟

(فقال: المضلان للكافرين اللذان سألوا ربهما أن يريهم إياهما، فهما مضلا [٥] الإنس والجن ومغوياهم، لأن كل ضال بإضلال مضل فلم يضل، إلا باطغاء شيطان ووسوسته، أو إطغاء جبار من الإنس دخل في طاعته، فجبار الإنس المضل لتباعه[٦]،

---

(١) في (أ): والظالمين وطلبا.

(٢) في (أ): يقول.

(٣) سقط من (أ): ذلك.

(٤) في (أ): فأشد عذابها.

(٥) في (أ) فهو: مضلي. ولعل الصواب ما أثبت.

(٦) كذا في: (أ).

والشيطان الموسوس بالمعصية لأوليائه، هما المضلان للضالين، وهما اللذان سألوا أولياؤهما وأهل طاعتهما في الدنيا رؤيتهما في الآخرة، تعسفا وغضبا عليهما، لينالا في العذاب بعض ما تشتفي به منهما صدورهم، ويخف غيظهم، ولا يرجا - ولله الحمد - لأحد من أهل جهنم في ذلك سُلوٌّ لو كان ولا غيره) [1].

(وقال يحيى بن الحسين رضي الله عنه: قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت:٢٩].

المعنى في ذلك: إن هذا السؤال من الكفار الضالين طلب إلى الله أن يريهم من أضلهم وأغواهم، من جبابرة الآدميين، ومغويهم من فراعنة الشياطين، الموسوسين بالمعصية لهم، المزينين لما في صدورهم. ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ يقولون: تحتنا في النار ونطاوهم ونذلهم كما أهلكونا.

معنى ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾، فهما: ليكونا تحتنا في العذاب المهين، وذلك أن جهنم ظلل ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، معنى ﴿ظُلَلٌ﴾ أي: درجات متفاوتات، وأشدها عذابا أسفلها، فكل ما كان أسفل فهو أشد عذابا مما هو فوق، فأراد هؤلاء أن يكون المغوون لهم أسفل منهم في الدرجة، التي هي أنكى عذاب، وأشد نكالا وأشقى) [2].



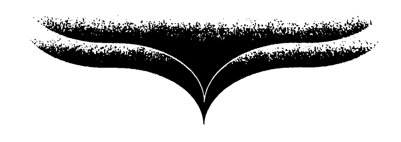
(١) سقط من (ب): هذا الجواب.

(٢) سقط من (أ): هذا الجواب.

تفسير الإمام الهادي عليه السلام

تفسير

سورة الشورى





ومن سورة الشورى

٢٥٢) وسألته عن قوله سبحانه: ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ ... إلى قوله سبحانه: أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ [الشورى:١-٥] [١]؟

فقال: ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝﴾ حروف تولى الله علمها لم يبينها لأحد من خلقه، إذ ليس له فيها أمر ولا نهي، ولا فرض ولا أمر تَعَبَّد به عباده، فيحتاجون إلى علمه ومعرفته. ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ إخبار من الله تبارك وتعالى أنه الذي يوحي إليه وإلى جميع الأنبياء الذين كانوا قبله، ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾، معنى ذلك: إجلالا وإعظاما، وإكبار وألما [٢]، لما فعل المكذبون بآيات الله ووحيه، ووعده ووعيده، وما نزل من جميع أخباره، فيقول سبحانه: لو كان في السماوات تمييز وفهمٌ لما قالوا، وبه كذبوا، لتفطرن إجلالا لله وإعظاما وإكبارا لما جاء به المشركون، من تكذيب قول الله، والصد عن آيات الله، ثم أخبر بطاعة الملائكة وإعظامها أيضا لما يأتون به، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: لما أن فعل المشركون ما فعلوا، سبَّحته الملائكة وهللته وعظمته، إجلالا له عن قولهم، وتقديسا له عن شركهم، ثم أخبر بفعل الملائكة في المؤمنين المصدقين، بما كذب به الكافرون، المسلمين لما جحده المشركون، المصدقين بوعد الله ووعيده، الموقنين

---

(١) كمال الآيات: ﴿ ...كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ...﴾.

(٢) في (أ): ألما.

بحشره وثوابه وعقابه، يقول: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: لمن فيها من المؤمنين المصدقين المتقين.

٢٥٣) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]؟

فقال: معنى ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهو: مبتدعها ومبتدؤها، ومعنى قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فهو: خلق لكم من أنفسكم رجالا ونساء، يتزاوجون ويتناسلون، وكذلك قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [1] أي: خلق أيضا من الأنعام إناثا وذكورا تتناسل، ومعنى قوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ فهو: ينبتكم ويخرجكم ويخلقكم، ويصوركم ويكثركم، (بالذرو والنسل الذي يكون منكم)[2].

٢٥٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]؟

فقال: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ هي: مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من القرى فهي: أعمال مكة، وما قاربها من الحجاز كله، ومعنى ﴿تُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: وإنما تنذر أهلها وأهل القرى التي حولها، فلما أن كان الأهل من سبب القرى، طرح الأهل وأثبت القرى، وإنما يريد: الأهل، كما قال في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا

---

(١) في (أ): من.

(٢) سقط من (أ): ما بين القوسين.

وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، يريد: أهل القرية وأهل العير. ومعنى قوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهو: أيضا على هذا المعنى، أراد: وتنذر العذاب الذي يكون في يوم الجمع، فطرح العذاب وأقام يوم الجمع مقامه، كما فعل في أم القرى، ويوم الجمع فهو: يوم القيامة الذي يجتمع فيه الخلق [1] إلى موضع الحشر، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يقول: لا شك أنه سيكون فريق في الجنة وفريق في السعير، يخبر أن ذلك اليوم يوم يصير فيه فريق من الناس في الجنة، ويصير [2] فريق منهم في السعير، والإنذار فهو [3] إلى أم القرى ومن حولها، وإلى جميع أهل الأرض، غير أنه خص أم القرى بالذكر لعظم قدرها [4]، وأنها كانت المبتدأ في الإعذار والإنذار، ثم يبلغ إعذاره صلى الله عليه جميع شرق الأرض وغربها، وشامها ويمينها.

٢٥٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝﴾ [الشورى:١٦]؟

فقال: يقول: إن الذي يحآجون في الله، أي: يدافعون عن تصديق الله، ويكذبون ما جاء عن الله، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ يقول: من بعد ما قد تبينت [5] حجته، وظهرت دلالته، وقبلها المؤمنون، واستجابوا لربهم وآمنوا به، فأخبر أن حجتهم [6]

---

(١) سقط من (أ): الخلق.

(٢) سقط من (ب): يصير.

(٣) في (أ): فهي. وظنن بـ(هو).

(٤) في (أ): لعظيم ذكرها.

(٥) في (ب): ثبتت.

(٦) سقط من (ب): حجتهم.

حجةٌ من أنكر ما قد وضح وبان، فـ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يقول: لم يبق لهم حجة يصرف بها عنهم العذاب، ولا يجب تبيينها لهم، ولا يلزمنا بها تأخير العذاب عنهم، قد بينا وأوضحنا واحتججنا، حتى شهدت عقولهم بأن ذلك هو الحق المبين [١]، ثم كابروا، فليس مكابرتهم بعد المعرفة حجة عند الله يجب لهم [٢] بها تأخير العذاب، كما يجب من قبل ثبات الحق عندهم، وظهوره لهم.

٢٥٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝﴾ ... إلى قوله: لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [الشورى:٣٩-٤٠] [٣]؟

فقال: معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، يقول: والذين إذا أصابهم الظلم في دينهم لم يقروا به، وانترّوا ممن بغى في دينهم، أو في أموالهم أو في دمائهم، حتى يثبتوا الحق ويزيلوا [٤] الباطل، فأخبر الله [٥] أن نبيه [٦] لم يثبت باطلا، ولم يترك حقا.

وأما قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فذلك في ما يجوز المكافأة به من السيئات، لا في شيء من المحرمات، وإنما ذلك في القتل والجراح والمال، فيجوز أن يكافأ من فعل شيئا من ذلك، بمثل ما فعل، فأما في ما لا يجوز فعله، مثل ظلم يؤتى،

---

(١) سقط من (ب): المبين.

(٢) سقط من (أ): لهم.

(٣) كمال الآية: ﴿ ...وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ ...﴾.

(٤) في (أ): ويزيل.

(٥) سقط من (أ): الله.

(٦) في (أ): أنه لم. وفي (ب): أن به لم. لعلها مصحفة، ولعل الصواب ما أثبت.

أو فاحشة [١] يأتيها فاسق دني إلى حرمة مسلم، فلا يجوز للمسلم [٢] أن يأتي مثل ذلك، في بريء ولا في حرمة، فافهم الفرق بين هذين المعنيين، (وقف على وجه هاتين الحالتين) [٣].

٢٥٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ... إلى قوله: فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى:٤٥] [٤]؟

فقال: هذه [٥] صفة الكافر في يوم الدين، أخبر الله بما ينزل بهم فيه من الذل والخزي، ومعنى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ فهم [٦] ينظرون بطرف خفي، والطرف الخفي فهو: الطرف الذليل الخاشع العي، وقد يدرك [٧] ذلك في من نزل به بلاء في الدنيا، ويرى ذلك في طرفه ظاهرا لا يخفى، إذا قارب من يهابه من الجبارين، أو واجه من يخشى منه من السلاطين، والخاشع فهو: المطأطئ الرأس المنكس إلى الأرض، ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ فهو: من ذهبت منه نفسه بالعذاب، وحصلت بسوء فعله في العقاب، ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ فقد يخرج على معنيين:

---

(١) في (أ): يرى أو فعل...

(٢) في (أ): يجوز فعله لمسلم.

(٣) سقط من (ب): ما بين القوسين.

(٤) كمال الآية: ﴿... يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ...﴾.

(٥) سقط من (أ): هذه.

(٦) سقط من (أ): فهم.

(٧) في (أ) و (ب): يستدرك. ولعل الصواب ما أثبت.

أما أهله الذي كان يعرفهم في الدنيا ويألفهم فيها، فخسرهم بمفارقتهم، إما [١] بمصيرهم إلى عذاب أليم، وإما بمصيرهم إلى ثواب كريم، ففي كلا المعنيين قد خسرهم الكافر.

والمعنى الأول فقد يخرج على أن الأهل هم حوريات الجنة، اللاتي جُعلن [٢] ثوابا للمؤمنين وخُلقن أهلا للمتقين، فكان من عمل بغير الهدى، وجنب عن التقوى، خاسرا للأهل الذين جعلوا للمتقين، فخسرهم الفاسقون بفعلهم، ما لا يجب الحوريات لمن فعله ولا ينالهن.

٢٥٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ... إلى قوله: وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥١-٥٢] [٣]؟

فقال: الوحي الذي ذكر الله هاهنا فهو: وحي النوم، كما أوحى إلى أم موسى عليه السلام، فيما أمرها به من إرضاعه فإذا خافت عليه القتل ألقته في اليم، ومثل وحيه إلى إبراهيم في المنام أن يذبح ابنه إسماعيل صلى الله عليهما، ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾: يخلق صوتا يسمعه السامع، كما كان فعله في موسى خلق له صوتا في الشجرة فسمعه موسى، والحجاب فمعناه: أن يأتي الصوت ولا يرى له مصوِّتا،

---

(١) في (أ): وإما. مصحفة.

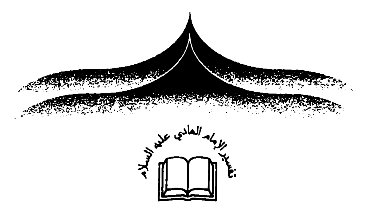
(٢) في (أ): جعلهن الله ثوابا.

(٣) كمال الآيتين: ﴿...فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

فهذا الحجاب الذي بين الصوت وبين السامع، ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ معناه: المَلَك الذي كان يأتي إلى الأنبياء بوحيٍ من الله، وهو جبريل صلى الله عليه، ومعنى قوله: ﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ فهو: أمر يُحيي به العباد، ومعنى حياتهم به فهو: إيمانهم به، لأن من آمن فقد حيَّ، ومن كفر فقد مات، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، ومعنى ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ فهو: قِبَلنا وعندنا.







تفسير
سورة الزخرف





ومن سورة الزخرف

٢٥٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝﴾ [الزخرف:٥]؟

فقال: معنى ذلك من الله سبحانه على معنى الاحتجاج عليهم والتقريع لهم، لما هم عليه من إسرافهم، يقول: أئذا كنتم قوما مسرفين، أيجوز لنا أن نصرف الذكر عنكم [1]، أي: نتركه ونصرفه عنكم، ولا نقيم به الحجة عليكم، هذا ما لا يكون من فعلنا، لأن مع إسرافكم نزول النقم عليكم، والنقم منا فلا تنزل إلا على من ثبتت عليه حجتنا، فكيف نضرب عنكم الذكر صفحا بإسرافكم [2] وقلة قبولكم؟! ونحن فلا ننزل النقمة بكم، إلا من بعد ثبات الحجة عليكم.

٢٦٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝﴾ [الزخرف:١٥]؟

فقال: هذا إخبار من الله سبحانه بكفر من جعل لله من عباده شريكا في العبادة، فعبد مِن دونه شيئا من خلقه، كمن عبد الملائكة من دون الله، وكذلك كل من أطاع كافرا في ما يأمره به من معاصي الله وترك أمر الله، فقد عبد من أطاعه، لأن أكبر العبادة هي الطاعة، ومن أطاع عبدا من عباد الله في معصية الله، فقد جعل له جزأ من [3] عمله، بل قد أخلص العبادة لغير ربه، إذ [4] أخلص الطاعة لمن هو مستسلم في يده، من أعدا الله ربه وخالقه.

---

(١) في (أ): نضرب. وفي (أ): عنكم الذكر.
(٢) في (ب): لإسرافكم.
(٣) في (أ): جعل الله. وفي (ب): في عمله.
(٤) في (أ): التوبة لغير ربه، إذا.

٢٦١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ [الزخرف:١٨]؟

فقال: هذا تقريع من الله تبارك وتعالى للمشركين في قولهم، وإثبات الحجة عليهم، إذ زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن الملائكة إناث، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝﴾ [الزخرف:١٦-١٧]، يريد سبحانه: إن كان قولهم في ما زعموا من أن الملائكة إناث، وأنهم لله بنات، فقال: كيف يصفيكم أنتم بالبنين ويتخذ هو النبات لنفسه؟! فلو [1] كان كما يقولون! إذاً لم يتخذ إلا البنين، إذا البنون أفضل من البنات، فكيف تنسبون إلى الله ما تكرهون؟! وتجعلون له ما منه تنتفون؟! من البنات اللواتي إذا بشر بها أحدكم ظل وجهه مسودا وهو كظيم، مستحيا خجلا منهم، واغتماما بولادتهن.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ۝﴾ [الزخرف:١٨] يريد: أومن كان هكذا في الصفة كالبنين الذكور، أهل [2] البيان في الخصام، وأهل الخير والتمام، لا يكون ذلك كذلك أبدا، فأضمر الذكور لعلم المخاطب به، فقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ والذي نشأ في الحلية فهن: البنات اللواتي يُزَيَّن به في الحلي ويتزيَّن به، وكذلك فهن اللواتي قال الله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ يقول: في الخصام غير قائم بحجته لضعفهن، وقلة معرفتهن بمالهن وعليهن.

٢٦٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝﴾ ... إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝﴾ [الزخرف:٢٦- ٢٨] [3]؟

---

(١) في (ب): لو.

(٢) في (أ): وأهل.

(٣) كمال الآيات: ﴿... إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ...﴾.

فقال: هذا قول من إبراهيم صلى الله عليه لقومه، تبرأ فيه من كل ما يعبدون من دون الله، وثبّت التولي منه لرب العالمين الذي فطره، ومعنى قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ فهو: سيوفقني للحق [1] ويهديني إليه ويبينه لي، والتي جعلها باقية في عقبه، فهي كلمة الإخلاص، ودين الحنيفية الباقي في عقبه إلى يوم الدين.

٢٦٣) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾... إلى قوله: ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ [الزخرف:٤٤-٤٥] [2]؟

فقال: الذِّكر الذي له صلى الله عليه ولقومه، فهو: كتابه ووحيه الذي نزل على نبيه، وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ يعني بالسؤال: من أعرض عن الحق وعن الذكر وقبوله له [3]، يُسأل بأي حجة كذب وصدق [4]؟! وبأي معنى أعرض عن الحق؟! ومعنى قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ فهو: سَل كتبهم، وافتش أخبارهم، واسأل [5] عما فرضنا عليهم، مما أتوا به داعَيْن [6] فانظر هل تجد في هذه الكتب التي [7] أتوا بها منا، الذين أبلغوا [8] منهم عنا، شيئاً مما عليه من أشرك بنا، واتخذ آلهة من دوننا، وعبد شيئاً من دون عبادتنا؟!! فلن تجد ذلك أبداً في شيء من كتبنا، ولا مما جاءت به رسلنا، وإنما ذلك خطأ من فاعله، واجتراء ممن يعبد شيئاً من دون خالقه، وقد نهاهم الله سبحانه عن عبادة غيره، وأمرهم بالعبادة له.

---

(١) سقط من (ب): للحق.
(٢) كمال الآيات: ﴿... وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ...﴾.
(٣) سقط من (أ): له.
(٤) في (أ): وصدق.
(٥) في (ب): وسل.
(٦) في (ب): داعين، وانظر.
(٧) في (أ): اللذي.
(٨) في (ب): بلغوا.

٢٦٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝﴾ [الزخرف:٣٦]؟

فقال: معنى ﴿يَعْشُ﴾ فهو: يصد ويترك ويعرض عن ذكر الرحمن، ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ فهو: نخلي عليه شيطانا، لا أن الله تبارك وتعالى أمر الشيطان بذلك، ولكنه خلاه وإياه ولم يمنعه منه، فلما أن كان ذلك، منه كذلك، جاز أن يقول: قيضنا، أي: تركنا وخلينا بينه وبينه، ولم يكن منا حاجز له عنه، ولا مانع له منه.

٢٦٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝﴾ [الزخرف:٨١]؟

العابدون: هم الآنفون، يقول الله سبحانه لمحمد: يا محمد قل لمن زعم أن لنا ولدا، إن كان للرحمن ولد كما تزعمون؟! فأنا أول الآنفين المبغضين من [1] عبادة من له ولد.

٢٦٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾ [الزخرف:٨٨-٨٩]؟

فقال: هذا خبر من الله سبحانه عن قول نبيه، أن من قدر يؤمن به، فأمره الله أن يصفح عنهم، ومعنى يصفح: أن يتركهم ويرفضهم، ومعنى قوله: ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: قل أمرا حسنا جميلا، تثبت به عليهم الحجة، وتسلم به [2] من أذيتهم، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يقول: قل لهم فسوف تعلمون صدق ما جئت به، وحقيقة ما أعذرت وأنذرت منه.

---

(١) في (أ): عن.

(٢) سقط من (ب): به.

٢٦٧) و[سألت] عن قوله عز وجل: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝﴾ [الزخرف:٣١]؟

قال: أحدهم الوليد بن المغيرة المخزومي، والآخر عمرو بن عمير الثقفي [١].

٢٦٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝﴾ ... إلى قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝﴾ [الزخرف:٥٧-٦١] [٢]؟

فقال: روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي عليه السلام ذات يوم: (يا علي لو لا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح عليه السلام لقلت فيك مقالا لا تمر بملأ إلا أخذوا من أثرك التراب [٣] يبغون به البركة، غير أنه [٤] يكفيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إنه لا نبي

---

(١) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قول الله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝﴾ قال: يعني بالقريتين مكة والطائف، والعظيم الوليد بن المغيرة القرشي، وحبيب بن عمير الثقفي.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝﴾ قال: يعني ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة والطائف، والعظيم: الوليد بن المغيرة القرشي، وحبيب بن عمير الثقفي.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝﴾ قال: يعنون أشرف من محمد، الوليد بن المغيرة من أهل مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من أهل الطائف. الدر المنثور ٧/٣٧٤.

(٢) كمال الآيات: ﴿...وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ...﴾.

(٣) سقط من (ب): التراب.

(٤) في (أ): أنك.

بعدي)[1]، فقال المنافقون لما أن سمعوا ذلك: (ما رضي محمد أن يضرب لابن عمه مثلا إلا عيسى بن مريم، ثم قالوا: والله لآلهتنا التي كنا نعبدها خير منه يعنون عليا، فأنزل الله ما أنزل فيهم، وهم الحارث بن حلزةٍ وأصحابه من المنافقين).

ثم أخبر الله سبحانه بأنهم إنما ذكروا هذا جدلا وطلبا للتعنت، لا إعظاما لعيسى بن مريم صلى الله عليه، ثم أخبر أن عيسى بن مريم عبد من عباد الله أنعم الله عليه، فكيف لا يضرب الله به المثل لإخوانه المؤمنين، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ يقول: هبوطه إلى الأرض وظهوره، دليل على قرب الساعة [2].

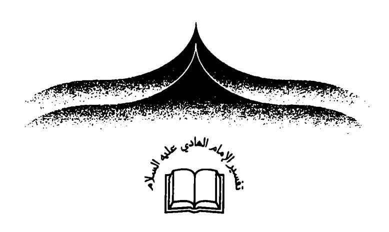


(١) أخرجه محمد بن سليمان الكوفي في المناقب ١/ ٤٥٨(٣٦٠)، ١/ ٤٩٤(٤٠٢)، والمرشد بالله في الأمالي/ ١٣٣، ١٣٧، وابن المغازلي الشافعي في المناقب / ٢٣٧(٢٨٥)، والخوارزمي في المناقب/ ٢٢٠ الفصل(١٩)، وابن أبي حاتم في العلل ١/ ٣١٣.

ورواه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب / ٢٦٤، وابن حجر الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٣١ عن الطبراني. وأخرج نحوه أحمد بن حنبل في المسند ١/ ١٦٠، والحاكم في المستدرك ٣/ ١٢٣، والطبري في الذخائر/ ٩٢، والرياض النضرة ٢/ ٢١٧، وابن كثير في البداية والنهاية ٧/ ٣٥٥، و الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٢/ ٢٢٢٦(٨٥٩) عند تفسير الآية وبرقم (٨٦٠)، إلى رقم (٨٧١) وتواليه إلى (٧٥٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ترجمة الإمام علي ٢/ ٢٣٤ (٧٤٧)، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢/ ١٣(٣١٤)، والنسائي في الخصائص / ١٠٥(٩٨)، والبلاذري في أنساب الأشراف ١/ ٣١٩(٧٩)، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٢٨١(٩٦٦) في ترجمة ربيعة بن ناجد، والطبراني في الكبير ١/ ٥١.

(٢) أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن رضي الله عنه ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسى.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة رضي الله عنه ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسى علم للساعة. الدر المنثور ٧/ ٣٨٧.



تفسير

سورة الدخان





ومن سورة الدخان

٢٦٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝﴾ [الدخان:١٠-١١]؟

فقال: اليوم الذي تأتي به السماء بدخان مبين، هو يوم القيامة، وإتيانها بالدخان فهو: رجوعها [1] ومصيرها إليه، وذلك أنها عند تبديل الله لها في ذلك اليوم، تعود إلى ما منه خلقت، وهو الدخان، فتصير بعد هذا التجسم والعِظَم، إلى حالة الدخان، ومعنى قول من يقول: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فهو: قول الكافرين، إذا رأوا السماء قد صارت إلى ذلك الحال، وأيقنوا بالجزاء، قالوا حينئذ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فطرح الله [2] اليوم، وأقام العذاب مقامه، فصار مرفوعا، والعرب تفعل ذلك، تقيم الشيء مقام ما كان من سببه [3]، كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ [يوسف:٨٢]، فأراد: أهل القرية وأهل العير، فطرح الأهل وأقام القرية والعير مقامهم.

٢٧٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ۝﴾ [الدخان:١٧]؟

فقال: معنى قوله: ﴿فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: عذبناهم على

(١) في (أ): عروجها.

(٢) سقط من (ب): الله.

(٣) في (أ): شبهه. مصحفة.

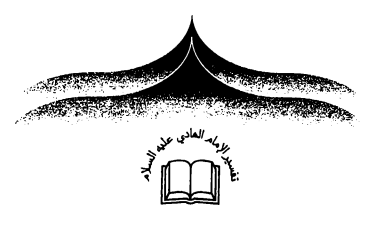
معصيتهم بالغرق، والرسول الكريم فهو: موسى صلى الله عليه.

٢٧١) وعن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝﴾ [الدخان:٤٣-٤٤]؟

قال: نزلت في أبي جهل حين أن زعم أنها تمر بزبد [1].

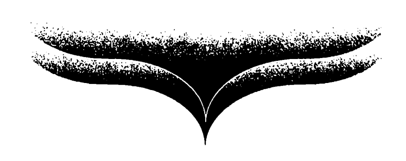


(١) أخرج سعيد بن منصور، عن أبي مالك قال: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول: تزقموا بهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد، فنزلت ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝﴾.
وأخرج ابن ابي حاتم، والخطيب في تاريخه، عن سعيد بن جبير في الآية قال: ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ أبو جهل. الدر المنثور ٧/ ٤١٨.



تفسير

سورة الجاثية





ومن سورة الجاثية

٢٧٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية:١٤]؟

فقال: معنى ﴿يَغْفِرُواْ﴾ فهو: [1]: يعرضوا عن عبادتهم ومقالتهم وشركهم [2]، ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فهم الذين لا يصدقون بوعد الله ووعيده، ﴿قَوْمَۢا﴾ أي: ذَرْهم حتى يقع الجزاء عليهم، وعلى صدق ما أنكروا من وعد ربهم.

٢٧٣) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ...﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣] [3]؟

فقال: هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عن من عَبَدَ ما يهوى من الأشياء، فجعل إله [4] هواه، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منه به، ومعنى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فهو: على علم منا بأفعاله وأخباره، وعبادته ما يهوى من الأشياء دون ربه، فلما أن علم منه ذلك أضله، ومعنى ﴿أَضَلَّهُ﴾ فهو: خذله، وسماه بالضلال وأخبر عنه به، ومعنى ﴿خَتَمَ

---

(١) في (أ): هو.

(٢) في (أ): وتتركوهم.

(٣) كمال الآية: ﴿... وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ...﴾.

(٤) في (أ): الآلهة.

عَلَىٰ سَمْعِهِۦ - هاهنا في هذه الآية - وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فهو: بالخذلان له، وترك التسديد له، لما يُسدد له المؤمنين لا أنه فعل به شيئا من ذلك، ولا حال بينه وبين الاهتداء، تقدس الله عن ذلك وتعالى، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، يقول: من يوفقه للصواب إن خذله [(١)] الله، أو يرشده إن تركه الله، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [الأنعام:٥٠] [(٢)]، في ذلك فتعلمون في ذلك أنه لا هادي لمن خذله الله، ولا مرشد لمن لم يرشده الله.

٢٧٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الجاثية:٢٨]؟

فقال: معنى ﴿جَاثِيَةً﴾ فهي [(٣)]: باركة على ركبها، منتظرة لما يكون من حكم الله فيها، ومعنى ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾هو: ما علم من فعلها، توقف [(٤)] عليه وتدعا إلى جزائه، خيرا فخيرا، أو شرا فشرا. ومعنى ﴿كِتَٰبِهَا﴾ (فهو: ما علم من فعلها، تجازى عليه وتدان به)[(٥)].



---

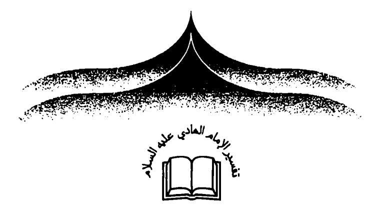
(١) في (أ): يخذله.

(٢) في (أ): تذكرون.

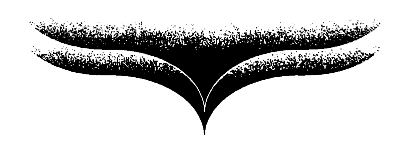
(٣) في (أ): هي.

(٤) في (أ) هو: توقيف.

(٥) سقط من (ب): ما بين القوسين.



تفسير
سورة الأحقاف





ومن سورة الأحقاف

٢٧٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ [الأحقاف:٩]؟

قال: يقول ما أتيت بغير ما أتت به الرسل، من الدعاء إلى الله وإلى حقه، ومعنى ﴿بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ فهو: فستنكرون[1] ما أتيت به وتستعظمون ما نطقت به من[2] سبيل الرسل، كلما أتيت وإلى ما دعت به[3] من طاعة الله، ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾[4] من موت ولا حياة، ولا خير ولا شر في الدنيا، إذ لست أعلم الغيب، ولا[5] يعلم الغيب إلا الله، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، يقول: منذر لكم أنذركم ما أمرت به، ﴿مُّبِينٌ﴾، يقول: مبين بقولي[6]، مظهر لما أتيت به إليكم من ربي.

---

(١) في (ب): أتستنكرون.

(٢) في (أ): هي. مصحفة.

(٣) في (ب): ما دعيت إليه. مصحفة.

(٤) في (أ): يقول من...

(٥) في (أ): وما.

(٦) في (ب): لقولي.

٢٧٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ... إلى قوله: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف:١٠] [١]؟

فقال: هذا كلام تحته ضمير، يريد: قل إن كان من عند الله وكفرتم به، ألستم متعرضين [٢] للنقمة أن تنزل بكم؟! فأما قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، فالشهادة [٣] التي هي مثل هذه التي شهد بها شاهد بني إسرائيل فهي: الشهادة التي شهد بها مؤمن آل فرعون، فهي [٤] مثل هذا الآية، وضميرها مثل ضميرها [٥]، سواء سواء، وهو قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ... إلى قوله: مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر:٢٦] [٦]، فشهد بأنه إن كان موسى صادقا، أصابهم بعض ما يعدهم به موسى من النقم من تكذيبهم بآيات الله، فهذا معنى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف:١٠]، يريد: على مثل الآية الأولى وضميرها [٧]، على أن من كذب بآيات الله ورسله، نزل به من الله تبارك وتعالى ما نزل بغيره من النقم المهلكات، والآفات المتابعات.

---

(١) كمال الآية: ﴿...وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ...﴾.

(٢) في (ب): معترضين.

(٣) في (ب): في الشهادة.

(٤) سقط من (أ): فهي.

(٥) سقط من(أ): مثل ضميرها.

(٦) كمال الآية: ﴿... أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ...﴾.

(٧) في (أ): وضميره.

٢٧٧) وسئل عن قول الله عز ذكره، وجلت أسماؤه: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠]، فقلت: ما الطيبات في هذه الدنيا؟

هو ما يتنعم به الناس ويلبسونه، من صالحيهم وطالحيهم فإن من [١] لبس الثياب السَّرية [٢]، وأكل الطعام الفائق، وركب الخيول، حلالا كان أو حراما، فقد أذهب طيبات الآخرة، بما أطلق لنفسه من استعمال طيبات الدنيا، فأما الكافر وأشباهه فقد استغنينا عن الفتش عن [٣] أمره، بما قد قر [٤] عندنا من حاله، كثرت دنياه أو قلت، فمصيره إلى النار.

وأما المؤمن [٥] به، والعامل بطاعة خالقه، المحتذي في أمره [٦] بما أمره به ربه، فكيف تكون تلك [٧] حاله؟! وإنما جعل الله الطيبات للمؤمنين، خاصة دون الفاسقين، فقال في كتابه عز وجل، لأنبيائه عليهم السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال في كتابه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، ومعناها: ويوم القيامة.

وقال في كتابه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ ...﴾

---

(١) في (أ): إن لبس...
(٢) السرية: الأفضل والخالص.
(٣) في (أ): عنه وعن أمره.
(٤) سقط من (أ): قر.
(٥) في (أ): المؤمنون.
(٦) في (أ): بأمره.
(٧) سقط من (ب): تلك.

[المائدة:٩٣] (١) إلى آخر الآية، فلم يجعل الله عز وجل على المؤمنين حرجا في شيء مما رزقهم، إذا أخذوه (٢) على ما جعل لهم وأمرهم به، فساروا فيه بطاعة الله (٣)، ولم يتعدوا إلى شيء مما يسخط الله، لأن الله عز وجل - أيها السائل - (٤) لم يجعل ما في هذه الدنيا من خيرها ومراكبها التي خلقها لشرار أهلها، ولا لمن عَنَدَ عن طاعة خالقها، وإنما جعلها للصالحين، ولعباده المتقين، يأمرون فيها بأمره، وينهون عن نهيه، مقيمون أحكامه فيها، منفذون لأمره عليها، وللطاعة (٥) والمطيعين، خلقها (٦) رب العالمين، ثم أمرهم ونهاهم، وبصَّرهم غيهم (٧) وهداهم، وجعل لهم الاستطاعة إلى طاعة مولاهم (٨) ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢].

وإنما معنى قوله (٩) سبحانه: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ فتبكيتا منه سبحانه لأهل النار، وتوقيفا على تفريطهم في طاعة ربهم، ومعنى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ أي: تركتم ومحقتم وعطلتم ما جعل الله لكم بالطاعة من النعيم المقيم،

---

(١) كمال الآية: ﴿... فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(٢) في (أ): إذا حدوا.

(٣) في (ب): فساوروا فيه بطاعة ولم. ..

(٤) سقط من (ب): أيها السائل.

(٥) في (ب): يقيمون أحكامه فيها، ويقتدون لأمره عليها، وللطاعة.

(٦) في (أ): خالقها.

(٧) في (أ): عنها.

(٨) في (ب): إلى الطاعة.

(٩) في (أ): معنى الآية وقول الله سبحانه.

والخلد مع المتقين في الثواب الكريم، بارتكابكم المعاصي، وتركِكم الطاعة، حتى خرجتم مما جعل الله للمطيعين، وصرتم إلى حكم الفسقة الكافرين، في عذاب مهين، فهذا معنى ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ﴾.

٢٧٨) وسئل عن قول الله سبحانه: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف:٢٠] [١]؟

فقال صلوات الله عليه: الطيبات التي أذهبوها في حياتهم، فهي: طيبات الجنان التي جعلها الله لأهل الطاعة والإيمان، بما ذكر أنه أعد لأهل التقوى والإحسان، من أزواج الفواكة والرمان، وغير ذلك من النخيل واللحمان، وكل ما تشتهيه الأنفس من اللباس والنسوان. وإذهابهم إياها فهو: بعصيانهم لربهم، وجرأتهم على خالقهم، لأن الله عز وجل إنما حكم بالطيبات لمن أطاعه، وحرمها على من عصاه، فمن أطاعه فقد استوجبها بطاعته، ومن عصاه فقد أذهبها بمعصيته، فهذا تفسير إذهابهم للطيبات، لا ما يقول مَن جهل فلم يعلم، وضل عن مذهبه فلم يفهم، من أن إذهابهم للطيبات هو أكلها في حياتهم، فإن من أكلها في الدنيا الفانية، حُرمها في الآخرة الباقية، وحاش لله أن يكون الجواب على ذلك ! أو يكون قول من علم كذلك!!

ألم تسمعوا قول الله في القرآن، وما نزل من النور والبرهان، حين يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف:٣٢]، فجعلها لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة التي بها، فكيف يقال، أو

(١) تكرر هذا السؤال ولكن الإجابة هنا تختلف عن السابق، فلذلك أثبته.

يستجاز في ذي الجلال والإكرام، أنه [1] جعلها لهم رزقا، وأعطاهم إياها عطاء حقا، في دار الدنيا، ثم حرمهم إياها في الآخرة التي تبقى، عقوبة على أخذ ما أعطاهم، وقبول ما امْتَنَّ به عليهم وآتاهم، وفي ذلك ما يقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝﴾ [المؤمنون:٥١]، فأمر رسله أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا له ما يرضيه من الصالحات، وفي أقل من ذلك ما أجزأ مَن كان ذا حجا، والحمد لله العلي الأعلى.

وأما قوله سبحانه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝﴾، والاستكبار، فهو: الجرأة على الله الواحد الجبار، والمخالفة له في أمره، من ذلك التجبر على عباد الله في أرضه. والفسق وهو: الفسق في الدين، والفسق في الدين فهو: المخالفة لرب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وعلى عترته الأخيار وسلم [2].



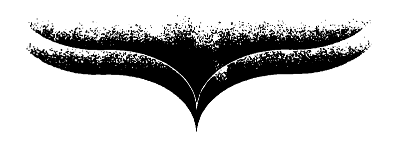
(١) في (أ): أنهم. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) سقط من (ب): هذا السؤال والجواب.



تفسير

سورة محمد





ومن سورة محمد

٢٧٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝﴾ [محمد:٤-٦]؟

فقال: معنى ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فهو[1]: لن يبطلها ولن يَلِتهم إياها، بل سيجازيهم عليها، ويعظم لهم الأجر فيها، ومعنى[2] ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ هو: يهديهم إلى دار ثوابه، ويُصيِّرهم إلى ما أعد لهم من دار كرامته، ومعنى ﴿يُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ فهو: يصلح حالهم، البال الحال والأمر، ومعنى ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ فهو: طيَّبها لهم، وتطييبه لها فهو: جمعه فيها للخيرات التي هي مجموعة فيها، حتى طابت لأهلها بوجودهم كلما يحبون فيها.

٢٨٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ...إلى قوله: فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝﴾ [محمد:١٥][3]؟

---

(١) في (أ): هو.

(٢) في (ب): معنى.

(٣) كمال الآية: ﴿... فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا...﴾.

فقال: أراد الله تبارك وتعالى هل: يستوي من كان في هذه الجنة وفي أسرابها ولذاتها؟! ومن هو خالد في النار يسقى الحميم؟! لا يستويان أبدا !! صدق الله تبارك وتعالى لا يستوي محل أوليائه ومحل أعدائه، أعداؤه [1] في عذاب النار، وأشر قرار، وأولياؤه في خير دار.

فقلت: ما هذه الخمر؟

فقال: هي الخمر التي ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، والغول فهو: ما اغتال العقول. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝﴾ [الصافات:٤٧]، والنزف فهو: ما ينزل [2] بشُرَّاب خمر هذه الدنيا النجسة، فينزفون من طرفيهم [3] مشيا وقيئا، فأخبر الله تبارك وتعالى بطهارة هذه الخمر، وبُعدها مما تفعل خمر الدنيا بأهلها.

(٢٨١) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝﴾ [محمد:٩]، فقلت: ما هذه الأعمال التي أحبطها الله، وهم فلم يؤمنوا فيكون [4] لهم أعمال؟!

وهذا - حاطك الله - فخبر عن فعل من مضى، ممن لم يقبل الهدى [5]، وهو وعيد لمن بقي من أهل الدنيا، ممن يدعي الإسلام، وغيرهم من سائر الأنام، إلى يوم الدين، وحشر العالمين.

فأما أعمال من لم يؤمن بالله ورسله، فإنه لم تكن أمة من الأمم إلا وهي تعلم أن

---

(١) سقط من (ب): أعداؤه.

(٢) في (أ): ينال. مصحفة.

(٣) في (ب): فينزفون عنها من. وطرفيهم يعني: الدبر والفم.

(٤) في (ب): فتكون.

(٥) في (أ): يقبل إلى الهدى.

الله خالقها وخالق غيرها، وذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف:٩]، وكل أمة فقد [(1)] كانت لها أعمال ترى أنها أفضل الأديان، من عبادة الشمس والقمر والنجوم والأنصاب والأوثان[(2)].

ومنهم من كان يعبد الملائكة المقربين، ويزعمون أنهم يريدون بذلك التقرب إلى رب العالمين.

ومنهم من كان يعبد اللات والعزى، وهما قبتان كانتا بالطائف ونخلة، فأخبر الله أن ذلك كله بور حابط، وأنه لكل شيء محبط [(3)]، وإحباطه إياه فهو: حكمه بالبطلان والبور، وجعله إياه سبحانه: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان:٢٣]، لا يرفع منه قليل ولا كثير، ولا ينتفعون منه وإن جهدوا فيه بحقير ولا خطير، إذ ذلك عند الله كفر وشرك وله جحدان [(4)]، وأنه لا يرضى من أحد من خلقه بغير الإخلاص له والإيثار، وترك عبادة كل ما كانوا دونه يعبدون، ورفض ما كانوا يؤثرون، فأما وعيده لمن بقي من بعد أولئك، ممن يدعي الإسلام، وينتحل دين محمد عليه السلام، فقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة:٢٧]، فأخبر أن أعمال من كان غير متقي، وكان من أهل الاجتراء والمعاصي، وكان مقرا بالتوحيد غير مقبولة ولا مرفوعة، ومن كان عارفا بما جاء به الرسول قائما بفرائض ربه، مؤديا لكل أمره، غير مقارف للمظالم والعصيان، ولا داخل في كبائر ما نهى عنه ذو المن والسلطان، فإن

---

(١) في (أ): قد.

(٢) في المخطوطتين: والأوثان والأنصاب. ولعل الصواب ما أثبت.

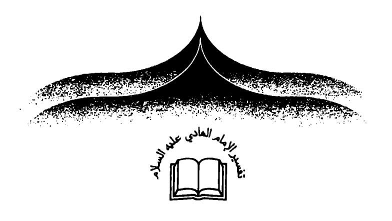
(٣) في (ب): بكل شيء محيط.

(٤) سقط من (ب): وله جحدان.

توبته مقبولة مرفوعة، لأنه إنما يرفع ما يتقبل من الأعمال، لأن رفعه هو تَقَبُّلُه، وتقبله هو رفعه، لا فرق بينهما، فكل [1] ما تَقَبَّله فقد رَفَعَه، وكل ما رُفِع فقد تُقُبِّل، وكذلك حال من كان في الأرض من أهل الملل، وغيرهم من المجوس، ونظرائهم من السامرية والسودان والروم، وغيرهم من أهل البلدان.



(١) في (أ): وكل.



تفسير

سورة الفتح





ومن سورة الفتح

٢٨٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ...إلى قوله: يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [الفتح:١٦] [١]؟

فقال: المخلفون هم [٢] الذين تخلفوا في أهليهم، وتخليف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم، فلم يكن بالأذن منه لهم، ولكن باختيارهم هم، لمعصيتهم لربهم، وإنما جاز أن يقول: ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ [٣] وهم: المتخلفون من أجل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعرض عنهم حين اختاروا التخلف، ولم يغصبهم على الخروج معه، فلذلك جاز أن يقول: المخلفين.

والقوم الذين هم أولوا البأس الشديد فهم أهل فارس وخراسان، فقال: ستدعون إلى قتالهم أو يسلمون، فإن تطيعوا في ذلك يؤتكم الله أجرا حسنا، وإن تتولوا عن قتالهم، وتتخلفوا [٤] كما توليتم وتخلفتم من قبل، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فكان دعاؤهم إلى جهاد أهل فارس من بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قيل: إن أولي البأس الشديد هم الروم [٥]، وإنها وقعة مؤتة وهذا عندي أشبه المعنيين [٦] بالحق، (بأسباب تدخل فيه، ومعاني توضح ذلك وتبينه)[٧].

---

(١) كمال الآية: ﴿... سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ...﴾.

(٢) سقط من (ب): هم.

(٣) في (ب): المخلفين.

(٤) في (أ): وتخلفوا. وتخلفوا هي: تتخلفوا، وإنما تحذف التاء تخفيفا.

(٥) أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال: فارس والروم. الدر المنثور ٧/ ٥٢٠.

(٦) سقط من (ب): المعنيين.

(٧) سقط من (ب): ما بين القوسين.

٢٨٣) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ... إلى قوله: وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح:١٨-٢١] [1]؟

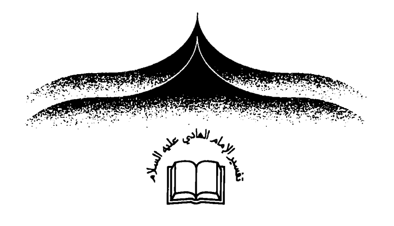
فقال: الشجرة التي بايع المؤمنون رسول الله تحتها فهي شجرة بالحديبية. بايعوا تحتها رسول الله على الصبر والبلوى، أو يدخلوا مكة، وهم بالحرم بجانب فخ، فأنزل الله على نبيه: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٦١]، فلما طلبوا السلم أجابهم رسول الله إلى ذلك، وكتب الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو، على الهدنة عشر سنين، وعلى شروط شرطوها بينهم، ونحر هدي عمرته في الموضع، ورجع على أن يأتي في السنة الأخرى، فيدخل مكة هو وأصحابه ويقيمون بها ثلاثا ويخرجون، وكذلك فعل رسول الله عليه السلام من السنة المقبلة، وتم لهم على الهدنة حتى نقضوا، ومعنى قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: علم ما في قلوبهم من النية والصبر والاحتساب له سبحانه، ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ يقول: أعطاهم ورزقهم فتحا قريبا، وهو فتح خيبر ومغانمها الكثيرة التي أخذوا منها، من النخيل والأثاث، والذهب والفضة، والتي لم يقدروا عليها في ذلك الوقت ثم قدروا عليها من بعد، فهي: بلاد الروم والشامات وما والاها، ثم افتتحوها في غزوة تبوك، افتتحوها[2] من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبنيه.



---

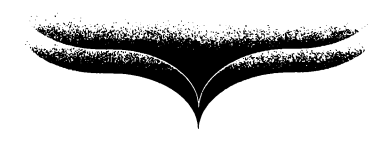
(١) كمال الآيات: ﴿...إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا...﴾.

(٢) في (ب): ثم افتتحوها.



تفسير

سورة الحجرات





ومن سورة الحجرات

٢٨٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [الحجرات:١]؟

فقال: هذا نهي من الله سبحانه للمؤمنين، أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله [1] في شيء من الأشياء، ببسط أمر أو أخذ أو إعطاء، أو إيمان عدو أو مسالمة أو لقاء، دون الله ورسوله، والأذن في ذلك من الله ونبيه [2].

٢٨٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ...﴾ [الحجرات:٣] إلى آخر الآية [3]؟

فقال: هذا ثناء [4] من الله تبارك وتعالى على من يفعل ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إجلالا له وتعظيما، مما يكون من غض صوته وتكريما، فأثنى الله على من فعل ذلك، وأخبر أنه ممن قد امتحن الله قلبه للتقوى، وامتحان الله لقلبه فهو: بما أمره به، من تعظيم نبيه، وإجلال ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم من وحيه، فكان غضهم للأصوات عنده قياما منهم لمؤكد المحنة، وكان قيامهم بالامتحان تقوىً منهم وإيمانا.

---

(١) سقط من (ب): بين يدي الله ورسوله.

(٢) في (ب): ورسوله.

(٣) كمال الآية: ﴿... أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾.

(٤) في (أ): أنباء مصحفة.

٢٨٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ...إلى قوله: أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات:٧] [1]؟

فقال: هذا خبر [2] يخبر سبحانه بتوفيق الله لنبيه، لمعرفته [3] بما جهله غيره في الأحكام، والرأي في جميع أمور أهل الإسلام، فيقول سبحانه: لو أطاعكم الرسول في ما تهوون وتريدون، وتشاءه قلوبكم وتظنون، من طرق كثيرة، وأسباب تميلون [4] إليها جليلة، من حمية [5] وعصبية، لقد عنتم، ومعنى العنوت هو: هلكتم عند الله وعطبتم، ثم أخبر سبحانه بمنته عليهم في أياديه العظيمة لديهم، في ما مَنَّ به فيهم، من تحبيب الإيمان إليهم، وإدخاله في قلوبهم، وتبغيض ما كانوا عليه أولا من الكفر إليهم، وإخراج كل ما كانوا فيه بُدِيًّا من صدورهم، حتى عادوا لجهالتهم الأولة مبغضين، ولما دخلوا فيه من محض الحق محبين، حتى [6] صاروا برحمة الله لله ولرسوله مطيعين، وعن عصيانها نازحين، فصاروا [7] لله من بعد العداوة أولياء، وبحقائق الإسلام من بعد الكفر أتقياء.

---

(١) كمال الآية: ﴿... لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ...﴾.

(٢) سقط من (أ): هذا خبر.

(٣) في (ب): ومعرفته.

(٤) في (أ): يقتلون. مصحفة.

(٥) في (أ): وحية.

(٦) في (ب): وحتى.

(٧) في (أ): وصاروا.

٢٨٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ...إلى قوله: إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]؟

فقال: هذا أمر من الله سبحانه لنبيه وللمؤمنين، في من تشاجر وخرج بالجهل والمعصية إلى ما ذكر الله من القتال، فأمرهم إذا صارت فئتان من المؤمنين إلى هذا الحد أن يصلحوا بينهما، فيمنعوهما [1] من التقاطع في فعلهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى [2] وأبت القبول، وأقبلت الأخرى إلى الحق في الفعل والقول، قاتلوا التي تبغي وتأبى، حتى تفيء إلى الحق والتقوى، والمقاتلة فهي: المحاربة بالطعن والضرب والرمي، أبدا حتى ترجع إلى ما خرجت منه من النصفة، وتترك ما صارت إليه من البغي والحمية، ثم قال سبحانه: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ومعنى ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ فهو: بالحق، ومعنى قوله [3]:﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ فهو: تحروا الحق في ذلك واعدلوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يقول: يحب العادلين المحقين، وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ يدل على أنه أراد فإن لم تف فقاتلوها، حتى تفنوها وتهلكوها وتبيروها، أو ترجع إلى الحق الذي منه خرجت، وتترك الباطل الذي فيه دخلت.

٢٨٨) وسألته عن قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١]؟

---

(١) في (أ): ويمنعوهما.

(٢) سقط من (ب): على الأخرى.

(٣) في (ب): قول الله.

فقال: معنى ﴿لَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ هو لا يقع بعضكم في بعض بالباطل، ولا يؤذيه [١] بالكذب، والوقيعة فيه [٢] بالمحال، ومعنى ﴿لَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ فالتنابز هو: التداعي بالألقاب، وتسمية بعضهم بعضا بها، والألقاب فهي أسامي مكروهة عند الناس، ينبز بها بعضهم بعضا لينتقصه بذلك، فنهى الله من [٣] كان كذلك، عن العودة إلى ما يورِّث الشحناء، ويوقع البلية أهل التقوى، ثم ذكر سبحانه أن من فعل هذا بعد أن نهاه عنه، فقد دخل في اسم الفسوق بالمعصية لله، إذ نهاه عن ذلك، فقال: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ يقول: بئس الرجل رجل عصى، فسمي بعد ما كان مطيعا بفعله ومعصيته فاسقا، فبئس البدل من تبدل الفسق بالإيمان، ومعنى قوله: ﴿لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يقول سبحانه[٤] من لم يتب عما نهي عنه من التنابز وغيره، فهم الظالمون لأنفسهم، بما أوقعوها فيه من الهلكة عند الله على فعالهم.

٢٨٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ... إلى قوله: إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ۝﴾ [الحجرات:١٢]؟

فقال: هذا نهي من الله سبحانه لعباده عن سوء الظن بإخوانهم [٥] المؤمنين، الذين قد عرفوا منهم محض الإيمان، وأيقنوا منهم بترك معاصي الرحمن، ثم أخبر سبحانه أن من ظن بأخيه المؤمن ما قد علم منه خلافه من التقوى، فقد دخل في

---

(١) في (ب): وتؤذوه.

(٢) سقط من (ب): فيه.

(٣) في (ب): فنهى عن من.

(٤) سقط من (أ): سبحانه.

(٥) في (ب): في إخوانهم.

الإثم والردى، ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ يريد[1] سبحانه: ولا تجسسوا من طريق طلب العيب من إخوانكم، والبحث[2] أن تجدوا لهم عيوبا تعيبونهم بها[3]، من بعد أن قد شهدتم بالإيمان لهم، وأقررتم بالتقوى لهم، فهذا الذي نهى الله المؤمنين أن يتجسسوا عليه وفيه وله.

فأما من كان ذا تهمة من أهل الزلة والعثرة، والدخول في ما[4] يسخط الله من المعصية، فالتجسس عليه واجب ليظفر به، ويشهد[5] على فعله، فتقام واجبات حدود الله عليه في صنعه، فيكون ذلك نكالا له ولغيره من شكله، وأما قوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ فهو: نهيٌ[6] منه سبحانه عن أن يقع بعضهم في بعض، أو يرميه[7] بالباطل والبهتان، أو بالظن[8] الكاذب في بعض الشأن[9].

ثم قال سبحانه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ بالاغتياب له من ورائه[10]، وجعلهما سيان في كل معنى، وفي ذلك ما يروى عن رسول الله صلى

(١) في (أ): يقول.
(٢) في (ب): والحب.
(٣) في (ب): تعيبوا بها.
(٤) في (ب): فيها.
(٥) في (ب): وليشهد.
(٦) في (ب): ينهى.
(٧) في (أ): من ورائه.
(٨) في (أ): والبهتان بالظن.
(٩) في (أ): الإنسان.
(١٠) في (ب): من ورى.

الله عليه وعلى آله أنه قال: (إن الله يبغض البيت آكل اللحم) [١]، يريد: الذي يُوقَع فيه بالمؤمنين، ويغتابون ويؤذون، وبالباطل فيه يرمون، وفي ذلك [٢] ما روي عنه صلى الله عليه (حين رجم ماعز بن مالك الأسلمي الذي أقر عنده بالزنا فرجمه، ثم انصرف والمسلمون معه [٣]، فقال طلحة والزبير: انظروا إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم يستر على نفسه حتى رجم مرجم الكلب، فسمعهما رسول صلى الله عليه وعلى آله فسكت عنهما، حتى أجاز بجيفة حمار شاغر برجله فوقف، ثم قال لهما: انزلا فأصيبا من هذه الجيفة، فقالا: نعيذك بالله يا رسول الله، أنأكل الميتة ونصيب منها؟! فقال صلى الله عليه: لقد أصبتما من أخيكما آنفا أعظم مما تصيبان من هذه الجيفة، إنه الآن ينقمص في أنهار الجنة) [٤]، يريد: لمّا اصبتما من ماعز بن مالك من الأذية والاغتياب، أعظم عند الله من أكلكما هذه الميتة، لأن الله سبحانه قد حرم اغتياب المؤمنين، كما حرم أكل الميتة، ثُمَّ للمؤمنين حرمة ليست للميتة [٥]، فمن عصى الله بقطيعة رحم [٦] ذي حق، فاغتيابه أعظم من إصابته من الميتة المحرمة، التي لا حرمة لها مع تحريمها.

---

(١) أخرج البيهقي من طريق غياث بن كلوب الكوفي، مطرف، عن سمرة بن جندن، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « إن الله يبغض البيت اللحم » فسألت مطرفاً ما يعني باللحم؟ قال: الذي يغتاب فيه الناس. الدر المنثور ٧/ ٥٧٦.

(٢) في (ب): بالباطل ويرمون به. وفي (أ): كذلك وفي ما روى.

(٣) في (ب): ثم انصرف المسلمون فقال.

(٤) أخرجه عبد الرزاق، والبخاري في الأدب، وأبو يعلى، وابن المنذر، والبيهقي في شعب الإيمان. الدر المنثور ٧/ ٥٧٣.

ورواه المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٥٠٩، وقال: رواه ابن حبان في صحيحه.

(٥) في (ب): للميت.

(٦) سقط من (ب): رحم.

٢٩٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ... إلى قوله: إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٤]؟

فقال: هذا إخبار من الله من الله سبحانه، وشهادة منه على أن الإيمان: قول مقول، وعمل معمول، واعتقاد في العقول، وتكذيب لمن قال بغير ذلك، من أن الإيمان قول بلا عمل، فأخبر سبحانه أن الأعراب الذين قالوا، وأقروا وصدقوا ولم يعملوا، أنهم في قولهم أنهم مؤمنون مبطلون كاذبون، وأمرهم أن يقولوا: أسلمنا، ومعنى ﴿أَسْلَمْنَا﴾ فهو [١]: صدقنا واستسلمنا للحكم، ألا ترى كيف قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يريد: لم يصح الإيمان لكم، ولم يدخل في قلوبكم بالقول دون العمل، فلستم [٢] من المستسلمين العاملين [٣]، ولستم من المؤمنين المخلصين.

ثم أخبرهم سبحانه أنهم إن تابوا ورجعوا إلى العمل فعملوا بعد القول، واعتقدوا طاعة ذي الجلال والطول، فعملوا بأمره كله، وانتهوا عن نهيه كله، وكانوا مع إقرارهم بالوحدانية له [٤] عاملين مجتهدين، كانوا من بعد ذلك عندهم من المفلحين، وصح لهم به [٥] اسم المؤمنين، وذلك قوله: ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ يريد: لا ينقصكم من جزاء أفعالكم وسعيكم، ولو كان كما يقول أهل الجهل والبهتان أن الإيمان قول بلا عمل، لما قال: ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾،

---

(١) في (أ): هو.

(٢) في (أ): ولستم.

(٣) في (أ): القائلين.

(٤) سقط من (ب): له.

(٥) سقط من (أ): به.

ولما قال للأعراب [1] الذين وحدوا وشهدوا بالشهادتين، وصدقوا وجاهدوا، ولم يعملوا بكل الفرائض: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، يريد سبحانه: لن تكونوا أبدا مؤمنين، حتى تكونوا بالفرائض كلها عاملين.

٢٩١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧]؟

فقال: هذا ذم من الله سبحانه لمن منَّ على رسول الله صلى الله عليه بالطاعة له [2]، والمعاونة والقيام فيما أوجب الله عليه، فأخبر الله [3] سبحانه أن من يمن بطاعة رسول الله، أو بالدخول في طاعته، والقيام بواجب فرض الله، مخطئ في فعله، عاصي لربه، منقص لدينه، غير شاكر لنعمة خالقه، ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه، أن يبين لمن كان كذلك، أو فعل شيئا من ذلك، فيعلمه أنه ليس على رسوله له في إسلامه مِنَّة، فإنه لم يفعل في ذلك إليه حسنة، ثم أخبر أن المنة على من فعل ذلك لله ولرسوله، إذ هداه إلى النجاة، وخلصه من الهلكة، حتى صار من أهل الجنان، بعد أن كان من حطب النيران، وحتى صار برحمة الله ومنته لله وليا مستوجبا لثوابه، بعد أن كان لله حربا عدوا مستأهلا لعقابه.

ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أنكم مؤمنون، وفيما تدعون من الإخلاص، فأقروا بما قلنا،

---

(١) في (ب): ولما قال قالت الأعراب الذين. ..

(٢) سقط من (أ): له.

(٣) سقط من (ب): الله.

واخضعوا لحقنا، فإن لم تقروا بذلك وتخضعوا، فلستم بصادقين فيما تَدَّعون من الإيمان، وتنسبون إليه أنفسكم من الإخلاص للرحمن، وهذه الآية نزلت في بعض من كان مع النبي صلى الله عليه، من كبار قريش، كان عتب عليه النبي في بعض أفعاله، ومنَّ على النبي بإسلامه واتباعه له، وقيامه معه ونصره له، فأنزل الله عز وجل فيه ما تسمع، وأوقع عليه في ذلك من الذم ما أوقع [1].



---

(١) أخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه بسند حسن، عن عبد الله بن أبي أوفى، أنا أناسا من العرب قالوا: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل الله ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ.. الآية﴾.

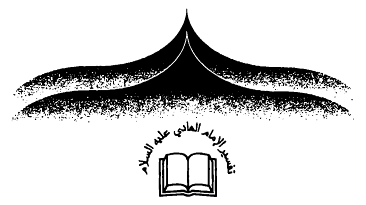
وأخرج النسائي، والبزار، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك، فنزلت هذه الآية ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن جرير، عن سعيد بن جبير قال: أتى قوم من الأعراب من بني أسد إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: جئناك ولم نقاتلك فأنزل الله ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الحسن قال: لما فتحت مكة جاء ناسٌ، فقالوا: يا رسول الله إنا قد أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل الله ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ ﴾.

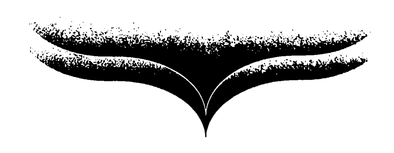
وأخرج ابن سعد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة رهط من بني أسد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أول سنة تسع وفيهم حضرمي بن عامر، وضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد، وقتادة بن القائف، وسلمة بن حبيش، ونقادة بن عبد الله بن خلف، وطلحة بن خويلد، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد مع أصحابه فسلموا وقال متكلمهم: يا رسول الله إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثا، ونحن لمن وراءنا سلم، فأنزل الله ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ ...﴾الآية. الدر المنثور ٧/ ٥٨٥.





تفسير

سورة (ق)





ومن سورة ق

٢٩٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قٓ.. إلى قوله: هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝﴾[ق:١-٢]؟

فقال: ﴿قٓ﴾ هو جبل كريم، جعل الله فيه بركة وخيرا عظيما، ويقال: إنه أكبر جبال الدنيا، أعظمها عِظَما، وأبعدها أمدا، وأشدها ارتفاعا، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝﴾ هو قرآن محمد صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ فهو: العظيم الكريم، ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ معناها: لقد عجبوا، وهو جواب القسم بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ﴾[1] فقامت الباء مقام اللام، والمعنى فهو: باللام، ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، فالمنذر هو: محمد صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى ﴿مُّنذِرٌ﴾، فهو: مخوِّف معذر، بين يدي عذاب الله ونقمه، وأخذه وبطشه.

٢٩٣) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝﴾ [ق:٤]؟

فقال: يخبر سبحانه أنه يعلم بكل ما تنقص الأرض، ممن يقع في جوفها من موتاها، فأخبر أنه يعلم ما تأكل منهم الأرض، وما يبقى من ترابهم ورميمهم، ومعنى قوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ يقول: عندنا من ذلك علم محفوظ، حتى نردهم من حيث ما كانوا، أو نجمع أجزاءهم و أعضاءهم من حيث ما توجهوا، حتى نلم بعضها إلى بعض، من حيث ما كانت من الأرض.

(١) في (أ): وبالقرآن.

٢٩٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝﴾ [ق:٦]؟

فقال: تزيينها فهو: بما فيها من النجوم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ [الملك:٥]، ومعنى قوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ هو: وما فيها [1] من فروج، فقامت اللام مقام في، لأنها من حروف الصفات، وحروف الصفات [2] يعقب بعضها بعضا، والفروج فهي: الفتوق والشقوق، والاختلاف بالفطور، فأخبر سبحانه أنها مستوية ليس فيها من ذلك شيء، وأصل ما أراد بذكر السماء وأمرها، وما جعل فيها من زينتها، ونفى عنها من فطورها، أنه أراد سبحانه: أفلا توقن، يريد: يا هذا من فعلنا بقدرتنا، على ما أنكر بما ذكرنا له من حشرنا لعبادنا، وبعثنا البشر، مَن فعل ما فعل في السماء، بقادر على أن يحشر ويعيد الأشياء.

٢٩٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝﴾ [ق:٩-١٠]؟

فقال: هذا مثلُ قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠] [3]، فأخبر أنه أنزل من السماء ماء فأنبت به ما أنبت، من الجنان والحب الحصيد، والنخل الباسقات ذوات الطلع النضيد، وأما معنى قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ فالجنات هي: البساتين والحدائق ذوات الإلتفاف، والثمار والإئتلاف، ذوات الأنهار الجاريات،

---

(١) في (ب): ما فيها.

(٢) سقط من (ب): وحروف الصفات.

(٣) في (أ): ﴿حي أفلا يؤمنون﴾.

والثمار المذللات، اللواتي قد جمعن كل الثمار، وجرت فيها بينهن وخلالهن الأنهار، فما كان هكذا فالعرب تسميه جنانا، فعلى ذلك يخرج ما سمى حصيد اليبسة وبلوغه واستحصاده، فكل شيء بلغ غايته وينع [١] تسميه العرب مستحصدا، وحصيدا، أي: قد جاء وقت حصاده وقطعه، وبلغ غاية [٢] ما ينتظر به وأخذه.

ومعنى قوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ﴾، فالباسقات هن: الطوال المشرفات [٣]، المرتفعات الساميات، ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ فالطلع هو: هذا الطلع الذي يخرج في النخل المعروف، ومعنى ﴿نَّضِيدٌ﴾ فهو: منضود بعضه على [٤] بعض، مُدَاخَلٌ بعضه في بعض، مجتمع متقارب، وتلك صفته ما دام في أكمامه، حتى تتفلق عنه أغشيته، ثم تتفرق من بعد التناضد شماريخه، وتتباعد خيطانه.

٢٩٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝﴾ [ق:١٥]؟

فقال: هذا تقريع من الله للكافرين، وإخزاء منه بالتبكيت للمكذبين، الذين كذبوا النشأة الآخرة [٥]، وأنكروا ما ذكر من [٦] البعث والقيامة، وكبر ذلك في صدورهم، ولم يوقنوا برد الأبدان بعد بلائها وفنائها، وتفرقها [٧] في الأجداث

---

(١) في (أ): ويلغ. مصحفة.
(٢) في (أ): غايته وما.
(٣) في (ب): المشرفات الطوال.
(٤) في (ب): إلى.
(٥) في (ب): الأخرى.
(٦) في (أ): في.
(٧) في (ب): وتخرقها.

وذهابها، فقال سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾؟! يريد: إن كان الخلق الأول أعيانا وأتعبنا، فسيعيينا إعادته في النشأة الآخرة، وإن لم يكن بُدُوّ خلقكم أعيانا، فإن ردكم هو أهون من ابتدائكم علينا، ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي [(١)]: بل هم في شك من ردنا لهم بعد البلاء في خلق جديد.

٢٩٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝﴾ [ق:١٨-١٩]؟

فقال: يخبر الله [(٢)] سبحانه بحفظ الحفظة له، الذين عن يمينه وعن شماله [(٣)]، وهما الملكان اللذان ذكر الله أنهما [(٤)]: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝﴾ [ق:١٧] يحفظان عليه كل لفظه وفعله، وهما الرقيب العتيد، الذي مع كل آدمي، والرقيب فهو: المحصي لفعل كل فاعل، والعتيد فهو: الثابت الراتب الذي ليس بمفقود، ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [(٥)] فهي: غشية الموت [(٦)] وشدته، وإزالته لعقل الميت وكربته، فشبَّه الله زوال عقل الميت وكربته [(٧)]، وما ينزل به من غشيته، بالسكرة التي تذهب العقل وتفسده [(٨)].

---

(١) في (ب): يريد.
(٢) سقط من (ب): الله.
(٣) سقط من (أ): وعن شماله.
(٤) سقط من (أ): أنهما.
(٥) سقطت من (ب): وجاءت.
(٦) سقط من (أ): الموت.
(٧) في (ب): لكربه.
(٨) في (أ): بالعقل وتفسد العقل.

والعرب تمثل كل شدة أزالت عقل صاحبها بالسكر، تقول: مرت بنا من هذه الأمور سكرات بعد سكرات، تريد: شدائدَ حالاتٍ بعد حالات، ومعنى قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فهو: بحقائق ما وعد الله. من ذلك قوله [١]: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥، الأنبياء:٣٥، العنكبوت:٥٧]، فجاء وعد الله على حقائقه [٢]، ونزل بأهله على يقينه وصدقه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يقول: ذلك ما كنت منه يا هذا الميت تحيد [٣]، ومعنى ﴿تَحِيدُ﴾ فهو: تفر منه وتكره قربه، ولا تريده نفسه.

٢٩٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝﴾ [ق:٢١-٢٢]؟

فقال: هذا في يوم القيامة، عند خروج الخلق من قبورهم، ومصيرهم إلى حشرهم، ووقت حسابهم، حينئذ تأتي كل نفس ومعها [٤] ما ذكر الله من السائق والشهيد، والسائق والشهيد فهو: الرقيب الذي ذكر الله العتيد، وهما الملكان اللذان قال الله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ فهما يشهدان عليه ويسوقانه، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ يقول [٥] سبحانه: قد كنت لتكذيبك [٦]، وقلة نظرك لنفسك، والإعراض عن العمل في الدنيا، بما يخلصك في هذا اليوم في غفلة، والغفلة فهي: من التارك للعمل.

---

(١) في (أ): وقوله.

(٢) في (أ): حقائق.

(٣) في (أ): ما كان منه هذا الميت يحيد، ومعنى يحيد.

(٤) في (أ): معها.

(٥) في (أ): فيقول.

(٦) في (ب): بتكذيبك.

معنى ﴿كَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ فهو: [١]: بما أظهر له من المعاينة لما كان فيه شاكا[٢]، وعن العمل له معرضا [٣]، حتى رآه عيانا، وواجهه صراحا، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ فهذا مَثَلٌ مثَّل به الله له، يريد به [٤] إنك كنت من قبلُ تكذب بهذا وبرؤيته، فقد أصبحت اليوم حديد البصر بمعاينته، وزال[٥] عنك الخبر، ووقع العيان.

٢٩٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝﴾ [ق:٢٣]؟

قال: القرين الذي يقول هذا، فهو: الصاحب الفاسق المغوي له في الدنيا، والمشارك له في الإثم، من جني موسوس مغوي، أو إنسي رديء فاجر مؤذي، معنى ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ فهو: ما عندي ولي، مما أستوجبه بفعلي، ﴿عَتِيدٌ﴾ فهو: مقيم، وهو عذاب الله الأليم النازل به، وبقرينه المشارك له في آثامه.

٣٠٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝﴾ [ق:٢٨-٢٩]؟

فقال: أخبر [٦] سبحانه باختصام الفاجر وقرينه، وتلاومه هو ونظيره، فكان من ردِّ الله عليهما، حين كان عنهما ما كان من قولهما، أن [٧] قال: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾

---

(١) في (ب): هو.
(٢) في (أ): شاك.
(٣) في (ب): عن العمل. وفي (أ): معرض.
(٤) سقط من (أ): به.
(٥) في (أ): زال.
(٦) في (أ): فأخبر.
(٧) سقط من (ب): أن.

يقول: لا تختصموا اليوم [١] عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ يقول: قد [٢] قدمت إليكم بالإعذار والإنذار، والوعيد لهذا النهار، فلم ينفعكما إعذاري، ولم يردعكما عن [٣] المعصية وعيدي، فاليوم لا يبدل القول لدي، وتبديله فهو: تحريفه، والتحريف فهو: من الكافرين عند تخاصمهم، يقول بعضهم لبعض: هذا بأفعالكم، وهذا [٤] بأسبابكم نزل بنا، وحق علينا وعيد ربنا، ويقول الآخرون مثل مقالتهم، وينسبون سبب ذلك إليهم، فكلٌّ يطرح الذنب على صاحبه، ويحيل الإغواء عليه[٥].

٣٠١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝﴾ [ق:٣٠]؟

فقال: هذا اليوم يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، ومعنى قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝﴾ هو قوله لخزنتها: هل امتلأت؟ وكذلك قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، لما أن كان الخزنة من أسبابها، جاز أن يطرح الخزنة ويكون الخطاب لها، على مجاز الكلام، وهذا في القرآن [٦] موجود وفي اللغة. ومثل ذلك من كتاب الله [٧]، قوله سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣]، والعجل لا يُشرب في القلوب [٨]، وإنما الذي شربه القلب

---

(١) سقط من (أ): اليوم.
(٢) سقط من (أ): قد.
(٣) في (ب): من.
(٤) في (ب): وهو.
(٥) سقط من (ب): عليه.
(٦) في (أ): الكلام موجود في ...
(٧) في (أ): كتاب الله كثير وقوله.
(٨) في (ب): القلب.

حبه، فأراد: أشربوا في قلوبهم حب العجل، فطرح حبه، وأقام العجل مقامه، إذ كان من سببه.

يقول الشاعر:

ألا إنني سقيت أسود حالكا الأبجلي من الشراب الأبجلي [1]

فقال: سقيت أسود، والأسود لا يسقاه أحد، وإنما سقي [2] سم الأسود، فطرح السم وأثبت الأسود مكانه، إذ كان من سببه، والشاهد على ذلك من كتاب الله سبحانه أيضا قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، والقرية فإنما هي: البيوت والأبنية، وليس شيء من هذا يخاطب ولا يُسأل، وإنما أراد أهل القرية وسَاكنها [3]، فطرح الأهل والساكن إذ كانوا من سبب القرية، وأثبت القرية، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ أراد: لخزنة جهنم، فطرح الخزنة إذ كانوا من سبب جهنم، وأثبت جهنم، فجاء المعنى [4] كأن المخاطبة لجهنم، وإنما المخاطبة لخزنتها والقَوَمة بها.

٣٠٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝﴾ [ق:٣١-٣٣]؟

فقال: ﴿أُزْلِفَتْ﴾ معناها: كرمت وشرفت، وقربت منهم وقربوا منها، وهذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (أ): أحد وسهو سم.

(٣) في (ب): وسكانها.

(٤) في (أ): المنادى.

مشتق من الزلفاء، والزلفاء فهي: الكرامة والخاصة [1] العالية، ومعنى ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ فهو: خَشِيَه في الغيب، والغيب فهو: ما غاب عن الناس واستتر، من ضمير القلوب، أو عمل مستور، ومعنى ﴿جَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فهو: جاء يوم القيامة بقلب نائب راجع، وقد رجع في دنياه إلى الله، وأناب إلى طاعة الله، (فكان لها في دنياه من العاملين، ورجع إلى الله وهو من المنيبين المكرَّمين)[2].

٣٠٣) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ... إلى قوله: وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٦-٣٧]؟

فقال: معنى ﴿فَنَقَّبُوا﴾ هو: ركضوا فهربوا [3] خوفا من العذاب فلم يغنهم ذلك، ولحقتهم من الله النقم والمهالك، معنى قوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ هو: هل وجدوا من الله محيصا؟! ومعنى ﴿مَّحِيصٍ﴾ فهو: مهرب وملجأ [4] يحيصون إليه، أو يروغون إليه، أو يلتوون [5] نحوه، ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ يقول: تذكرة وعبرة، ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: من كانت له فكرة ونظر، واستعمال للتميز بعقله إذا فكر، معنى ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ فهو: ألقى بالطاعة إلى الله ورسوله، فسمع لأمر الله وأطاع، وكان لأحكام الله ذا قبول واتباع، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يقول: شاهد لله بالحق، قائل فيه بالصدق، يشهد أن ما جاء به نبيه من الله، وأنه أنزل بأمر الله، وأنه من عند الله.



---

(١) في (أ): بالخلاصة.

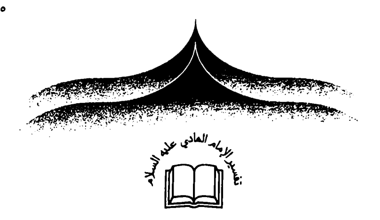
(٢) سقط من (ب): ما بين القوسين.

(٣) في (ب): وهربوا.

(٤) في (ب): مهابا وملجأ.

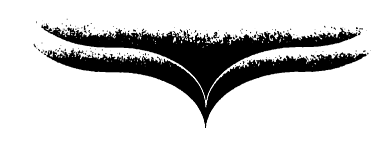
(٥) في (أ): يرغبون إليه أو يلحون نحوه.





تفسير

سورة الذاريات





ومن سورة الذاريات

٣٠٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝ ...إلى قوله: لَوَٰقِعٞ ۝﴾ [الذاريات:١-٦]؟

فقال: ﴿ٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ هي: الرياح اللواتي تذرى ما تذري من التراب وغيره، مما تحمله الرياح وتذروه، ﴿ذَرۡوٗا﴾ (١) فهو: تأكيد لذروها، وتعجيب لأمرها(٢)، وهو كقول الرجل: فلان يضرب ضربا شديدا، وفلان جرى جريا، ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝﴾ فهن(٣): السحاب، والوقر فهو: ما فيهن من الماء، ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝﴾ فقد قيل إنهن: السفن، و﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝﴾ فهن(٤): الملائكة التي تقسم رحمة الله بأمره، وتسوق أرزاقه (٥) إلى خلقه، من ماء السماء الذي به حياة جميع الأشياء، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝﴾ هو: جواب القسم بما أقسم الله به من هذه الأشياء المتقدمة، فأخبر أن وعده حق، وأن قوله في ذلك كله صدق، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝﴾ الدين فهو: الجزاء، والجزاء هو: يكون في يوم الدين، ويوم الدين فهو: يوم حشر العالمين، وفي ذلك يقع الدين، والدين فهو: ما ذكرنا من أنه الجزاء للخلق على أفعالهم، يجازى ويدان أهل المعاصي بعذاب النيران، ويدان ويجازى أهل الإيمان بالثواب الكريم في الجنان، ومعنى قوله: ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ هو: واقع بأهله، حآل بمستأهله.

---

(١) في (أ): ذروا شديدا.
(٢) في (ب): أمرها.
(٣) في (أ): وهن.
(٤) في (أ): فهي.
(٥) في (ب): رزقه.

٣٠٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝﴾ [الذاريات:٧-١١]؟

فقال: ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ هو: الاستواء والإنحباك، والمنحبك من الأشياء فهو: المعتدل المستوي، الذي لا إخلاف فيه ولا افتراق، ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ يقول: إنكم لفي آراء وأقاويل ومذاهب مختلفة لا تجتمعون على الحق، ولا تقولون ما يجب، من كلمة الصدق، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ معنى ﴿يُؤْفَكُ﴾ فهو: يعجز عن قول حقه، واتباع صدقه، مَن عجز، والعاجز هاهنا من قبوله فهو: المكذب بما سمع من قيله، ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ معناها: لعن الخراصون، والخراصون فهم: الكاذبون المتقولون على أهل الحق بالباطل، الذين ينطقون فيهم من المنكر ما ليس فيهم، ويقولون بالمحال والكذب عليهم، ﴿فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ أي: في غفلة، وبحور جهالة، ﴿سَاهُونَ﴾ أي: معرضون غافلون عما يجب عليهم في تكذيبهم، وعما هو نازل بهم من العقوبة على كفرهم.

٣٠٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝﴾ [الذاريات:١٢-١٣]؟

فقال: معنى ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ هو: إخبار من الله عن قولهم، وذلك أنهم كانوا يقولون: أيان يوم الدين؟ ومعنى ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى يوم الدين؟ وأيُّ يوم الدين الذي تصف يا محمد؟ والدين فهو: الجزاء، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يريد: هذا اليوم الذي يسألون عن وقته، ويكذبون بك وبه، هو: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، ومعنى ﴿هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾:

هم في النار يفتنون، فقامت ﴿عَلَى﴾ مقام (في)، ومعنى ﴿يُفْتَنُونَ﴾ فهو: يعذبون، فأخبر الله أن يوم الدين عذابهم في النار وخزيهم، وحين ملاقاتهم لسوء فعلهم.

٣٠٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝﴾ [الذاريات:٢٢-٢٣]؟

فقال: يريد أن في السماء ومن السماء، ينزل الماء الذي منه حياة كل شيء، وصلاح أرزاق كل شيء، من الثمار والأشجار والزروع مما يأكله الأنام، وتعيش به سوائم الأنعام، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يخبر أن من السماء ينزل عليكم كل وعيد، من العذاب الفادح الشديد المهلك العتيد، ثم أقسم سبحانه أن كل ما ذكر وعدد لنا، وحذر من البعث والحساب والثواب والعقاب، وهبوط الأرزاق، حق كما أنكم تنطقون حقا، لا شك فيه ولا امتراء.

٣٠٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ ...إلى قوله: أَلَا تَأْكُلُونَ ۝﴾ [الذاريات:٢٦-٢٧][1]؟

فقال: ضيف إبراهيم هم الملائكة التي أرسلها الله إلى لوط تنجيه وأهله، وتهلك قومه الذين يعملون السيئات، أتوا إلى عند إبراهيم بُدِيًّا، فقالوا: سلاما، سلموا عليه فرد إبراهيم عليهم السلام، ثم قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لا نعرفكم من أهل دهرنا، ونحن ننكر خليقتكم وصوركم، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ يقول: عطف إلى أهله ومنزله، ﴿فَجَآءَ - إلى القوم - بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ مشوي، يطعمهم إياه، فوضعه بين أيديهم، ثم قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟! فلما رأى - صلى الله عليه - أيديهم لا تصل

(١) كمال الآيات: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ...﴾.

إليه كما ذكر في غير هذه السورة: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، والخيفة فهي: الفزع والمخافة، ومعنى ﴿أَوْجَسَ﴾: أحس منهم بالحق، وعلم عند ذلك أنهم ملائكة، فقالوا له: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات ٢٨]، بإسحاق صلى الله عليه، فوهب الله له إسحاق بعد إسماعيل عليهما السلام، كما قال في غير هذه السورة.

٣٠٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ...إلى قوله: ﴿كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٣٨-٤٢][1]؟

فقال: يريد وفي موسى: آيات وعبرة، إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين، يريد: بحجة وبرهان مبين، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ يريد: بجانبه، أي: حوَّل وجهه، وثنى شقه وجانبه[2]، ملتفتا عن موسى، معرضا عما جاء به من الهدى، ناسبا ما جاء به موسى إلى السحر والجنون، وهذا شيء يفعله الجبابرة المتكبرون، الفراعنة الطاغون، فإذا سمعوا ما لا يحبون، وواجهوا ما لا يريدون، صدوا بأحد جانبيهم، ولووا وجوههم مع مناكبهم، منحرفين عن من بذلك يقاربهم.

معنى ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ أي: أوقعناه وجنوده في النقم، معنى ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: رمينا بهم في اليم، واليم فهو: البحر المالح الأعظم، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ معنى ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾: مستوجب للعقوبة بفعله، مستدعي لدواعي اللائمة إلى نفسه، فاعل لكل ما يلام به، واللائمة هنا فهو: الذنب الذي

---

(١) الآيات كاملة: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٣٨-٤٢].

(٢) في (أ): وجانبا. مصحفة.

عوقب عليه، ولامه الله فيه، وعاقبه عليه، وقد قيل: إن المليم هو: الصامت المتحير الباهت، يرى من الأمر ما قد بهته وأفزعه، والقول الأول أحبهما إليَّ، وأصحهما عندي، ﴿وَفِي عَادٍ﴾ يقول: وفي عاد آية وعبرة وتذكرة، لمن أراد التذكرة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾، و﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ فهي: ريح العذاب الشديد الأليم، الذي لا فسحة معها، ولا فرج فيها، ولا تقيس [1] لمن استوجبها، فلما أن لم يكن فيها راحة [2]، ولا تخفيف ساعة واحدة، قيل: هي عقيم من الفرج والراحة، أي: لا فرج فيها، كما يقال: رجل عقم وامرأة عقيمة، وهما اللذان لا يلدان ولا يكون منهما ولد، فكذلك هذه الريح الشديدة العظيمة التي لا راحة فيها، ولا يكون منها سكون طرفة عين عن أهلها، حتى تدمر كل ما أتت عليه، معنى إلا جعلته كالرميم: يقول: ضربته وطحنته وأبادته، حتى تركته مثل الرميم، والرميم فهو: الحشيش البالي القديم العهد بالحياة، الذي قد بلي واسودَّ [3] وفني، ولم يبق فيه إلا فتات لا منفعة فيه.

٣١٠) وسألته عن قول الله سبحانه ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ...إلى قوله: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات:٤٧-٤٩]؟

فقال: معنى بنيناها هو: جعلناها وخلقناها، وقدرناها سقفا عليكم ودبرناها، ومعنى ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ فهو: بقوة واقتدار، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يقول: إنا لها لمعظمون موسعون، فهي واسعة عظيمة، طبق على طبق غير ناقصة ولا صغيرة،

---

(١) في (أ): نفس.

(٢) في (أ): رائحة. مصحفة.

(٣) في (أ): واسواد.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ يقول: بسطناها لكم ومهدناها فصارت لكم بتقديرنا فراشا، ولأحيائكم وأمواتكم برحمتنا كفاتا، و﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝﴾ فمعناها: الباسطون المسوون، الموطؤن لصعبها، المسهلون لسبلها، ومعنى قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ يريد سبحانه: إنا خلقنا من كل صنف ذكرا وأنثى، ثم خلقنا منها نسل ذلك الصنف، والمعنى فأخبر سبحانه بأصل التناسل أنه من الزوجين، والزوجان فهو: الزوج والزوجة [1] المتزاوجان، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: لعلكم تتفكرون في قدرة من جعل ذلك، ودبره كذلك، حتى توالد كل صنف من ذكر وأنثى، فيعلموا أن الذي دبر ذلك في الابتداء، قادر سبحانه على أن يحيي الموتى.

٣١١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝﴾ ...إلى قوله: ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝﴾ [الذاريات:٥٦-٥٩] [2]؟

فقال: هذه شهادة من الله وقول بالحق، وإخبار عن [3] فعله الصدق، أنه لم يخلق خلقا إلا لطاعته، والعمل بمرضاته، لا ما يقول الكفرة، فأكذبهم الله تبارك وتعالى بما ذكر في هذه الآية، عن الأكل والشرب والحاجة إلى الرزق، والذي ليس كمثله شيء، ولا يشبهه شيء، وهو على خلاف كل شيء، مباين لكل شيء، وهو السميع العليم، ثم أخبر أنه الرزاق غير المرزوق، الذي لا يحتاج إلى المخلوقين، وهم إليه

---

(١) في (أ): الزوجة والزوج.

(٢) الآيات كاملة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝﴾ [الذاريات:٥٦-٥٩].

(٣) في (ب): من.

محتاجون، وإلى رزقه وفضله مضطرون، ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ يقول: ذو القدرة والسطوة، ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ فهو: القوي العزيز، العظيم المحال، الشديد النكال، ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ يقول: سجال من العذاب واقع بهم، كما نزل بالأولين العاصين، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

لنـــا ذنـــوب ولكـــم ذنـــوب ... فـــإن أبيـــتم فلنـــا القليـــب [(١)]

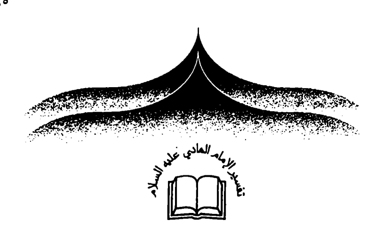
يقول لنا جزء ولكم جزء، ولنا دلو ولكم دلو، فإن أبيتم أن نستقي وتستقون، طردناكم عن القليب وأخذناه كله، والقليب فهي: البئر العادية.



---

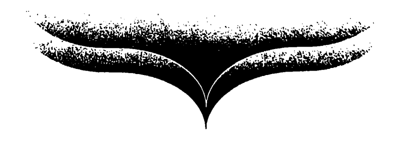
(١) لم أقف على هذا البيت.





تفسير

سورة الطور





ومن سورة الطور

٣١٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝ ...إلى قوله: وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝﴾ [الطور:١-١٠]؟

فقال: هذا قسم من الله سبحانه بهذه الأشياء، لما فيها من عظيم الآيات والثناء، والبركة والخير لمن اهتدى، ﴿وَٱلطُّورِ﴾ فهو: جبل بالشام يسمى: الطور، كثير البركة والخير، ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ فهو: كتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم المذكور، ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝﴾، والرق فهو: الرق المعروف الذي يكتب فيه المصاحف، ﴿مَّنشُورٖ﴾ فهو: مفتوح معلوم، ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝﴾ فهي: كعبة الله التي جعلها قبلة للمؤمنين، وهي بكة، وهي بقعة البيت التي في وسط مكة، ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝﴾ فهي: السماء المرفوعة، التي جعلها الله سقفا للأرض الموضوعة، ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ فهو: البحر الأخضر المالح الأكبر، و﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ فهو: ذو الصوت والهيجان والأمواج، فشبه الله اضطرابه، وتقليب مياهه، واصتدام[1] أمواجه، بالتنور المسجور، و﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ فهو: الموقد الذي قد تأججت ناره، واستوقدت فيه، فهاج لها صوت لديه، والعرب تقول: اسجر التنور، أي: أوقده. فشبه الله تبارك وتعالى البحر بالسجير، لتسجير النار في التنور[2]، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ

---

(١) في (ب): واصطدام.

(٢) في (أ): البحر بالتسجير، بتسجير النار في التنور. وفي (ب): بالسجير البحر، لتسجير النار في التنور. ولفقت النص من (أ) و (ب).

لَوَاقِعٌ﴾، فوقع القسم على وقوع العذاب، ﴿مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ يقول: ما فيه من حيلة، ولا له من مانع، ثم أخبر متى يقع العذاب الذي عليه أقسم، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾، وذلك فهو: يوم القيامة، الذي تمور فيه السماء، ومورها فهو: إمحاقها وذهابها وتقطعها، ورجوعها إلى ما منه خلقها ربها، وفي ذلك اليوم ﴿تَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾، ومعنى ﴿تَسِيرُ سَيْرًا﴾ فهو: نسفها عن وجه الأرض، وذهابها من الأرض، كما ذكر الله سبحانه حين يقول: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، أي: تنقطع وتذهب وتمحق، كقطع السحاب وذهابه، من بعد تجسمه واجتماعه، فهذا معنى ﴿تَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾.

٣١٣) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ ...إلى قوله: أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١١-١٥]؟

فقال: هذا إخبار من الله بأن الويل ينزل بالمكذبين، في ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:٩-١٠]، والويل فهو: العذاب، والمكذبون فهم: الذين كذبوا بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ فالخوض هو: التكذيب والمزج والشك والمرج[1]، و﴿يَلْعَبُونَ﴾ فهو: يعبثون ويهزءون، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ معنى ﴿يُدَعُّونَ﴾ أي: يدفعون ويدقون، ويجزون ويضربون، تقول العرب: دَعَّه أي: ادفعه بيدك، والْكُزه بجمعك،

---

(١) في (أ): والمروج والشك والمزح. مصحفة.

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝﴾، في الدنيا تجحدون ومواقعتها في هذا اليوم تنكرون، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝﴾، يقول: هذا سحر كما كنتم تفعلون في الدنيا إذا أنذرتم بذلك، أم أنتم لا تبصرون ما قد دفعهم فيه، يريد: بلى إنكم لتبصرونه وترونه عيانا، بعد أن كنتم تكذبون به وتنكرونه إنكارا.

٣١٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ...إلى قوله: كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝﴾ [الطور:٢١]؟

فقال: يريد سبحانه أن كل مؤمن يتبعه ذريته بإيمان مثل إيمانه، ولقيت الله بذلك، فإنهم يلتقون به في دار الثواب، وقوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ يريد: وما أنقصناهم مما وعدناهم على إيمانهم شيئا، فأما قوله: ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ فإنما يقول: من جزاء عملهم، وأما قوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فهو: يخبر أن كل امرئ بعمله مرتهن، وبكسبه مجازى، خيرا فخيرا، وشرا فشرا.

٣١٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝﴾ [الطور:٢٣]؟

فقال: اللغو فهو: الهذيان والكلام الذي يخرج ممن قد زال عقله، فيلغى في لفظه عند سكره، وشربه لخمره، فأخبر الله أن خمر الآخرة لا يفسد منها العقول ولا ينطق شاربها باللغو والفضول، وأما قوله: ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ فهو: لا إثم على شارب خمر الآخرة، (من الإثم والعقوبات، وما أوعد الله عليها شاربها من النكرات)[1].

(١) سقط من (ب): ما بين القوسين.

٣١٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝﴾ [الطور:٢٦-٢٧]؟

فقال: هذا قول من المؤمنين، عندما نجاهم الله في الآخرة من العذاب المهين، يخبرون أنهم كانوا في الدنيا وهم بين أهليهم مشفقين من عذاب الله، ومعنى ﴿مُشْفِقِينَ﴾ فهو: خائفون وجلون، فَمَنَّ الله علينا بصرف ما كان منه وجلنا وإشفاقنا، من عذاب السموم، وإنما اشتق السموم من الأمر الشديد من وجه السموم، و﴿ٱلسَّمُومِ﴾ فهي: النار ذات الحريق، والحرا المهيل، ومنه اشتق اسم السموم للريح الحارة الشديدة الحر، التي تلفح الوجوه منها، كمثل لفح وهيج النار.

٣١٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝﴾ [الطور:٢٩]؟

فقال: هذا أمر من الله، أمر به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يُذَكِّر به ويدعو إليه، ثم أخبر أنه ليس كما يقول الكافرون فيه، ويقذفونه به من الكهانة والجنون، فنفى الله ذلك عنه، فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝﴾ بل أنت الرسول الكريم الأمين.

٣١٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝ ...إلى قوله: سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝﴾ [الطور:٤٤]؟

فقال: هذا إخبار من الله عما يقول الكافرون في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا يقولون: إنه شاعر لا رسول، وكان بعضهم يقول لبعض، تربصوا به ريب المنون، معنى تربصوا، فهو: انتظروا وتوقعوا ريب المنون، والريب فهو:

الوقوع والنزول، و﴿ٱلْمَنُونِ﴾ فهي: الموت، فأمر الله نبيه عليه السلام أن يقول لهم: ﴿تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾، يقول: انتظروا بي فإني انتظر بكم مثل ما تنتظرون بي، وأعظم من ذلك، مما أرجوه من نزول عذاب الله عليكم. ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ يقول: أليس يزعمون أن لهم أحلاما وعقولا(١)؟! أفأحلامهم تأمرهم، وتدلهم على المكابرة للحق، وقول الباطل، ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يريد: أم هم قوم قد طغوا عليك، فسينزل بهم البلاء على طغيانهم، ويحل بهم النقم على كفرهم، معنى ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بقوله يريد: أم يقولون أنه كذبه، وادعا أنه من الله، وليس من الله، ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾، يقول: بل هم لا يصدقون أنه من الله، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ يريد سبحانه: إن كانوا صادقين أنك تَقَوَّلته، فليأتوا بحديث مثله، يريد: بقرآن مثله، لأنه إن كان منك فسيقدرون على أن يأتوا بمثل ما أتيت به، وإن كان من عندنا فلن يقدروا على ذلك أبدا.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يريد: أفلا يعتبرون فينظروا في خلقهم! أمن غير شيء خلقوا؟! أم من شيء جعلوا؟! فإن نظروا فسيبين لهم من أثر صنعنا، ما يدلهم على أن ما جئت به من عندنا، ثم لينظروا (٢) أهم الخالقون؟! أم غيرهم الخالق؟ فإن أقروا بخلق غيرهم لهم، وبأنهم لم يخلقوا أنفسهم، فسيعلمون أن الذي أرسلك إليهم، هو الخالق لهم.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ

---

(١) في (أ): أحلام وعقول. مصحفة.

(٢) في (أ): انتظروا. مهملة.

ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، فكل هذا يريد سبحانه: أنهم إن كانوا كذلك، وكانوا يفعلون ذلك، فالقول قولهم، وإن كانوا ليسوا بفاعلين ذلك ولا قادرين عليه، فليعلموا أن الفاعل لما عجزوا عنه هو الباعث لك، والمنزل لما معك مما عجزوا أن يأتوا بمثله.

﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾، يريد: أم هم المستحصون لكل الأشياء، الموكلون عليها، الحافظون لقليلها وكثيرها، فلن يكونوا كذلك أبدا، ولن يكون غير الله كذلك، ولن يعلمه ويحصيه سواه.

﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾، هذا مَثَلٌ مَثَّلَه الله تبارك وتعالى، يقول: أم لهم سلم يرقون فيه إلى السماوات، حتى يسمعوا وحي الله الذي ينطق به ملائكته عنه، فإذا كان [(١)] ذلك كذلك عندهم، فليأت الذي استمع في السلم لهم ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة تدل على ذلك وتبيِّنه، وإلا فهم مبطلون، والحجة فهي: السلطان، والمبين: بَيِّنٌ ظاهر [(٢)].

﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾؟! هذا إنكار من الله لقولهم إن الملائكة بنات الله، فقال الله تبارك وتعالى: هل يكون ما قلتم من ذلك، أو يجوز أن يُصفيكم بالبنين ويدع لنفسه البنات، لو كان كما يقولون، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وتقدس عما يقول فيه الكافرون تقديسا عزيزا كريما.

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور:٤٠] ، يقول: أم هذا الصدود والمنافرة لك، لأجر سألتهم إياه؟! والأجر فهي: الأجرة على ما جاء به،

---

(١) سقط من (أ): كان.

(٢) في (أ): بين الظاهر. مصحفة.

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ يقول: فهم من شدة الغرم الذي ألزمتهم إياه، ﴿مُّثْقَلُونَ﴾، معنى ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أي: مفدوحون لا يطيقون ما كلفتهم، ولا يجدون ما سألتهم، فهم كارهون لأمرك، لعظيم ما كلفتهم من أجرك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾، يقول: أم عندهم علم الغيب فهم يعلمون كل شيء، فيكون ما قالوا من علم غيبهم، ومعنى ﴿يَكْتُبُونَ﴾ فهو: يعلمون.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾، يقول: أم هذا الذي يفعلون بك من التكذيب وغيره، هو مكر يمكرونه، وكيد لك يريدونه، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ هم المعذبون الذين يقع عليهم الكيد، ويحقهم دون غيرهم، حتى يكون ما أملوا إيقاعه بك من الكيد عليهم، وتكون أنت سالما من ذلك، وهم فيه واقعون.

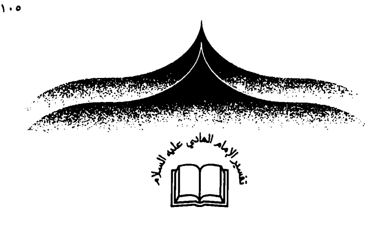
﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يقول: أم لهم خالق ومدبر غير الله، فهم إليه يلجأون وبه يتعززون، كلا ما لهم من إله غير الله الذي عليه يجترون، وبه يكفرون، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يقول: تعالى الله وتنزه عما يقولون ويفعلون من شركهم وكفرهم.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، الكسف هو: العذاب النازل من السماء، فأخبر سبحانه أنهم عند معاينتهم لو عاينوه، لقالوا: هذا سحاب مركوم، والمركوم فهو: الذي بعضه على بعض، فإذا

رأوه توهموا أنه سحاب، حتى [1] يقع عليهم فيهلكهم، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف:٢٤].

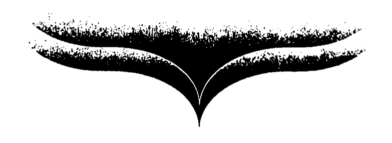


(١) سقط من (ب): حتى.



تفسير

سورة النجم





ومن سورة النجم

٣١٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ ...إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾؟

فقال: هذا قسم من الله سبحانه بالنجوم عند هويها، ومعنى ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ فهو: النجوم جميعا، كما قال الله: يا أيها الإنسان، وهو يريد الناس طرا، ومعنى ﴿هَوَىٰ﴾ فهو: غاب وتدلى، فأقسم بهويه عند هويه، لما في ذلك من عظيم الآيات، وكبير الدلالات، على مسير الأرض والسماوات، ثم قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾، فأقسم بالنجم أن محمدا صلى الله عليه وعلى آله ما ضل عن الهدى، ولا عدى عما أمره به العلي الأعلى، وأنه ما أفك ولا غوى، ومعنى ﴿غَوَىٰ﴾، فهو: ضل وهلك إذ أساء.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، يقول: ما يأتكم صاحبكم إلا بوحي يوحى إليه، ولا يأمركم إلا بما ينزل من الله عليه، ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ معناها: فَهَّمه وأمره به، ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ فهو: جبريل صلى الله عليه، يقول: شديد الأسر والخلق، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ والمرة فهي: العزيمة والقوة، والنفاذ فيما يؤمر به، ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ معناها: فتم وكمل، ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾، والأفق الأعلى: أفق السماء الدنيا، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ يقول: تقرب ودنا، ونزل [1] حتى كان من محمد صلى الله

---

(١) في (ب): قرب بقرب ومنازل نزل.

عليه في الهوى، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾، ومعنى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ فهو: قدر علوتين في الهوى ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾، يقول: أو أقرب من القوسين وفوق القوسين.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝﴾ يقول: جبريل المتدلي الذي [(١)] على قاب قوسين، أو أدنى، إلى عبد الله محمد، ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾، من الوحي الذي بعثه به الواحد الأعلى، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝﴾ يقول: ما كذب فؤاد محمد وقلبه، فيما قد أيقن به، يكابرونه ويجاحدونه، فيما قد عاينه عيانا ورآه.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝﴾، فشهد سبحانه لمحمد صلى الله عليه أنه قد رأى جبريل في الصورة التي خلقه الله فيها [(٢)] مرتين، حين دنى فتدلى، و﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ فهي: أعلا عليين، وعندها جنة المأوى في أعلا عليين، أيضا من فوق السماء السابعة العليا، التي فوقها سدرة المنتهى، حتى رأى جبريل عندها نزلة أخرى، وهذه الآية أيضا حجة في أن الله قد خلق الجنة.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝﴾، فالسدرة هي: سدرة المنتهى، والذي غشيها فهو: جبريل حين رآه محمد عندها وفوقها، غاشيا لها ولغيرها، في خلقه الأعظم الذي خُلق فيه، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ يقول: ما عدل عنه ولا شبهه، ولا تخايله [(٣)] ولا ظنه، بل قد رآه بحقائق الرؤية وأبصره، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾

---

(١) سقط من (أ): الذي.

(٢) في (أ): التي ألا له فيها. مصحفة.

(٣) في (أ): تحامله. مصحفة.

رجع الخبر إلى محمد عليه السلام، يقول: ما طغى في ما خَبَّرَكم به عن ربه، ولا دخله في ذلك أشر [١] ولا بغي، بل قد صدقكم عما أبصر ورأى.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يقول: لقد رأى من جبريل في هذه الصورة، مرة بعد مرة، آية من آيات الله العظمى، لا يشبهها شيء من الأشياء.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، اللات هي: قبة كانت بالطائف، والعزى فهي: أُخرى كانت لهم ببطن نحلة، على مرحلتين من مكة، كانوا يزينوها بالجواهر والذهب والفضة، والثياب الحسنة، وكانوا يعبدونها كما يعبدون الأصنام، ويرونها أعظم قدرا من الأصنام.

﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فهو: كان لهم على الكعبة، فعنفهم الله في عبادته مثل ذلك، يقولك أرأيتم ما تعبدون من هذه؟ لأي معنى تعبدونه؟ ولأي شيء تتخذونه إلها [٢] من دون الله؟ وهن لا ينفعنكم ولا يضررنكم.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ هذا في ما كانوا يزعمون من أن الملائكة بنات الله أناث، وأن لهم البنين الذكور، فقال الله: أيُّ حكم هذا أو عدل عندكم؟! أن تجعلوا لربكم البنات؟ وتجعلون لأنفسكم البنين؟ هذا إذاً قسمة ضيزى! والضيزى فهي: الجائر الفاسدة، التي لم تقع على عدل، ولا على حق.

---

(١) في (ا): أسر. مصحفة.

(٢) في (ا): آلهة.

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ وكذبٌ كذبتموه على الله، لم ينزل به سلطانا، والسلطان، فهو: الحجة والدليل والبرهان، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ يقول: إن يتبعون فيها يسمون ويذكرون، إلا هوى أنفسهم، وظنا[1] منهم بلا حقيقة ولا بيان.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ يقول: قد جاءهم من الله نفي ذلك على لسان نبيه، وبان لهم طريق الهدى، والحق والتقوى.

٣٢٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝﴾...إلى قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝﴾ [النجم:٢٤-٢٦]؟

فقال: ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ يقول: هل يكون للإنسان ما تمنى؟! هل يأتيه ويستوي له تمنيه إذا تمنى؟ أم ليس له غير الحق، وإن لم يكن يشأه. ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ۝﴾، يقول: لله الأمور كلها أمور الآخرة والأولى، والأولى فهي: الدنيا، فأخبر سبحانه أنه لا يمنع أحدا ما يتمناه، ولا يصح في يده شيء من ذلك أصلا، وأن الأمر كله لله الواحد الأعلى.

﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾، فقال: هذا نفي من الله لما تروي الحشوية والإمامية من الشفاعات لأهل المعاصي، فأخبر سبحانه بما أخبر من كثرة الملائكة في السماوات، وأنهم لا تغني شفاعتهم لأحد من خلق الله لو شفعوا، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ يقول: إنهم لو شفعوا

---

(١) في (أ): وظن. مصحفة.

بأسرهم في مذنب واحد، ممن قد حق عليه الوعيد، لم ينفعه ذلك، ولم يجد شفاعتهم عند الله فيه، إلا من بعد أن يأذن الله للمستشفعين، فشفعوا للمؤمنين، الذين قد رضي الله سعيهم، فشفع لهم الأنبياء في زيادة الثواب وكثرة العطاء، وبلوغ ما لا يبلغونه بأعمالهم من الأشياء.

٣٢١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾؟

فكبائر الإثم والفواحش فهو: ما وعد الله عليه النار، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ واللمم هو: ما ألم به الإنسان من غير تعمد ولا قصد ولا إرادة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ معناه: كثير المغفرة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: هو عالم بكم وبأخباركم وبما يكون منكم إلى يوم القيامة، فقد علم ذلك كله منذ وقت إنشائه لكم من الأرض، ومعنى ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فهو: خلقه لآدم عليه السلام في بدئ الخلق من التراب والأرض، ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يقول: إذ أنتم مستجنون في بطون أمهاتكم، قبل خروجكم إلى الأرض، فهو: يعلم ما ستفعلون عند كبركم، وبلوغ أشدكم، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝﴾، يقول: لا تقولوا إنكم أزكياء ولستم بأزكياء، ولا تسموا انفسكم أتقياء، وأنتم تعملون غير عمل أهل التقوى، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، أي: بمن آمن واهتدى واستوى.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ يقول: من أعطى حق الله قليلا، وأكدى على كثير منه، ومعنى أكدى فهو: منع وأبى أن يدفع ما عليه من حق الله،

فقال تبارك وتعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ في ما فعل أنه لا يعاقب عليه، ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾، أي: فهو يعلم ما له وعليه في ذلك، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾، الذي في كتبهما صلوات الله عليهما، فهو ما ذكر أنه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، ومعنى ﴿وَفَّىٰٓ﴾، فهو: بلغ وأدى، ومعنى ﴿وَازِرَةٌ﴾ فهي: حاملة، يقول: لا تحمل حاملة حمل أخرى، وهذا مَثَلٌ، فالذي لا يحمل هاهنا فهو: العمل، لا يحمله غير صاحبه، أي: لا تلزم عمل واحد غيره، بل كل إنسان مأخوذ بعمله دون غيره.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، يقول: ليس يجب للإنسان ولا عليه إلا عمله، ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾، يقول: عمله سوف يظهر، ويوجد غدا عند الله جزاه، ألا ترى كيف تقول ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾، يقول: يعطى عليه العطاء الأوفى، من خير أو شر، و﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ فهو: الذي لا يزيد ولا ينقص.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾، يقول: إلى الله المصير غدا، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾، يخبر سبحانه أنه الذي جعل في الإنسان استطاعة الضحك والبكاء، وركب فيه السخط والرضاء، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾، يخبر أن الموت منه والحياة، في مبتدأ الخلق، والإعادة بعد الموت والإنشاء.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾، فأخبر أنه يريد النطفة في الرحم حينا ذكرا، وحينا أنثى، حتى خلق من هذا الماء المهين الزوجين، اللذين منهما يكون نسل الآدميين.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾، يقول سبحانه: إن عليه أن يبعث الخلق ويردهم بعد فنائهم ويردهم أحياء، يحاسبهم ويعاقبهم ويثيبهم بأفعالهم المتقدمة، فالبعث من القبور هي: النشأة الأخرى، والنشأة الأولى: فابتدأ الخلق من النطفة في الرحم بشرا كاملا.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾، معنى ﴿أَغْنَىٰ﴾ فهو: رزق وأعطى، ومعنى ﴿أَقْنَىٰ﴾ فهو: رزق وكفى، وتولى كفاية عبيده، وأرزاق خليقته.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾، والشعرى: نجم معروف في السماء، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

نظـــرتكم العشـــاء إلى ســـهيل أو الشـــعرى فطـــال بي الإنـــاء[1]

يقول: انتظرت قِراكم أن يأتي إلى طلوع سهيل أو طلوع الشعرى، فطال بي الانتظار، ولم يأت شيء، ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾، ومعناه: يخبر سبحانه أنه الذي أهلك عادا الأولى، ومعنى ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: الأولة، ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ فلم يبق منهم أحدا لما أن عقروا الناقة، وعصوا صالحا، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ

(١) البيت للحطيئة، بلفظ:

وآنيت العشاء إلى سهيل أو الشعرى فطال بي العشاء

من قصيدة مطلعها:

ألا أبلغ بني عوف بن كعب وهل قوم على خلق سواء

كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾، يقول: أظلم من ثمود وأطغى، ومعنى ﴿أَطْغَىٰ﴾، فهو: أبغى وأشر وأردى.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾، معنى ﴿أَهْوَىٰ﴾، فهو: أهلك وأردى.

﴿فَغَشَّىٰهَا – الله من عذابه – مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾، ومعنى ﴿غَشَّىٰ﴾، نزل عليهم وابتلى.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾، يقول: ففي أي آلا ربك تشك، والآلاء فهي: الآيات – هاهنا – والابتلاء.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾، معنى ﴿نَذِيرٌ﴾ فهو: مبلغ معذر منذر، ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ يريد: كالنذر الأولى، يخبر أنهم قد أنذروا كما أنذر الأولون، فإن عصوا كما عصوا أهلكوا كما أهلكوا.

﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾: قربت القريبة، ﴿ٱلْأَزِفَةُ﴾ فهي: القيامة الآخرة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾، يقول: ليس لها من بعد مجيء الله بها دافع ولا مؤخر.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾، يريد سبحانه: أفمن إخبارنا إياكم بالآزفة، وقرب الآخرة، انقطع كلامه، لخوف ما أمامه وقُدَّامه.

﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ۩ ﴿٦٢﴾﴾ أمرٌ منه سبحانه لهم بالإيمان، والتصديق بما جاء به رسولهم من الوعد والوعيد، والسجود فهو: وضع الجبهة على الأرض، والعبادة بالقول والطاعة.

٣٢٢) وسألت عن قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢]؟

واللمم فهو: الخطرة والنظرة، وما جاء عن غير تعمد، ولا مباينة بعصيان، لخالقه الواحد ذي السلطان.

٣٢٣) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝﴾ [النجم:١٣-١٧]؟

فشهد سبحانه لمحمد صلى الله عليه أنه قد رأى جبريل في الصورة التي خلقه الله فيها مرتين حين دنى فتدلى، وعند سدرة المنتهى[1]، وسدرة المنتهى فهي: أعلا عليين ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ في أعلا عليين أيضا، من فوق السماء السابعة العليا، وهذه الآية حجة في أنه أسرى بعبده ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى إلى السماء السابعة العليا، التي فوقها سدرة المنتهى، حتى رأى جبريل عندها نزلة أخرى، وهذه الآية أيضا حجة في أن الله قد خلق الجنة. ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝﴾ [النجم:١٦-١٧]، فالسدرة هي: سدرة

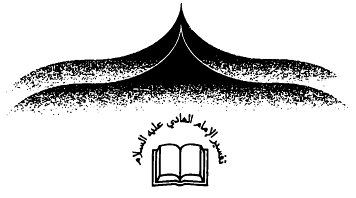
---

(١) أخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن مسعود، ا، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته، فأراه صورته فسد الأفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝﴾ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝﴾ قال: خلق جبريل.
وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح ينفض من ريشة التهاويل والدر والياقوت» الدر المنثور ٧/ ٦٤٣ – ٦٤٤.

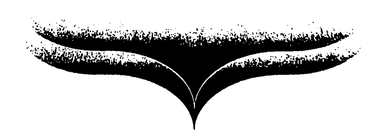
المنتهى، والذي غشيها فهو جبريل حين رآه محمد عندها، وفوقها غاشيا لها ولغيرها، في خلقه الأعظم الذي خلق فيه. ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ يقول: ما عدل عنه ولا تخايله ولا ظنه، بل قد رآه بحقائق الرؤية وأبصره، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ رجع الخبر إلى محمد عليه السلام، يقول: ما طغى فيما خبركم به عن ربه، ولا دخله في ذلك أشر ولا بغي، بل قد صدقكم عما أبصر ورأى. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١٨]، يقول: رأى جبريل في هذه الصورة مرة بعد مرة، آية من آيات الله العظمى، لا يشبهها شيء من الأشياء [1].



(١) في (ب): فقال: جبريل الذي رآه محمد نزلة بعد نزلة، في صورته التي خلقه الله فيها، صورة الملائكة، ولم تره صلى الله عليهما على صورة الملائكة إلا مرتين، مرة يوم أحد ومرة عند سدرة المنتهى، حين أسري به، وسدرة المنتهى فهي: أعلى عليين في السماء السابعة.



تفسير
سورة القمر





ومن سورة القمر

٣٢٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝﴾ ...إلى قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾؟

فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ فهو: إخبار من الله سبحانه لنبيه بقرب الساعة ودنوها، أنه لم يبق من الدنيا إلا يسير، وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ يقول: اقتربت الساعة، واقترب انشقاق القمر، وانشقاقه فهو: في يوم الدين، في وقت تبديل السماوات والأرضين.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾، يقول تبارك وتعالى: وإن يرى المشركون آية من آياتنا يعرضوا عنها، بالتكذيب بحقائقها، ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾، أي: مستمر متابع[1] كل يوم بآيتنا منه شيء.

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ يقول: كذبوا بالآيات، واتبعوا في ذلك ما يهوون من الباطل، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝﴾ يقول: كل أمر يكون منهم فهو مستقر عندنا، حتى نجازيهم غدا عليه، ونوفيهم ما كان من وعدنا فيه، ومعنى ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ فهو: محفوظ ثابت لا ينسى ولا يضل.

﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝﴾، يقول: قد جاءهم من الأخبار والآيات الصادقات، والدلائل الباهرات، ما فيه ما زجرهم عما هم عليه، ومعنى زجرهم فهو: نهاهم ومنعهم، عما هم فيه من باطلهم.

---

(١) في (أ): مستوى. مصحفة.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝﴾، يقول: آيات محكمة، ودلائل كافية بالغة، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يقول: ما يردعهم الرسل عند ذلك، و﴿ٱلنُّذُرُ﴾ هنا فهي: إنذار الرسل لهم، وبعثها بذلك من الله سبحانه.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يقول: دعهم إذ لم يقبلوا، وأعرض عنهم إذ لم يطيعوا، ثم ابتدأ سبحانه الخبر فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝﴾ معنى ذلك: سيعلمون يوم يدع الداعي لشيء نكر، والنكر فهو: الأمر.

معنى ﴿خُشَّعًا﴾ فهي: مغضوضة لا يرفعون رؤوسهم، ولا يمدون ﴿أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ أمامهم، من الفزع والخوف، والإيقان بالبلاء العظيم، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ فالأجداث هي: القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝﴾، فشبههم في كثرتهم بالجراد المنتشر، وهو: الكثير المعروف، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، معنى ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ فهم: تابعون مسرعون إلى نحو الداعي والداعي فهو: الذي يدعوهم إلى موضع الحشر ويأمرهم المصير إليه، ﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾، ومعنى ﴿هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: عسر لدينا، شديد علينا، إذ حق وعد الله فينا.

٣٢٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝﴾؟

فقال: هي السفن التي تُعمل من الألواح، وتُشد بالدسر، والدسر فهو: الحبال والمسامير، التي تربط بها وتُدسر، ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ فهي: تسير في البحر بعلمنا، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ،والذي كُفر هو: نوح صلى الله عليه، يقول: جزيناه على صبره على من كان كفر نعمته، وعصى أمره، بالنجاة في هذه السفن، مما وقع بالكافرين لنعمه، المشركين بما جاء من الله به.

٣٢٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝﴾؟

فقال: هذا إخبار من الله سبحانه بما أرسل على عاد من ريح الصرصر، وريح الصرصر فهي: الريح الباردة الشديدة العظيمة القوية، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، يريد: تنزع نفوس الناس من أبدانهم، وتخرجها [1] من جثثهم حتى تبقى أبدانا مطرحة ميتة، لا أرواح فيها، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، شَبَّه جثثهم وعظمها، بأسافل النخل الساقط المتقلع، المنقعر فهو: المتقلع من أصله.

٣٢٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ۝﴾؟

فقال: معنى ﴿مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي: جاعلوا الناقة، ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: محنة لهم، ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظر معصيتهم فيها، ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أي: اصبر حتى يعصوا في فعلهم، فترى ما تحب فيهم، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾، يقول: أعلمهم وقل لهم، إنا قد قسمنا الماء بين الناقة وبينهم، فيوم لها تشربه كله، لا يشربون معها، ولا يردون الماء يوم وردها، ويوم لهم لا ترد فيه الناقة عليهم، ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ يقول: كل يوم فهو شرب لأهله، يشربون فيه الماء ويحتضرونه، ومعنى يحتضرونه فهو: يحضرونه [2] ويشهدونه، فكانوا كذلك حتى عقروا الناقة،

---

(١) في (أ): تخرجها.

(٢) سقط من (أ): فهو يحضرونه.

(فنزل بهم عذاب الله، فكانوا كهشيم المحتظر، والعذاب الذي نزل بهم فهو [1] ما ذكر الله من الصيحة الواحدة، والصيحة فهي: الأمر الذي نزل بهم فأهلكهم، و ﴿هَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝﴾ فهو: دقاق ما قد بلي من الشوك والعيدان، الذي احتضر به المحتضر على نفسه وغنمه، ثم طال عهده، فبلي وتفتت، وهو شيء كانت العرب تفعله، يجمع الرجل منها [2] الشوك والعيدان فيحظره حظيرة [3] على غنمه، حتى لا يخرج منها شيء، فشبه الله هؤلاء الذين أهلكهم بهشيم ذلك الشوك، الذي جعل حظيرة بعد فنائه وبلائه.

٣٢٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾؟

فقال: الحاصب هو: الرمي الذي وقع بهم، والرجم الذي نزل من السماء عليهم.

٣٢٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾؟

فقال هو: لوط صلى الله عليه، راوده هؤلاء المرجومون ليسلم إليهم ضيفه، وهم الملائكة المقربون، وكانوا يظنون أنهم فتية آدميون، فطمس الله أعينهم، ومعنى طمس أعينهم فهو: حجبناها عن رؤيتهم، ومنعناها عن الوقوع على ملائكة ربهم.

٣٣٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝﴾؟

---

(١) سقط من (أ): ما بين القوسين.

(٢) سقط من (ب): منها.

(٣) سقط من (ب): حظيرة.

فقال: شَبَّه سبحانه قصص من ذكر في هذه السورة ممن أهلكهم من القرون بكفرهم، ثم قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يعني: قريشا والعرب، ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ يقول: من أولئك الذين قصصنا عليكم هلكهم، ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ يقول: أهم خير فنصرف عنهم ما أوقعناه بغيرهم، ممن كفر ككفرهم، ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ والزبر فهي: كتب الله من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، يقول: هل لكم من الله حكم بالبراءة مما وقع بغيركم، فأنتم تجترون لذلك على ربكم، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ يريد: أم يقولون يا محمد نحن لكثرة جماعتنا وعددنا منتصرون من جنود الله إن قاتلتنا، فهذا قليل من جهلهم، وضعف رأيهم، وقولهم: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ الذي به يدلون، وعليه من دون الله يتكلون، حتى ينهزموا من جند الله، ويولون أدبارهم هاربين من أولياء الله.

٣٣١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝﴾؟

فقال أشياعكم هي: أمثالكم ونظراءكم، وإخوانكم في كفركم، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يقول: هل من مذكر أو معتبر؟!

٣٣٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝﴾ ...إلى آخر السورة؟

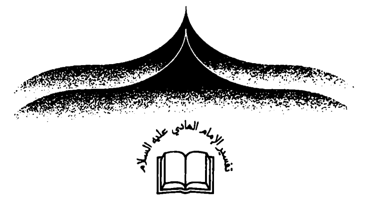
فقال: الزبر هنا هي: العلم، يقول: كل شيء فعلوه وأحدثوه وقالوه، هو في علمنا ثابت مستقر، لا يزل منه ما كبر ولا ما صغر، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝﴾ معنى ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ فهو: مكتوب، ومعنى مكتوب فهو: محفوظ. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝﴾ فالنهر: نهر الأنهار التي تجري في الجنان، ومعنى ﴿مَقْعَدِ

صِدْقٍ﴾ فهو: محل صدق، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، معنى ﴿عِندَ﴾ لدى، ﴿مَلِيكٍ﴾ فهو: المالك لكل شيء، ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ فهو: القادر على كل ما يريد، الذي لا يمتنع منه قريب ولا بعيد.

٣٣٣) سألته عن قول الله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]؟

فقال: هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه بقرب الساعة ودنوها، وأنه لم يبق من الدنيا إلا يسير، وقوله: ﴿ٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ يقول: اقتربت الساعة واقترب انشقاق القمر، وانشقاقه فهو: في يوم الدين، وفي وقت تبديل السماوات والأرضين.





تفسير

سورة الرحمن





ومن سورة الرحمن

٣٣٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝﴾؟

فقال: الرحمن، هو الواحد ذو المن والإحسان، والرحمة ذو الامتنان، ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فمعنى عَلَّمه هو: أنزله وأمر بقراءته وتَعَلُّمِه، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝﴾ فهو: فطره وجعله، وصوَّره وقدَّره، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾ فهو: هداه إلى البيان، وفَهَّمَه اللغة واللسان، وفَهَّمه لما يحتاج إليه من الحجج والبيان. ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾، فمعنى الحسبان هو: الحساب، ومعنى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ فهو: لحسبان، ومعنى لحسبان يقول: خلقهما للحساب، يعرف بهما السنون والشهور والأزمان، ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾، فمعنى سجودهما هو: إسجادهما للمعتبرين المستدلين على الله ممن رءاهما، فلما أن كان السجود من معنى الساجدين، جاز أن يطرح الساجدين، ويثبت السجود، كما قال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] لما كانت القرية من سبب الأهل، طرح الأهل وأثبت القرية، وقد فسرنا ﴿يَسْجُدَانِ﴾ في موضع آخر، وانتقصنا التفسير فيه، مع تفسير قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝﴾، معنى ﴿رَفَعَهَا﴾ هو: علقها سماء وأقلها فوق الأرض، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ فهو: جعل الميزان وهدى إليه، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝﴾ يقول: لا تظلموا فيه، ولا تحتالوا بحيلةٍ باطلٍ عليه، واستوفوا به وأوفوا، فقد جعلته عدلا بيننا وبينكم، وخلقته مبينا لكم، ﴿وَأَقِيمُوا۟

﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ﴾، واعدلوا الوزن وأوفوا بالحق ولا تبخسوا، يقول: لا تنقصوا ولا تبخسوا الميزان. ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝﴾، ومعنى ﴿وَضَعَهَا﴾ هو: خلقها وبسطها ومهدها، ﴿لِلْأَنَامِ﴾ فهم: الخلق.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝﴾، فالفاكهة هي: الفاكهة المعروفة من ألوان الفواكه والأشجار، ﴿وَٱلنَّخْلُ﴾ فهي: النخل المفهومة، ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ والأكمام هي: قشر الطلع الذي ينشق عما فيه من الشماريخ، حتى يخرج الثمر من جوف الأكمام، وتبقى الأكمام معلقة لا شيء فيها، وهي القشور التي تكون عليه أو ما يخرج.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝﴾ فـ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ فهو: الحب من البر والشعير، و﴿ٱلْعَصْفِ﴾ فهو: القصب الذي يُدق فيكون تبنا، وهو الذي ذكر الله عز وجل أنه جعل أهل الفيل كالعصف المأكول، ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ هاهنا فهو: الرزق الواسع من الرحمن، وهو في لغة العرب موجود، تقول: اطلب من ريحان الله، أي: اطلب من رزق الله، وإنما سمت العرب الرزق ريحانا لما لها فيه من الطيب [1] والمعيشة والإحسان، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾، يقول: بأي نعم الله وإحسانه تكذبان؟!

ومعنى ﴿تُكَذِّبَانِ﴾: أيها الثقلان، والثقلان فهما: الجن والإنس.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝﴾، والإنسان فهو: آدم عليه السلام

(١) في (ب): الطلب. مصحفة.

وهو بُديٌّ الناس والذي تفرعوا منه كلهم، والصلصال فهو: الطين اليابس الذي يتصلصل إذا حرك عند يبسه، وصدم بعضه بعضا، ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ يقول: هذا الطين في اليبس والصلصلة كالفخار، الذي صوته إذا ذقر بعضه ببعض، وإنها كان آدم صلصالا من بعد تصوير الله له جسما، طينا لازبا، رطبا متعلكا [١].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝﴾ والجان هي: الجن كلها، والمارج الذي خلقت الجن منه فهو: اللسان الذي ينقطع ويذهب في الهوى من النار، إذا أججت وأوقدت، وهو خالص النار وحقيقتها، وإنها سمي: مارجا لمرجه في الهوى، ومرجه فهو: ذهابه وسرعته، تقول العرب: فلان قد مرج، أي: قد ذهب في معناه وأسرع.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝﴾، فقد تقدم تفسير ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. والمشرقان والمغربان فهما: مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما، من حيث يطلعان في الصيف ويغيبان، وذلك أن لها في الشتاء مطلعا ومغربا، وفي الصيف مطلعا ومغربا [٢] غير مطلع الصيف ومشرقه.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝﴾،﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ معناها: خلقهما وجعلهما وبعثهما، وإخراجهما وإسباحهما على وجه الأرض، كاحتجاجنا في قوله: ﴿مَرَجَ﴾، وفي قول العرب: مرج الإنسان، وقد تقدم شرح ذلك في أول السورة. والبحران فهما: البحر المالح والبحر العذب، وهو الذي

---

(١) في (أ): منعلكا.

(٢) في المخطوطتين: مطلع ومغرب وفي الصيف مطلع ومغرب. والصواب ما أثبت.

يُسمى دجلة، والبحر المالح الذي بمصر إلى فارس، وهما يلتقيان بموضع يقال له: رأس نهر السند[١]، عند مفضاه من البصرة [٢]، ومعنى ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ فهو: جعلهما يلتقيان ويصطدمان [٣]، وقدَّرهما على ذلك سبحانه من الشأن، فيلتقي البحران حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين، وتقف السفن على ملتقاهما، فينظر شق السفينة هذا أخضر، وشقها هذا أبيض، يشرب من يمينها مالحا، ومن يسارها عذبا، ليس بينهما سد يحجزهما، ولا معنى [٤]، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ والبرزخ فهو: فعل الله تبارك وتعالى فيهما، وتقديره لالتقائهما واصطدامهما، وما حجرهما [٥] به من قدرته سبحانه عن اختلافهما كما قال ذو الجلال والسلطان: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، ومعنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [٦] فهو: لا يجوزان ما جعلا له، ولا يقدران على أن يخرجا مما ركبا عليه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝﴾، فاللؤلؤ هو: اللؤلؤ المعروف المستغنى بفهم من يسمع ذكره له من تفسير

---

(١) في (ب): رابين نهر السدر. مصفحة.

(٢) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ قال: بحر فارس وبحر الروم.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قال: بحر فارس وبحر الروم، وبحر المشرق وبحر المغرب. الدر المنثور ٧/ ٦٩٦.

(٣) في (أ): ويصتدمان.

(٤) في (أ): سد يحجرهما ولا معناه. مصحفة.

(٥) في (أ): واصتدامهما وما يحجرهما.

(٦) في المخطوطتين: يبغيان.

معناه، والمزجان فهو: شيء أحمر يخرج منه، فيجعل [1] خرزا يلبسه من شاءه وأراده.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾، فهي: قلوعها التي ترفع بالحبال في رؤوس الأدقال [2]، ليدخل الريح فيها، فتجري بها فتحملها على ظهر الماء، بتقدير ربها. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾، يخبر سبحانه: أن كل شيء فانٍ مما عليها، وهذه التي ذكر الله سبحانه أن ما عليها يفنى فهي: الدنيا، أراد بـ﴿عَلَيْهَا﴾: كل من فيها، فقامت (على) مقام (في)، والدنيا فهو: كل ما خلق من سماوات وأرضين، وما بينهن وفيهن، من ملائكة أو جنين أو إنسين [3]. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، فمعناه: وجه ربك، هو ربك، أراد الذات، لا أن ثَمَّ وجها موجها، وأعضا غيره مؤلفة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فأخبر سبحانه أن كل ما في الدنيا فانٍ، وأنه تبارك وتعالى الوارث كل شيء الباقي، يقرأ بالخفض والياء ﴿ذِى ٱلْجَلَـٰلِ﴾ [4]، ولا يجوز أن يقرأ بالضم والواو: ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾، كما يقرأها الجهال [5]، ردا على ربك، ردا على الوجه، ﴿ٱلْجَلَـٰلِ﴾، فهو: الكبرياء والعظمة والمحال، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾، فهو: التقديس والإجلال والإنعام.

---

(١) في (أ): فجعل.

(٢) قال ابن منظور: والدقل والدوقل: خشبة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع. لسان العرب، مادة: دقل.

(٣) في (أ): وما فيهن وما بينهن إنسين أو جنين.

(٤) سقط من (أ): والياء. ومن (ب): ذي الجلال.

(٥) سقط من (ب): بالضم والواو. ومن (ب): ذو الجلا كما يقرأها الجهال.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾، معنى [(١)] يسأله من في السموات الأرض فهو: يطلب منه الحوائج، ويسأله الفضل والرزق، والمغفرة والرحمة، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، يقول: كل يوم هو في تدبير ما يحتاج إليه ملكه، وتقدير أمر خلقه، من موت من يموت، وخلق من يخلق.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾، معنى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، هو: سنفرغ من إفناء مدة [(٢)] الأجل الذي جعلناه أجلا لإمهالكم وتأخيركم، فإذا أفنينا هذه المدة وفرغنا منها، أتى كلا ما قد [(٣)] أوعدناه عند فناء مدته، وانقضاء مهلته وإمهاله، من موت، أو حلول نقم، فهذا معنى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، و﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ فهما: الجن والإنس، وقد يكون المعنى الذي ذكر الله أنه يفرغ منه هو: مدة الدنيا، التي جعلها ووقّتها، ويكون عند فراغه منها، وإفنائه لما يكون من الجزاء في يوم الدين، جزاء المثابين وجزاء المعاقبين.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ...إلى قوله: إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [(٤)]، هذا إخبار من الله سبحانه وتوقيف للثقلين على عجزهما، وأنهما غير خارجين من قدرة الله ولا إرادته، ولا ما جعلها مسكنا من الأرض والهواء، ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، والسلطان فهو: السبب من الرحمن، يقول: لا تنفذونه، أي: لا تقطعونه [(٥)] ولا تجوزونه ولا

---

(١) سقط من (أ): معنى .

(٢) سقط من (أ): مدة.

(٣) في (ب): كل. وسقط من (ب): قد.

(٤) كمال الآية: ﴿... إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ ...﴾.

(٥) في (أ): لا تستطيعونه.

تخرجون منه، إلا إن يشاء الله ذلك، فيقدركم على ما يشاء، وينقلكم إلى ما يحب من الأشياء، فهذا معنى السلطان الذي ذكره العلي الأعلى.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ الشواظ فهو: اليسير من النار، وهو: اللهب، ﴿وَنُحَاسٌ﴾، فالنحاس هو: الدخان، ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾، يقول: إن نزل بكم ما ذكرنا، وأرسلناه عليكم كما قلنا، لم يكن عندكم لأنفسكم انتصار ولا امتناع، ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾، هذا: يوم الدين عند تبديل السماء، فحينئذ تنشق للبواد والفناء، ثم تعود وردة كالدهان، والوردة فإنما هي: مَثَلٌ مَثَّله الله تبارك وتعالى، يخبر أنها تكون عند تمحقها وتقطعها، كاصفرار الوردة ﴿كَالدِّهَانِ﴾، يقول: يكون لونها كلون الوردة، وتكون بعد هذا التجسم ﴿كَالدِّهَانِ﴾، والدهان فهو: المهل، شبَّه الله به في غير هذا الموضع وهو ماء القطران وصفوه، فأخبر سبحانه أنها تكون كهذا الدهن عند رجوعها إلى الدخان الذي منه خلقت، بعد ما هي عليه اليوم من العظم والجسم الذي عليه جعلت، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾، معنى ﴿لَّا يُسْأَلُ﴾ هو: لا يسأل لاستفادة [1] أمر مجهول، وإنما يسأل للتقريع والإخزاء، لا على أن يُعلم منه شيء من الأشياء.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾، السيماء الذي يعرف به المجرمون فهو: خلقهم وشناعتهم، واسوداد وجوههم في ذلك اليوم، مع آيات كثيرة يبديها الله فيهم، ويجعلها علامات عليهم، يعرفهم بها خزنة جهنم، فحينئذ تأخذهم بنواصيهم وأقدامهم، والنواصي فهي: شعور رؤوسهم

---

(١) في (أ): عن استفادة.

وأرجلهم، حتى تلقيهم في جهنم وبئس المصير، ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝﴾، معنى ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ هو: يعذبون بها وبالحميم، والآن فهو: الشديد الحمو الحار [1] جدا، الذي قد انتهى وبلغ في الحرارة كل مبلغ.

٣٣٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝﴾؟

فقال: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ هن: غوآض الطرف عن غير أزواجهن، عفة وطهارة وكرما، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، يقول: لم يدن منهن إنس ولا جآن، والجآن فلا تدنوا، وإنما هذا على مجاز الكلام كما تكلم العرب، تقول: ما قال هذا القول جني ولا إنسي، فقال: جني، والجن فلا تقول ذلك المقال، وإنما هذا على مجاز الكلام.

٣٣٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝﴾؟

فقال: هما الجنتان، فهما ذواتا الأشجار والأنهار، والمدهامتان فهما: الريانتان اللتان قد رويت أشجارهما حتى إدهامت، ومعنى إدهامت فهو: علاهما السواد لريها، وشدة خضرتها، ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝﴾، فهاتان العينان فهما: (الماء المنبثق الذي يثج من الأرض ثجاجه منهما، حتى يتطاير ويخرج من ينبوعه [2] خروجا، ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فهما:) [3] اللتان ينضخ ماؤهما، لكثرة خروجه منهما، حتى

---

(١) في (أ): الحارة.

(٢) في (أ): نبوعه. وما أثبت اجتهاد.

(٣) سقط من (ب): ما بين القوسين.

يتطاير عند انسكابه تطايراً، يقع منه النضح على ما حواليها، وإنما أخذ ذلك من نضح الشيء، تقول العرب: أنضح وأنضخ بالحاء والخاء جميعا، فالحاء [1] أفصح اللغتين.

٣٣٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾؟

فقال: الخيرات فهي: كل خير مجتمع، من حوريات أو طعام أو شراب أو فواكه، أو شيء من النعم، فجمع الله ذلك كله في ما يسمى من الخيرات، و﴿حِسَانٌ﴾ فهي: فاضلات في معاينتهن [2]، كاملات في شبابهن، ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾، فالحور هن: النساء الحور العين، والحور فهو: نعت من صفات الأعين، وهو حَوَرٌ يكون في العين دعج حسن، يحسن به الأعين، إذا كان فيهن، وتفتخر من كان فيه منهن، ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ فهو: محبوسات مصونات محجوبات، لَسْنَ بدوارات ولا خارجات، بل هن مثافنات [3] لمساكنهن خَفِرات، و﴿ٱلْخِيَامِ﴾ فهي: خيام الدر والياقوت المنضود والمنسوج، وهي: القباب المعمولات المرفوعات، في قصور الحوريات.

٣٣٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾؟

قال: الرفرف فهو: اللين من الفرش، والعبقري فهو: اسم صنف من فرش

---

(١) في (ب): العرب أنضح بالخاء والحاء جميعا، وبالحاء.

(٢) في (أ): معانيهن. مصحفة.

(٣) يعني: ملازمات. قال ابن منظور: ثفنى الشيء يثفنه ثفنا: لزمه. ورجل مثفن لخصمه: ملازم له... والمثافن: المواظب. لسان العرب، مادة ثفن.

الجنة، وقد تقول العرب لما كانت حمرته غالبة على غيرها من الألوان: عبقري.

٣٣٩) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ ... إلى قوله: وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝﴾، وعن قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فقلت: لمَ يذكر في أول هذه السورة اثنين كذا فمن هذان؟

فقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فهو: ذو الرحمة والإحسان، ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فقد يكون تعليمه له هو تنزيله والحض على قراءته وتعلُّمه، بما جعل في ذلك من الثواب لمن كان له من القارئين، وبه في الليل من المتهجدين، وقد يكون معنى ذلك هو: الدلالة منه سبحانه على تأويله، والتسديد والتوفيق لعلم غامض سننه، والمن بذلك على عباده المؤمنين، والإحسان به إلى أوليائه الشاكرين.

فأما قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾، فخلقه: إيجاده له، وتعليمه إياه البيان فهو: تركيبه فيه ما به يميز بين السواية [1] والإحسان، ويفرق به بين الخير والشر، وينقلب به فيما يحتاج إليه من الأمر، وينال به الطاعات، وينحرف به عن المهلكات، من المعقول المفطور عليه، المركب بفضل الله فيه.

ومن البيان ما جعله فيه من استطاعة القول والكلام باللسان، وما ينال به من المحآجة لمن حآجه من الإنسان.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾، فالحسبان هو: الحساب بالأيام والشهور والسنين والأزمان.

(١) السواية، من السوء.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾، فسجودهما هو سجود من سجد لعظمة خالقهما، ممن تفكر في عجيب أمرهما وتصويرهما، وما في خلقهما من العبر والآيات، من ارتفاع النجوم ونورها، ومجاريها وسيرها، واعتدالها في فلكها وتقويمها، وغير ذلك من عجيب حالاتها.

وكذلك الشجر في اختلافه وثمرة، وما نرى فيه من تدبير خالقه، واختلاف ألوانه وطعمه، وعجيب فِعلِ الله في تغذيته، وتنقيله من حال الصغر والفساد، إلى حال الانتهاء ومنافع العباد.

فلما أن كان سجود من يسجد لله من المؤمنين، العارفين بالله المعتبرين، المستدلين عليه بما خلق من المخلوقين، من أجل ما يرون من آيات الله في خلق البشر، وعجيب ما فعل في النجوم والشجر، جاز أن يقول: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ وإن كان الساجد غيرهما من الإنسان، كما جاز أن يقال: إن الله زين للكافرين أعمالهم، وأغفل عن ذكره قلوبهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨]، وقوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل:٤]، والتزيين من الله فهو الإملاء والتأخير، والنظرة والتعمير، وكذلك الإغفال فهو ترك التوفيق لهم والتسديد، والعون من الله والتأييد.

فلما أن كان من الله السبب الذي كان به غفلة قلوبهم واكتسابهم، لذلك جاز أن يقول أغفل الله قلوبهم، وكذلك التزيين لأعمالهم، لما أن كان من الله السبب الذي كان به التزيين، جاز أن يقال: زيَّن الله لهم أعمالهم، لا أن الله فعل التزيين للكفرة ولا شاه[1]، ولا أراده منهم ولا ارتضاه، ولا أغفل سبحانه عن ذكره قلوبهم، بل نهاهم

---

(١) يعني: شاءه. وإنما حذف الهمزة لأن لغته حجازية.

عن ذلك، وعاقب من كان من الخلق كذلك، فعلى هذا المثال، والمجاز من قول الله، جاز أن يقال: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، وإن كانا في أنفسهما لعدم استطاعة التخيير لم يسجدا، ولكن لعجيب تدبير الله وصنعه فيهما إذ أسجدا عباده المعتبرين، وأخشعا من كان ذا خشية لرب العالمين.

وأما قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝﴾، فإخبار منه جل جلاله بها رفع السماء بلا عمد، ودلالة منه على قدرته لكل أحد، وقوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ فهو: جَعَلَ الميزان ودل عليه، وجعله [1] حكما عدلا بين عباده لا حيف ولا ظلم فيه، ثم نهاهم عن الظلم فيه، وأمرهم باتباع القسط فيه، والوزن بالحق والإحسان، ونهاهم عن البخس والعدوان.

ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾، يقول: دحاها وللأنام مهدها، وأخرج لهم ما ذكر من فاكهتها، تفضلا عليهم بها، وإحسانا منه إليهم فيها.

﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝﴾، فالأكمام: قشر الطلعة والغلاف الذي يكون فيه الشماريخ قبل اتساق أكمامها، ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝﴾، والحب فهو: الحنطة والشعير، وغير ذلك مما جعله اللطيف الخبير، والعصف فهو: قصب الحب الأجوف الذي لا حشو فيه، ولا صلابة لديه، وذلك [قول] الواحد الجليل، فيما خبر من فعله في أصحاب الفيل، حين يقول: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝﴾ [الفيل:٥].

---

(١) في (أ): وجعل. وما أثبت اجتهاد.

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. فعنى بذلك: مَن خلق من الإنسان والجآن، والمناجيان في سورة الرحمن فهما الثقلان، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣] [١].

٣٤٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥]؟

فقال: معنى الحسبان فهو [٢]: بحساب وعدد، ومعنى بحساب وعدد فهو: للحساب والعدد، يقول سبحانه: خلقنا الشمس والقمر، وجعلناهما يُعرف بهما وبسيرهما عدد الشهور، والأيام والسنين والدهور، ويحسب بسيرهما عدد الأيام والليالي، فيكون ذلك دليلا على حساب الدهور والأزمان.

٣٤١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣١-٣٢]؟

فقال: معنى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ هو سنفرغ من إفناء مدة الأجل الذي جعلناه أجلا لأمهالكم وتأخيركم، فإذا أفنينا هذه المدة وفرغنا منها، أتى كلا ما قد أوعدناه عند فناء مدته، وانقضاء [٣] مهلته وإمهاله، من موت أو حلول نقم، فهذا معنى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾.

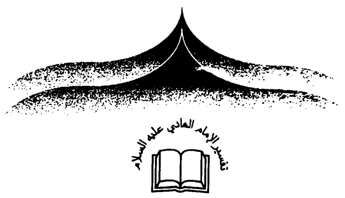
(١) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾؟
وقد أجاب في ذلك أبو الحسين، بما فيه كفاية إن شاء الله. هذا السؤال موجود هنا في (أ) فقط.

(٢) في (ب) فهو: الحساب، ومعنى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ يقول: خلقهما للحساب، يعرف بهما السنون والشهور والأزمان.

(٣) في (أ): وقضاء.

والثقلان فهما: الجن والإنس، وقد يكون المعنى الذي ذكر الله أنه يفرغ منه هو: مدة الدنيا التي جعلها ووقّتها، ويكون عند فراغه منها وإفنائه لها، ما يكون من الجزاء في يوم الدين، جزاء المثابين، وجزاء المعاقبين.





تفسير

سورة الواقعة





ومن سورة الواقعة

٣٤٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝﴾؟

فقال: الواقعة فهي: السابقة النازلة، والقيامة الواقعة بأهلها، ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يقول: ليس لوقوعها ونزولها بهم كاذبة، والكاذبة فهي: الباطلة، الدافعة لما يهجم منها، زائلة عن من تقصد بهولها، تقول العرب للشيء المصمم الواقع بالشيء: أتى غير مكذب حتى وقع به، وتقول: ما كذب [1] حتى أصابه، أو حتى ضربه، تريد: ما أنصرف ولا ألتوي، ولا عوج ولا عرج، حتى وقع بمن أراد أن يقع به، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، الخافضة فهي: الخافضة لمن تخفض من الخلق عن محل الثواب، فتُصَيِّرهم بخفضها لهم إلى أليم العقاب، والخفض هاهنا فهو: من باب الإطراح والقلة والذلة، ﴿رَّافِعَةٌ﴾ فهي: رافعة للمؤمنين إلى مراتب الصالحين، مصيرة لهم إلى رضى رب العالمين، ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝﴾، هو: زعزعت للبوار والفناء فارتجت، وقلقت للتبديل وزعزعت، ومعنى ﴿رُجَّتِ﴾ فهو: تحريكها وقلعها، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝﴾ معنى ﴿بُسَّتِ﴾ هو: أُبيدت وأُفنيت حتى انبسَّت

(١) في (أ): أنا غير مكذب حتى وقع فيه، وتقول: ما أكذب.

بغيرها من الأشياء واختلطت، فصارت بعد العظم كالبسيس، والبسيس فهو: الشيء المايع، كالطعام المسكوب فيه الماء، وهو: الدهن من السمن والزيت، وإنها أراد الله بذلك أن يخبر أنها تعود بعد ما هي عليه من العِظَم إلى الدهان والبياد، والاختلاط بغيرها من الأشياء التي تبس [1] ها بسا، أي: خلط بها [2] خلطا، ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝﴾ والهباء فهو: الغبار الخفي الذي يدخل مع الشمس من الكُوى، والمنبث فهو: الكثير المنتشر، فأخبر سبحانه أنها تعود بعد ما هي عليه من الهباء، للذهاب والفناء، ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ...إلى قوله: وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝﴾، معنى ﴿أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ فهي: أصناف ثلاثة، ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ فهم: أصحاب اليُمن والبركة، والإيمان والطاعة، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ فهم: أصحاب الشؤم واللعنة، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ فهم: الذين سبقوا إلى الله بالطاعة، وقدموها إليه في الحياة الدنيا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾، يخبر أنهم عند الله في القيامة مدنون، من كراماته، ومن جزيل ثوابه، مدخلون في جنات نعمته، ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝﴾ الثلة فهي: الجماعة الصالحة، فأخبر أن المتقين يكونون ثلة من الأولين، ويكونون قليلا من الآخرين، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝﴾، السرر فهي: السرر المعروفة باسمها، ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ فهي: مفسوحة معمولة، وهي سرر تنضد للمؤمنين بالذهب

---

(١) في (ب): بس.

(٢) في (أ): التي يختلط بها. وفي (ب): أي خلط خلطا. ولفقت النص منهما معا.

والجواهر، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝﴾، معنى ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ فهو: مضطجعون على جنوبهم، متقابلون فهو: بعضهم حذاء بعض مقابل له، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝﴾ والولدان فهم: الوصفاء، والمخلدون فهم: الباقون الذين لا يفنون ولا يزالون في الآخرة، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾، فالأكواب فهي: ضرب من آنية الشرب تكون من الجوهر، من الدرر والياقوت، يشرب فيها المؤمنون في الآخرة، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ فهي: الأباريق المعروفة في الدنيا، من الصفر ومن الفضة والذهب، يعملها المتجبرون فتكون في الآخرة من الدرر والياقوت، وأنواع الجوهر، ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ فهي: الخمر خمر الآخرة، التي ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝﴾، كما يصدع شُرَّاب خمر الدنيا منها، و﴿يُنزِفُونَ﴾ والنزف فهو: القيء، وغير ذلك مما يكون من شُرَّاب الخمر، في ما ذكر لنا عنها، الله أعلم بأمرها، فقد ذكر أنهم ينزفون من طرفيهم، من فوق ومن أسفل، إذا شربوها، ومعنى ﴿يُنزِفُونَ﴾ فهو: يخرج منها [1] وينزف ما في بطونهم، فأخبر الله تبارك وتعالى أن خمر الآخرة لا ينزل بشاربها ما نزل بشارب خمر الدنيا من الآفات، بل خمر الآخرة فيها اللذات والطيبات، والصحة والسلامة، والنعمة الكاملة. تم ولله الحمد.

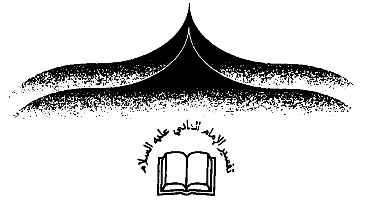
---

(١) سقط من (ب): منها.

٣٤٣) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢]؟

فقال: معنى قوله سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يقول: تجعلون شكرنا على ما رزقناكم تكذيبا منكم لقولنا، وجحدانا لحقنا، فقال سبحانه: لذلك إذ كان شكرهم له على نعمته التكذيب بآياته، وهذا لا يكون شكرا للمنعم على نعمه، إلا لمتعرض لحلول نقمه.





تفسير

سورة الحديد





ومن سورة الحديد

٣٤٤) وسئل عن قول الله سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد:١١]؟

فقال: إن الإستقراض لا يكون إلا عن حاجة من المستقرض (إلى ما استقرض، فما معنى هذا القول؟

قيل له: إن الاستقراض)[1] خارج على معنيين:

فأحدهما: يكون للإنسان، ولا يكون للرحمن، والآخر يجوز للإنسان وللرحمن، ويجوز بذلك القول في الإنسان، فأما الوجه الذي يكون للإنسان، ولا يجوز في الرحمن، فهو: استقراض المحتاج لما يحتاج إليه، مما يقيمه ويحييه، من قُوتِه المضطر إليه، وهذا فلا يجوز القول به في الرحمن.

وأما الوجه الذي يجوز أن يقال به في الرحمن وفي الإنسان، فهو: ما يكون من طاعة المطيع لمن يطيعه، وذلك موجود في اللغة والكلام، عند أهل الفصاحة والعلم والتمام، وذلك قول العرب لمن اصطنع خيرا أو أسدى إلى صاحبه يدا: إن لك عند فلان قرضا حسنا يجزيك به، وكذلك[2] إن كان سوء قيل له: إن لك عنده لقرض

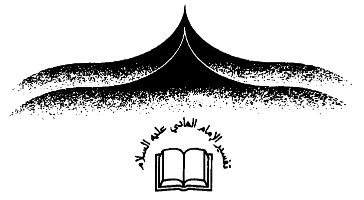
---

(١) سقط من (أ): ما بين القوسين.

(٢) النص في (أ) من هنا إلى نهاية الفقرة هكذا: (وذلك إن كان سوا لداله إن لك عنده لقرض لله لمن أقرض الله قرضا، وقدم إليه عملا حسنا أعطاه على ذلك من الله فضلا وثوابا وخلودا في جنته).

سوء قدمته إليه وأقرضته إياه فاحذره، وكذلك، وعلى ذلك، يخرج معنى القرض لله، فمن أقرض الله قرضا، وقدم إليه عملا حسنا، أعطاه على ذلك من الفضل ثوابا حسنا، لأنه يجزي بالحسنة حسنات، ويعطي من أقرضه بطاعته، ثوابا وخلودا في جنته.





تفسير

سورة الحشر





ومن سورة الحشر

٣٤٥) مسألة: قلت فقوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ﴾ [الحشر:١٩]. كيف النسيان من الخلق؟ وكيف النسيان من الله جل ذكره؟

قال: النسيان منهم هو تركهم لأمره، وإضاعتهم لفرضه، وإقامة حقه، فلما تركوا ذلك وأعرضوا عنه، تركهم من رشده ورحمته ونصره، وتوفيقه وتسديده، وإحسانه وعونه.

فهذا معنى النسيان من الله عز وجل، وقد تأول غير هذا مَن جَهِلَ التأويل، ولم ينظر في قولهم، ولا ما تأولونه من باطلهم وكذبهم.

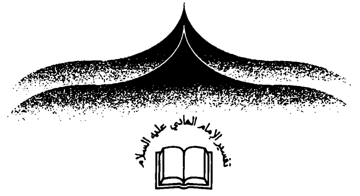
٣٤٦) قلت: فالاستهزاء من الله ما هو؟

قال: الاستهزاء من الله لهم هو: الذم والتصغير لهم، والعيب بقبيح أفعالهم [1].



(١) سقط من (ب): السبعة الأسئلة السابقة وجواباتها.





تفسير
سورة الممتحنة





ومن سورة الممتحنة

٣٤٧) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ [الممتحنة:٦]؟

يريد ما أنفقوا من المهور، وما أخرجوا لنسائهم اللواتي هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مؤمنات، راغبات في الحق مسلمات، وهن: أم الحكم ابنة أبي سفيان، كانت عند عياض بن شداد الفهري، وامرأة من ربيعة، يقال لها: بزوع كانت تحت شماس بن عثمان المخزومي، وعمرة ابنة عبد العزيز بن نضلة [1]، ويقال: هند ابنة أبي جهل، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل السهمي، فهؤلاء اللواتي هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهور، وكان ما أعطاهم فيهن [2] من الغنيمة.

ولم يرد منهن أحدا إلى المشركين، لأن الله حرم ذلك عليهن وعلى المؤمنين، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا

(١) قال أبو القاسم: هبة الله بن سلامة أبي النصر في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ ... ثم نزلت في عياض بن غنم وفي زوجته حيث ذهبت منه إلى الكفار، فارتدت ولحقت بأهلها، وهم أم حكيم بنت أبي سفيان، فأمر الله تعالى أن يعطوا زوجها من الغنيمة بقدر ما ساق إليها من المهر. الناسخ والمنسوخ بها حش أسباب النزول للواحدي / ٣٠٩.

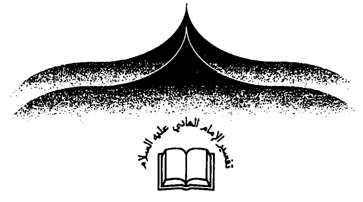
(٢) في (ب): فيه.

تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا ﴾ [الممتحنة:١٠]، وكان ممن أعطي في ذلك عمر بن الخطاب، كانت عنده قريبة ابنة أمية بن المغيرة المخزومي، فلما هاجر أدارها على الهجرة فأبت عليه، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أنفق عليها، ولم تكن آمنت ولا هاجرت، وتزوجها معاوية بن أبي سفيان وهو كافر يومئذ وأعطاه رسول الله أيضا ما أنفق على مَرّتِه أم كلثوم ابنة جرول الخزاعي، حيث أبت أن تهاجر معه [1].



(١) أخرج ابن مردويه، عن ابن شهاب رضي الله عنه قال: بلغنا أن الممتحنة أنزلت في المدة التي ماد فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفار قريس من أجل العهد الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين كفار قريش في المدة، فكان يرد على كفار قريس ما أنفقوا على نسائهم اللاتي يسلمن ويهاجرن وبعولتهن كفار، ولو كانوا حرباً ليست بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبينهم مدة عهد لم يردوا إليهم شيئا مما أنفقوا، وقد حكم الله للمؤمنين على أهل المدة من الكفار بمثل ذلك الحكم، قال الله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ فطلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأته بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم فتزوجها معاوية بن أبي سفيان وبنت جرول من خزاعة. الدر المنثور ٨/ ١٣٥.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن طلحة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ طلقت امرأتي أروى بنت ربيعة، وطلق عمر قريبة بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت جرول الخزاعية. الدر المنثور ٨/ ١٣٨.



تفسير
سورة الصف





ومن سورة الصف

٣٤٨) سألني عن قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ ... إلى قوله:إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝﴾ [الصف:١٠-١١] (١)؟

فقال: المؤمنون - ولله الحمد - عند الله من العذاب فمبعدون، ومن غيرهم يوم القيامة فمميزون، كما قال الله الرحمن الرحيم، في ما نزل على نبيه الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ۝﴾ [الروم:١٤-١٦]. وفي ذلك من تمييزهم ما يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ۝ ... إلى قوله: ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝﴾ [السجدة:١٨-٢٠] (٢).

فأخبر تبارك وتعالى بالفرق بين المؤمنين والفاسقين، وقص علينا ما يكون في

---

(١) كمال الآية: ﴿ ...تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ...﴾ [الصف:١١].

(٢) كمال الآيات: ﴿.. أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ...﴾ [السجدة/ ١٨-٢٠].

عباده يوم الدين، والحمد لله العدل في كل أفعاله، المتفضل بالإعذار والإنذار إلى خلقه، مُعينُ المطيعين، ومذل الفاسقين، المصدق بقوله لقول الموحدين، الشاهد لهم في ذلك بالحق واليقين، المكذب للفسقة المبطلين، من المشبهة المجبرين.

قيل له: إنما [1] أراد الواحد الأحد، المتقدس الفرد الصمد، لما عنه [2] سألت من قوله، الدلالة على فضل الجهاد، والقيام بالحق في الخلق والبلاد، فدلهم بما قال، وبما ضرب لهم من التجارة في الأمثال [3]، على أنه لا شيء عنده يعدل الجهاد، من جميع ما افترض على العباد، فنبههم للخطر [4] والفضل المبين، وأخبر أنه أعظم وأجزل ما يلقونه يوم الدين.

وكيف لا يكون - يا بني - [5] ما ذكر الله من الجهاد كذلك؟! ولا تكون نجاة[6] عند الله سبحانه للعباد من العذاب والمهالك؟! وبه تقوم أحكام رب العالمين، ويحيى دين [7] خاتم النبيين، ويعز المؤمنون، ويذل الفاسقون، وتشبع الأكباد الجائعة، وترفع الرقاب الخاضعة، وتظهر حجج الحق الدامغة، وتموت البدع السايغة [8]، وتعلو وتظهر الخيرات [9]، وتماط وتنفى الفاحشات، ويُعمل في كل

---

(١) في (أ): وإنما أراد.
(٢) في (أ): لطاعنه. مصحفة. ولعل الصواب ما أثبت. وسقط من (ب): لما عنه سألت من قوله.
(٣) في (ب): الأموال.
(٤) في (ب): للحظ.
(٥) سقط من (أ): يا بني.
(٦) في (أ): تجارة. لعلها مصحفة، والصواب ما أثبت. وسقطت من (ب).
(٧) في (أ): سنن.
(٨) في (ب): الشايعة. أو الشائلة.
(٩) في (أ): الحسنات.

البلاد بالصالحات، ويُنصر المظلومون، ويُردع الجائرون وتُكسا الظهور والجنوب العاريات، ويُهات الظلم والشرور، وتقضى الغرامات عن الغارمين، وينصر الله به المستضعفين، ويُعز به الإسلام والمسلمين.

فيا لها تجارة ما أربحها! ودعوة ما أنورها ! لو كان لها من الأنام مجيبون، أو في هذا الأمة المخذولة طالبون، ولكن [(١)] لا طالب لها، ولا تاجر [(٢)] فيها، ولا مقبل إليها، تعلقوا بالشبهات، وتسلوا بالأمنيات، وكرهوا الوفاة، واستطابوا [(٣)] تافه الحياة، ومالوا إلى غرور الدنيا، وجروا واستبقوا في ميادين الهوى، وزهدوا في دار الخلد التي تبقى، التي لا نصب فيها ولا تعب ولا شقاء، كأن لم يسمعوا الواحد العلي الأعلى، يقول في ما نزل من الوحي على نبيه المصطفى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤]، فلعمري إنه الفرة [(٤)] من القتل، ليلاقي [(٥)] من الموت ما هو أشد وأبلى، وأطول نكدا، وأعظم هولا، وما عن الموت لهم من مهرب ولا [(٦)] مصدر، وما ينجو منه من أحد، كما قال رب العالمين: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت:٥٧]، فما عسى مَن فر من القتل والقتال، أن يُمتع، وإن

(١) سقط من (أ): ولكن.

(٢) في (أ): ولا تاجر لها فيها. زيادة من النساخ.

(٣) في (أ): واستطالوا.

(٤) في (أ): إنها القدرة من القتل. وكتب فوق القدرة (كذا). ولعلها مصحفة، وفي (ب): القررة، ولعل الصواب ما أثبت.

(٥) في (ب): لتلاقن.

(٦) سقط من (أ): مهرب ولا.

جمع [1] في الاغترار وطول الآمال [2] [ما جمع]، أيام [3] يسيرة، وحياة غير كثيرة، ثم إلى الله المصير، كما قال في ذلك اللطيف الخبير، ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم إلى قوله: وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب:١٦-١٧] [4].

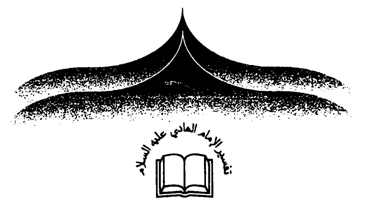


(١) في (ب): حتى.

(٢) في (أ): الأيام.

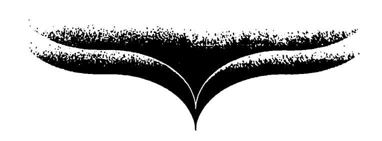
(٣) في (ب): أياما.

(٤) كمال الآية: ﴿...مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً...﴾.



تفسير

سورة المنافقون





ومن سورة المنافقين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ①﴾، هذا خبر من الله تبارك وتعالى أنزله إلى رسوله صلى الله عليه وآله يخبره بضمير المنافقين، عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه، وهو رأس المنافقين، فكان هو وأصحابه - عليهم لعنة الله - يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فيقولون إذا حضروا المجلس وسمعوا ما يتلو من آيات الله وبراهين نبوته: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ﴾ رياء منهم ونفاقا، ومراياة للناس وشقاقا، فأخبره الله أنهم كاذبون في قولهم، ومايعلنون من تصديقهم بنبي الله، والإقرار به، وأعلمه أنهم يضمرون ما لا يبدون، ويقولون غير ما يعتقدون، فقال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يريد بقوله: ﴿جَآءَكَ﴾ أتاك، ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فهم: الذين يقولون غير ما يضمرون، وينافقون رسول الله فيما به يتكلمون، فـ﴿قَالُوا۟﴾ معناها: تكلموا، وذكروا، ﴿نَشْهَدُ﴾ معناها: نقر ونعلم، ونعتقد ونفهم، ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ﴾ معناها: أنك أنت رسول الله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ يقول: الله أعلم ما أرسلك به، وحقيقة بعثه لك إلى خلقه، واحتجاجه برسالتك على بريته، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ فهو: الله يعلم إن المنافقين الذين زعموا أنهم يشهدون إنك رسول الله كاذبون في قولهم، وما ذكروا من اقرارهم بك وتصديقهم، فأخبره أن ضميرهم

واعتقادهم، خلاف ما يبدونه بألسنتهم، وأنهم في قولهم ينافقون، وفيها زعموا أنهم يشهدون به كاذبون.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، هذه الآية وما ذكر قبلها من نفاق المنافقين، فيها شهدوا به من الشهادة التي كانوا في ادعائها مبطلين - نزلت وماذكر في السورة كلها من ذكرهم، فنزلت على النبي صلى الله عليه وعلى آله في غزوة عسفان، وفيها كان من كلام الكافر عبدالله بن أبي وأصحابه، وكان أصل ذلك أن خدم العسكر كانوا يتقدمون إذا بلغوا المناهل فيستقون الماء لأصحابهم، فتقدموا عند رجوع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من غزوته كما كانوا يفعلون إلى الماء، فاجتمع على الماء خدم المنا فقين عبدالله بن أبي وأصحابه، وخدم المؤمنين من المهاجرين والأنصار، فازدحموا عليه، وتطارحوا الكلام حتى تضاربوا، فطرد خدم المؤمنين خدم المنافقين، فلما نزل العسكر وجد عبدالله بن أبي بن سلول خدمه لم يستقوا بعد، فسألهم فأخبروه بما كان من خدم المهاجرين، فقال: آويناهم وقويناهم حتى قووا علينا، والله ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون:٨]، ثم قال لأصحابه: لا تشاوروا أصحاب محمد، ولا تبايعوهم، ولا ترشدوهم ولا تعينوهم، ولا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا[1]، فلما أن بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الخبر هَمَّ بقتله، فأتاه ابنٌ

---

(١) أخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا سافر كان مع كل رجل من أغنياء المؤمنين رجل من الفقراء يحمل له زاده وماءه، فكانوا إذا دنوا من الماء تقدم الفقراء فاستقوا لأصحابهم، فسبقهم أصحاب عبد الله بن أبيّ، فأبوا أن يخلوا عن المؤمنين، فحصرهم المؤمنون، فلما جاء عبد الله بن أبيّ نظر إلى أصحابه فقال: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الذل، وقال: امسكوا عنهم البيع لا تبايعوهم. فسمع زيد بن أرقم قول ابن أبيّ: لئن رجعنا إلى

لعبدالله بن أُبي بن سلول، وكان مؤمنا مخلصا، فقال: يارسول الله إن كنت عزمت على قتله فمرني أنا فآتيك برأسه، فوالذي بعثك بالحق نبيئا ما قولي هذا لشك فيك، ولامعارضة لك في شيء تراه، غير أني أخاف أن تأمر به غيري فيقتله، فيقع في قلبي خشونة على قاتله، فينقص ذلك علي من إسلامي، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: بل نهبه لك، بل نهبه لك»، ثم وهبه له.

فيروى أن العسكر لما وردوا المدينة أخذ ابن عبدالله السيف ثم أتى إلى أبيه به مسلولا، ثم قال: والذي بعث محمدا بالحق نبيئا لتقولن: إن رسول الله الأعز وأنت الأذل، أو لأضربن رأسك بالسيف، فلما رآه مزمعا على قتله إن لم يقل ما أمره به، قالها صاغرا داخرا مكرها، فلما أن بلغ عبدالله بن أبي أن رسول الله قد علم بقوله أتى إليه في جماعة من المنافقين، فحلف له بالله مجتهدا جاهدا إن كنت قلت: ما بلغك

المدينة، وقوله: لا تنفقوا على من عند رسول الله، فأخبر عمه فأخبر عمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابن أبيّ وأصحابه. الدر المنثور ٨/ ١٧٣.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، من طريق الحكم، عن عكرمة، أن عبد الله بن أبيّ بن سلول كان له ابن يقال له: حباب، فسماه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبدا لله، فقال: يا رسول الله إن والدي يؤذي الله ورسوله، فذرني حتى أقتله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقتل أباك»، ثم جاءه أيضاً فقال له: يا رسول الله إن والدي يؤذي الله ورسوله فذرني حتى أقتله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقتل أباك»، ثم جاءه أيضا فقال: يا رسول الله إن والدي يؤذي الله ورسوله، فذرني أقتله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقتل أباك». الدر المنثور ٨/ ١٧٤ - ١٧٥.

وأخرج الطبراني، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه: لما رجع رسول الله ص من بني المصطلق قام عبد الله بن عبد الله بن أبيّ فسلّ على أبيه السيف، وقال: الله عليّ أن لا أغمده حتى تقول: محمد الأعز وأنا الأذل. فقال: ويلك محمد الأعز وأنا الأذل. فبلغت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعجبته، وشكرها له. الدر المنثور ٨/ ١٧٧ - ١٧٨.

عني، ولا تكلمت بهذا الكلام، وحلف إخوانه المنافقون ما قاله، ولا تكلم به، ولقد كنا حاضرين للفظه ولجميع قوله، فأنزل الله فيهم على نبيئه صلى الله عليه وعلى آله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

معنى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ فهو: جعلوا ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾، معناها: قسم وحلفهم بالله، ﴿جُنَّةٗ﴾ فمعنى ﴿جُنَّةٗ﴾ أي: تقية يتقون بها، وسترا يستترون به من رسول الله صلى الله عليه وآله، ويدفعون بها ما يجب عليهم في فعلهم من العقوبة، التي تجب عليهم في قولهم ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله، ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ يقول: إنهم صدوا عن الحق، وعن طاعة رسول الله صلى الله عليه وعلى أهله، حين زالت عنهم العقوبة، لعفو رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم، عندما كان من أيمانهم وحلفهم له، فصدوا أنفسهم عن اتباع الحق، وصدوا غيرهم، ومعنى ﴿صَدُّواْ﴾ فهو: أعرضوا وتركوا سبيل الله التي أمرهم بسلوكها، من أبواب طاعته، وأنواع فرائضه.

﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يقول: إنهم بئس ما كانوا يعملون، فمعنى ﴿سَآءَ﴾ أي: قبح ما كانوا يعملون، ومعنى ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ فهو: يفعلون ويصنعون، من صدهم عن سبيل الله، ودعائهم إلى غير الله، وتكذيبهم لرسول الله.

ثم أخبر سبحانه من أين نزل بهم خذلان الله، حتى فضحهم الله في كتابه، وأطلع المؤمنين على عوراتهم في فرقانه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝﴾، فأخبر سبحانه أنهم آمنوا في أول أمرهم، ثم حملتهم الحمية الجاهلية، والعصبية والأنفة والباطل، عن أن يكونوا هم وغيرهم في الحق سواء، وأن يناصفوا أحدا في الحق، فكفروا من بعد إيمانهم، وأبدوا

العداوة للرسول صلى الله عليه وآله حين ناصف بينهم وبين من هو دونهم في الحق، وساوى بينهم في النصفة، ومنعهم من تجبر الجاهلية وتكبرها، وتعفرتها وظلمها، فرجعوا بعد أن آمنوا برسول الله كافرين به، جاحدين لنبوته، طاعنين عليه، مغتمين من جواره، كارهين لقربه، فسقا وظلما، وتجبرا وكفرا، فأخبر الله سبحانه أن الذي أنزل بهم في كتابه من اللعن والتنقص، وما افترض على المسلمين من البراء منهم، ومنعه لنبيه من الوقوف على قبر من مات منهم، وما أمر به نبيه من مجاهدتهم، والغلظة عليهم، وغير ذلك مما أمر به فيهم، هو لكفرهم بعد إيمانهم، ولنقضهم العهود بعد توكيدها، ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول سبحانه: شهد على نفوسهم بالطبع، والإنقفال عن الهدى، والإعراض عن التقوى، وأخبر أن ذلك كله لخذلان الله لهم، يقول: أنزل الخذلان على قلوبهم فتحيروا، وحل بهم خذلان الله فهلكوا، ورانت المعاصي على قلوبهم فعموا، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقول: فهم لا يهتدون للرشد فيتبعوه، ولا يجدون من دون الله توفيقا، فيستعينوا به على أمرهم، فهم منغمسون في الضلال والعمى، زائغون عن الحق والهدى، متمادون في الحمية والردى.

ثم أخبر سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله بصفاتهم فقال: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾، فدل رسوله عليهم بصفاتهم، من بعد أن دله عليهم بأسمائهم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يقول: إذا أبصرتهم وعاينتهم، يمشون مقبلين أعجبتك أجسامهم، يقول: أعجبك خلق الله لأبدانهم، وعجيب ما قدر فصور من أعضائهم، وحَسَّن من تصويرهم، وأتقن من تقديرهم، الذي لم يشكروا الله عليه، ولم يحمدوه فيه، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ

﴿لِقَوْلِهِمْ﴾ يريد تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَقُولُوا﴾ أي: يتكلموا بقول، وإن يتكلموا تسمع لقولهم، ومعنى ﴿تَسْمَعْ﴾ فهو: تستمع، ومعنى ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾ فهو: لكلامهم، يريد سبحانه بقوله: ﴿تَسْمَعْ﴾ أي: تستمع لحلاوة ألسنتهم، وتعجبك فصاحة ألسنتهم، وحلاوة لفظهم، حتى تصغي إلى استماع كلامهم، تعجبا منك لجودة لغاتهم، وبيان أقوالهم، فهذا معنى تسمع، لا على أنه يستمع كلامهم استماع تصديق، ولا قبول تحقيق، بل هو عالم بكذبهم، وإنما استماعه وإصغاؤه إلى قولهم، تَعَجُّبٌ منه لحسن كلامهم، وفصاحة ألسنتهم، الذي لم يشكروا الله عليه، كما تعجب من خلق أجسامهم، فهذا معنى ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾.

ثم شبههم سبحانه بالخشب المسندة، فقال تبارك وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ يريد سبحانه: الذم لهم بذلك، يخبر سبحانه عن عظم أجسامهم، وتمام خلقهم، وعظيم ما هم فيه مع ذلك من جهلهم، وقلة استعمالهم لما ركب فيهم من عقولهم، فلما أن لم يستعملوا عقولهم، ولم يتدبروا أمورهم، مع عظيم ما أنعم الله عليهم به من الخلق الكامل السوي، الحسن النَّيِّر البهي، شبههم بما لا عقل فيه، إذ لم تنفعهم عقولهم، فضرب لهم بالخشب مثلا، فشبه عظم أجسامهم في الطول والغلظ والجِسَم، بالخشب المسندة، خشب النخل الكبار، فأخبر نبيئه صلى الله عليه وآله أن مَن عَظُمَ جسمه، وحسن خلقه، وقل عمله، وعدم استعمال عقله، وعزب فهمه، كان في المعنى كالخشبة العظيمة، التي تعجب من نظر إليها، طولها وعرضها، فهي لا تنفع نفسها في شيء من حالها، فكذلك هؤلاء المنافقون إذ عظمت أجسامهم، وحسنت صورهم، وعدموا استعمال عقولهم، بالإعراض عن أمر ربهم، حتى نزل بهم خذلانه، وأحاط بهم انتقامه، ورانت المعاصي على قلوبهم، فصاروا في قلة النظر لأنفسهم، والإعتبار بآيات خالقهم، كالخشب المسندة، التي لا تنفع أنفسها، ولا

تعتبر بشيء من أمر خالقها، واستوى عندهم الحق والباطل، كما استوى عند الخشب المسندة، فكلٌ لا يفهم رشده، ولا يميز أمره، فبعدا لأصحاب السعير.

ثم أخبر سبحانه نبيئه صلى الله عليه وأهله [١]، بما يلقون من الفزع من الحق وأهله، وما يخشون من سطواته على عدوه، فقال سبحانه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ معنى ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ هو: يظنون أن كل دعوة دعوتها، أو وثبة وثبتها، ونهضة نهضتها، أنها عليهم وإليهم، وأنك تريدهم بها وتقصدهم، وأنك لا تريد غيرهم، ولا تفعل ذلك إلا للبطش بهم. والصيحة فمعناها: الوثبة والنهضة، ودعاء الرعية، وجمع الرجال، فكانوا كلما تحرك رسول الله صلى الله عليه وآله لمواثبة عدو توهموا أنه يقصدهم، وأنه بذلك يريدهم دون عدو من غيرهم، وذلك لما في قلوبهم من الريبة والبلاء، والكفر بالله العلي الأعلى، والمعاداة لرسوله المصطفى، فأعلمه الله بذلك من أمرهم، وأطلعه بما أخبره به سبحانه عن سوء ضميرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ ومعنى ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: أولئك الذين يفعلون هذا هم أعداؤك حقا، وحربك دون غيرهم صدقا، والعدو فهو: المحارب، والمبغض والمناصب، والمدغل المداخل [٢] لرسول الله صلى الله عليه وآله بنوع من أنواع الفساد كائن ما [٣] كان. معنى ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي: اتق شرهم ومكرهم، وكن على حذر، ولا تأمنهم في شيء من أمرك، ولا تثق بهم في سبب من

---

(١) في (أ): ثم أعلم سبحانه بما...

(٢) في (أ) والمبغض والمدغل والداخل.

(٣) في (أ): من.

أسبابك، ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ معناها: لعنهم الله، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ معنى ﴿أَنَّىٰ﴾ هو: كيف يؤفكون؟! ومعنى ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ فهو: يعرضون، ويتركون سبيل رشدهم، وقد يرون الحق في ذلك باديا لهم، ويؤفكون هاهنا فليست في معنى يكذبون، وإنما هي في معنى: يعرضون ويفرطون، ويتركون ويقصرون، وليست من جنس قوله سبحانه: ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ [الجاثية:٧]، لأن الأفاك هاهنا هو: الكذاب، وإنما ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ في هذه السورة في معنى قوله سبحانه: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:٩]، معناها: يستل عنه من فَرَّط وقَصَّر، في يوم الجزاء بمن قصر، ويعرض في ذلك اليوم عمن أعرض في الدنيا، كما دعي إليه من الهدى فأفك في قبول الهدى، وفي تعلقه بضده من الردى، وسلوكه في طريق الحيرة والعمى.

ثم أخبر سبحانه بعتوهم واستكبارهم، وإعراضهم عن الله سبحانه وإدبارهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝﴾، معنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ هو: متى قيل لهم، ﴿تعالوا يستغفر لكم﴾ معنى ﴿تَعَالَوْا۟﴾ هو: ائتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله واسألوه يستغفر لكم ربكم، ومعنى ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فهو: يسأل الله المغفرة لكم، والتوبة عليكم، ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ هو: أعرضوا عن الحق، وهو شيء يفعله الكاره للشيء إذا دعي إليه لوى رأسه في شق، وأعرض اعراضا عن المكلم له بما لا يهوى، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يقول: أبصرتهم يعرضون عن الحق إعراضا، ويعندون عن الله عنودا، و﴿يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، ومعنى ﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متجبرون لا يعرفون الله، ولا يهتدون، ولا له سبحانه يتذللون.

ثم أخبر سبحانه نبيئه بأنه لن يغفر لمثلهم، ممن كان مصرا على مثل ماهم عليه مصرون، من الكفر والفجور، والفسق وارتكاب الشرور، فقال سبحانه: ﴿سَوَآءٌ

عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾، معنى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ فهو: سواء عندهم لفسقهم، ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إذ هم بك مكذبون، وعلى الله مجترون، فهم لا يوقنون بك فيطلبوا استغفارك، ولا يصدقونك فيتبعوا دينك، وقد يكون معنى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: أن يكون الله تبارك وتعالى أخبر نبيئه صلى الله عليه وآله أنه لن يقبل استغفاره لهم لو استغفر، إذ هم مصرون على كبائر عصيانه، والتكذيب بآياته وقرآنه، فأخبر أن استغفاره لمن كان ضميره كذلك، وإمساكه عن الإستغفار لهم سواء؛ لأن الله سبحانه لايغفر إلا لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، فأما من لم يتب، وكان ضميره فاسدا، فلن يغفر له سبحانه أبدا.

ومعنى ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ فهو: سألت الله المغفرة لهم، ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يقول: أم لم تسأل المغفرة لهم، ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ يقول: لن يتوب الله عليهم، ولن يعفو عنهم، ولن يغفر أبدا لهم، ألا تسمع كيف يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يقول: لا يسدد ولا يوفق ولا يغفر ولا يرشد القوم الفاسقين، والفاسقون فهم: الفسقة في الدين، والفسق في الدين فهو: التكذيب بالحق المبين، والعنود عن شرائع الدين، وفيما قلنا به من ذلك ما يقول الله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة:٨٠].

ثم أخبر سبحانه بما يقولون ويلفظون، وبه في أنديتهم يأتمرون، فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾»، فهذا قول عبدالله بن أبي وأصحابه المنافقين، فأخبر أن هؤلاء الذين لا يقبل استغفار الرسول لهم، لما قد علم الله من سوء ضميرهم، «هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ» ومعنى «لَا تُنفِقُوا۟» يقول: لا تعينوا ولا تواسوا من عند رسول الله من المهاجرين الواردين من آفاق الأرض عليه، «حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟» يقول: حتى يذهبوا ويفترقوا إذا مسهم الضر، ونالهم البلاء، فأخبر سبحانه أن له خزائن السموات والأرض، وخزائنها فمعناها: ملكها وملك جميع ما فيها، من الأرزاق، في جميع الآفاق، وأنه يرزق من يشاء بغير حساب، وأن لن يضيع المؤمنين إذا أخلصوا نياتهم، وصبروا على أمره في جميع أسبابهم، وأنه سيأتيهم برزقهم من حيث لا يحتسبون، ويأتيهم بمحبوبهم من حيث لا يرجون، «وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» يخبر أن المنافقين لا يعلمون ذلك، ولا يوقنون به، ولا يتوهمون أن رزق أصحاب محمد عليه السلام إلا منهم لامن عند ربهم، بل الله سبحانه هو الرزاق للصنفين المؤمنين والمنافقين، نعمة منه على من آمن به، وإكمالا للحجة على من كفر به.

ألا تسمع كيف يحكي قولهم حين يقول: «يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾»، فهذا قول من عبدالله بن أبي وأصحابه - لعنهم الله - معنى «لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ» يقولون: لئن قدمناها، وصرنا إليها، «لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ» كأنهم - لعنهم الله - يعرضون بأنهم هم الأعزون، وأن أصحاب رسول الله هم الأذلون، وقد كذبوا - عليهم لعنة الله - بل هم الأذلون، وأصحاب رسول الله هم الأعزون، ومعنى قولهم: «لَيُخْرِجَنَّ» فهو: ليطردن، ولينحين منها، وليخرجن عنها، ألا تسمع كيف قال الله في إكذابهم،

ودفع قولهم، وإبطال لفظهم، وإثبات العزة له ولرسوله وللمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والعزة فهي: القوة والقدرة والبطش، ونفاذ الأمر والنهي، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معنى ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ هو: معنى التكذيب لقولهم، وإثبات الكذب عليهم، وهي كلمة تستعملها العرب في مثل هذا، تَرُدُّ بها كذب الكاذب، وباطل المبطل، وتوجب الجهل عليه في قوله، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فهم: أهل الكذب والنفاق، وقول المحال والشقاق، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يفقهون ولا يدرون، ما يأتون ويذرون.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بما فيه نجاتهم، والبعد لهم من شبه غيرهم، ممن يُنسب إلى النفاق والكفر، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝﴾، فمعنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ فهو: ياهؤلاء الذين آمنوا، فمعنى ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فهو: صدقوا وأيقنوا، ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ يقول: لا تشغلكم أموالكم، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، والأموال فهي: الأموال المعروفة التي يستغنى بمعرفتها عن شرحها، من الذهب والفضة، والحرث والأنهار، والأشجار والثمار والأنعام، التي تشغل الفاسقين عن الله، وتلهي المنافقين عن ذكر الله، وتمنعهم محبتها والإشتغال بها عن طاعة الله، والأولاد فهم: البنون المحبوبون المتزين بهم، المفتخر بكثرتهم، الذين يلهون أباهم بالمحبة لهم مع الجدة في أموالهم، عن ذكر الله سبحانه إذا لم يكونوا مؤمنين، فأمر سبحانه المؤمنين بالحذر عن الإشتغال عن الله بالأموال والأولاد، كما يفعل من لا دين له من العباد.

ومعنى ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فهو: عن طاعة الله، والعمل بمرضاة الله، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ومعنى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ فهم: الذين يفعلون ذلك فهم الخاسرون.

ثم أمرهم سبحانه بالإنفاق في سبيله، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾، ومعنى ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ يريد: أخرجوا وأعطوا في سبيل الله مما رزقناكم، معنى ﴿رَزَقْنَـٰكُم﴾: أعطيناكم ووهبناكم، وفتحنا من أرزاقنا عليكم، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ﴾ معناها: من قبل أن يرد على أحدكم الموت، وينزل به، ويأخذه، والموت فهو: الفناء والزوال، و﴿أَحَدَكُمُ﴾ فهو: واحد منكم بعد واحد، وواحد بعد واحد، ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ معناه فهو: يتكلم ويتمنى، ويطلب ويشاء، ومعنى ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ فهو: يارب لو أخرتني إلى أجل قريب، فَأَدخَلَ (لا) استحسانا لها في الكلام وهو لا يريدها، وليس لها هنا أصل، وقد تقدم شرح مثل هذا في كتابنا، ﴿أَخَّرْتَنِىٓ﴾ يقول: أبقيتني ودفعت الموت عني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يريد: إلى أمد قريب، ووقت دانٍ، تزيدنيه من هذا الوقت الذي نزل بي الموت فيه، فأكون من بعده مؤخرا، ويكون الموت عني مردودا أياما يسيرة، ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ يقول: أُخرج الآن عند تصديقي لما عاينت من صدق وعدك ووعيدك ما كنت ضانا به من مالي، وبخيلا به من موجودي، ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وأخرج مفروض زكاته، وأنفقه في سبيلك، وأتقرب به إليك، حتى أكون بذلك عندك من الصالحين، وبها فعلت من ذلك من المؤمنين.

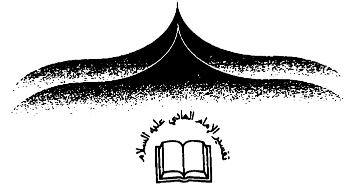
ثم أخبر سبحانه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾، ومعنى قوله: ﴿وَلَن﴾ هو: إخبار بأنه لا يفعل، وهي في معنى (لا)، فأراد لا يؤخر الله نفسا، ومعنى ﴿يُؤَخِّرَ﴾ فهو: يملي بعد الفناء ويعمر، ﴿نَفْسًا﴾ فهو: إنسانا وروحا وشخصا، حتى ﴿إِذَا جَآءَ﴾، ومعنى ﴿إِذَا جَآءَ﴾ فهو: حل ودنا، وأجلها فهو: موتها وفناء مُدتها، التي أجلت لها، وجعلت حية إلى بلوغها،

وهو المدة التي جعلها الله لها عمرا من الأيام والليالي الخاليات، والأوقات والساعات الفانيات، التي بانقضائها ينقضي الأجل، وبكمالها ينقطع الأمل، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فمعنى ﴿خَبِيرُۢ﴾ فهو: عليم محيط حافظ غير نَاسٍ، لا يعزب عنه شيء من الأشياء، قاصيا كان في الأرض أودانيا، فعلمه بكل شيء محيط، ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يقول: بما يفعلون ويصنعون.

قال يحي بن الحسين رحمة الله عليه ورضوانه وضاعف له أجره وإحسانه: تالله ما رأيت أشبه بالذين ذكرهم الله، وقص خبرهم في هذه السورة من المنافقين، من أهل دهرنا، وسكان دارنا، هؤلاء الذين نحن معهم في نفاقهم وقبيح أفعالهم، وسوء صنيعهم، وقلة شكرهم، وكثرة كفرهم، وميلهم إلى الدنيا الغارة لمن كان قبلهم، المهلكة إلى من ركن إليها من نظرائهم، فنحن من نفاقهم في أمور كقطع الليل المظلم، الهائل الحندس المدلهم، لا همة له في الحق ولا يقين، ولا رغبة لهم في معرفة شرائع الدين، همج أتباع كل ناعق، أعوان وعضد كل منافق، إن قالوا كذبوا، وإن أوعدوا أخلفوا، وإن عاهدوا نقضوا، يبغون المسلمين الغوائل، ويؤلبون على الحق القبائل، لا في ثواب الله يرغبون، ولا من عقابه يخافون، ولا منه سبحانه يستحيون.







تفسير

سورة التغابن





ومن سورة التغابن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قول الله سبحانه ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾، معنى ﴿يُسَبِّحُ﴾ فهو: يقدس ويعظم، ويجل ويكرم، ﴿مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو: كل ما أنشأ وبرأ من الخلق.

فمن الخلق ما يسبحه ويقدسه، بلسان ناطق ويذكره، وهم أهل الأمر والنهي من الخلق المأمورين بالطاعة، المنهيين عن المعصية، من الملائكة والثقلين، من الجن والإنس المذكورين، فهؤلاء يسبحون له ويذكرونه بالتقديس والتكبير، والإجلال والتعظيم، وما كان مما في السماوات والأرض من غير المأمورين من الأشياء المخلوقات، والأمور المدبرات، من سائر ما خلق الله وذرأ، من جميع ما أوجد من الأشياء، من النجوم والشجر، وغيرهما من كل ما فطر، فإنما تسبيحه وتقديسه تسبيح من يسبح من أجله، ولعظم ما فيه من صنعة ربه، فإذا رأى المؤمنون أثر صنع الله في هذه الأشياء، سبحوه بها رأوا فيها، وقدسوه لعظم ما رأوا من صنعه في إيجادها، فكان تسبيحهم لما رأوا من أثر الصنع فيها سببا لقول القائل: إنها سبحت، لما كان التسبيح من أجلها وبها، ولما رأوا فيها من أسبابها، كما كان من السجود من الملائكة لآدم عليه السلام هو سجودهم لله الذي أوجد آدم، فكان سجودهم لله من أجل ما رأوا من أثر صنعه في عبده، وعظم تقديره في خلقه، فجاز أن يقال: سجدوا لآدم، إذ كان السجود من أجل آدم وسببه، ولما أظهر الله سبحانه فيه من قدرته، فعلى ذلك ومثله، جاز أن يقول القائل في قوله: سبح كل شيء لربه من حجر أو مدر، أو نجم أو شجر، وفي هذا المعنى يدخل ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾، ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: ما جعل الله وما خلق من السماوات والأرضين، والآخرة والدنيا وما فيها، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ معنى قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ فهو: له الشكر لا لغيره، لأن الشكر الذي هو الحمد، لا يجب إلا للمستحمد إلى خلقه، بنعمه وآلائه، وفضله ونعمائه، وذلك الله رب العالمين.

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخبر سبحانه أنه على ما أراد مقتدر، وله فاعل.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، فأخبر سبحانه بأنه الذي خلق الخلق كافرهم ومؤمنهم، وبرهم وفاجرهم، فكان سبحانه المتولي لخلق جميع الخلق من أهل الباطل والحق، خلق أبدانهم وصورها، وركب خلقهم وقدرها، كيف شاء، وعلى ما شاء، ولم يخلق سبحانه أفعالهم وكفرهم، ولا إيمانهم ولا صلاحهم ولا ضلالتهم، بل كان من ذلك بريا، وعن إيجاد شيء من أفعالهم متعاليا عليا، فأفعاله باينة عن أفعالهم، كما ذاته غير مشابهة لذاتهم، فأخبر سبحانه بقوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ بأن مِن خلقه المُؤْثِر لمعاصي ربه، المختار للكفر به، ومنهم مؤثر للإيمان، مطيع للرحمن، فوصفهم بأفعالهم، من كفرهم وإيمانهم، ولم يصف نفسه بخلق شيء من أفعالهم، وكيف يخلق أفعالهم أو يوجد أعمالهم؟! وأعمالهم المنكرات من الأمور؟! من المظالم والشرور! فتعالى عن ذلك الواحد الرحمن! وتقدس أن يكون كذلك ذو المن والإحسان.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ فأخبر سبحانه أنه بكل ما يعمل العاملون بصير، ومعنى ﴿بَصِيرٌ﴾ فهو: عالم خبير.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، معنى ﴿خَلَقَ﴾ فهو: أوجد وفتق، وابتدع وخلق، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهن: السماوات المبنيات، المرفوعات المقدرات، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ فهي: الأرض المدحوة الذي جعلها سبحانه لخلقه فراشا، وقدرها سبحانه لهم مهادا، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، فهو: بالعدل والصدق، ومعنى بالعدل والصدق، فهو: جعلها وجعل ما فيها على الحق والصدق، ومعنى على الحق والصدق فهو: أمر من فيها به، وافترض عليهم اتباعه.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يقول: خلقكم وقدركم، فأتقن ما خلق من صوركم، ومعنى ﴿فَأَحْسَنَ﴾ هو: فأجاد وأتقن ما برأ من بريتكم، ودبر من أمركم، وقدر من نباتكم.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝﴾ يقول: إليه المرجع والمعاد، وإليه مصير كل العباد.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝﴾، ومعنى قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ فهو: يحفظ ويخبر، ولا يسقط عنه شيء صغر ولا كبر، ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يخبرهم أنه عالم بكل ما في السماوات والأرض، من كل شيء من الأشياء من جسم أو عرض، من فكر أو خاطر في قلوب المخلوقين، وأنفس المربوبين، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ في أنفسهم فيخفونه أو يظهرونه من أمرهم فيعلنونه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝﴾، فأخبر سبحانه أنه عالم بكل ماتكنه صدور العالمين، وتخفيه سرائر المخلوقين، ومعنى قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فهو: بما في الصدور من جميع الأمور.

ثم قال سبحانه احتجاجا عليهم، وتنبيها لهم بما كان من أمر القرون التي كانت من قبلهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩﴾﴾، معنى ﴿أَلَمْ﴾ فهو: أليس، و﴿يَأْتِكُمْ﴾ فمعناها: يجيئكم، ويصل بكم ويبلغكم، فأراد بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أليس قد جاءكم؟ فطرح (قد) لأن (ألم) تقوم مقام (أليس)، وقد جُمعتا في لغة العرب، وكذلك ﴿يَأْتِكُمْ﴾ تقوم مقام جاءكم في اللغة العربية، ﴿نَبَؤُاْ﴾ فمعناه: خبر، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ومعنى ﴿كَفَرُواْ﴾ فهو: كذبوا وصدوا، وأنكروا وجحدوا، ﴿مِن قَبْلُ﴾ فهو: من أول الأمر، ﴿فَذَاقُواْ﴾ فمعناها: فوجدوا وعاينوا عقوبة صنعهم، وواقعوا جزاء فعلهم، ومعنى ﴿وَبَالَ﴾ فهو: نكال عقوبة أمرهم، و﴿أَمْرِهِمْ﴾ فمعناه: فعلهم، ومعنى فعلهم فهو: ما كان من اجترائهم وكفرهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: في الآخرة عذاب أليم، والعذاب فهو: التعذيب بالنار، والنكال من الله لهم والتنكيل، فأخبر سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أن الذي ذاقوا، أي: بما عملوا من وبال كان في الدنيا، وأن في الآخرة لهم من العذاب ما هو أنكى، وأشد وأبلى.

ثم أخبر سبحانه بما ذاقوا ذلك كله من عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة التي تبقى، فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، معنى ﴿ذَٰلِكَ﴾ نزل ذلك العذاب بهم في الدنيا والآخرة؛ لأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات، ومعنى ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ فهو: لأنه، ومعنى ﴿كَانَت﴾ فهو: إخبار عن فعل الرسل صلوات الله عليهم، وإتيانها بالنذر إليهم، وإشهادها الله سبحانه عليهم، ﴿تَّأْتِيهِمْ﴾ فمعناها: تجيئهم، وتصير إليهم، ﴿رُسُلُهُم﴾ معناها: الرسل المرسلة إليهم، فلما أن كانت مرسلة إليهم، شاهدة عليهم، جاز أن يقال: رسلهم، وإنما هي رسل الله لا رسلهم،

فنسبها سبحانه إليهم؛ إذ كانوا مرسلين إليهم، شاهدين عليهم، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ومعنى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فهي: بالآيات القاهرات الظاهرات، والعلامات الظاهرات النيرات، التي كانت الرسل صلوات الله عليهم، تأتيهم بها من عند ربهم، ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ ومعنى ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: فنطقوا وتكلموا بالمحال والإستكبار، والجرأة على الله الواحد الجبار، ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ يريدون أي: بشر مثلنا يدعوننا إلى الله ويأمروننا، فلم يطيعوا الله فيما أمرهم، واستكبروا عن طاعة بشر مثلهم، إذ كانوا رسلا لربهم، ومعنى ﴿يَهْدُونَنَا﴾ فهو: يعلموننا ويأمروننا، ويوقفوننا على سبيل الله ويهدوننا، ﴿فَكَفَرُواْ﴾ معناها: كذبوا وعصوا، وجحدوا فلم يطيعوا، ومعنى ﴿تَوَلَّواْ﴾ فهو: أعرضوا عن الحق وأبوا، وتركوه وعتوا، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾، فمعنى ﴿ٱسْتَغْنَى﴾ فهو: إخبار من الله سبحانه باستغنائه عن الخلق، وقلة حاجته إلى من أعرض عن الحق؛ لأنه إنما دعاهم لحاجتهم ومنفعتهم، لا لمنفعة له في شيء من إجابتهم، ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فالغني هو: المستغني المكتفي بنفسه في جميع أموره، النافذة ارادته في كل خلقه، والحميد فهو: المحمود على نعمه، المشكور على آلائه.

ثم أخبر سبحانه بقول الكافرين، وجحدانهم لوعيد رب العالمين، الذي جاءت به إليهم رسلهم، وأدته إليه أنبياؤهم، من بعثهم وحشرهم، ومجازاتهم على ما كان من فعلهم، فقال سبحانه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، معنى ﴿زَعَمَ﴾ فهو: قال وذكر، وتكلم وأخبر، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فهم: الذين كذبوا بما به أخبروا، وعليه من الله أطلعوا، من البعث والحساب، والثواب والعقاب، ﴿أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ معناه: أنهم لن يبعثوا، ومعنى ﴿لَّن﴾ فهو: لا، فأراد سبحانه زعم الذين كفروا أنهم

لايبعثون، فلما أن طرح لا، وأثبت مكانها لن، ولن حرف ينصب ما بعده، ذهبت النون من يبعثون علامة للنصب، فبقي يبعثوا، ومعنى ﴿يُبْعَثُواْ﴾ فهو: يحيوا ويحشروا، ويردوا بعد الموت أحياء وينشروا [1].

ثم أمر سبحانه نبيئه صلى الله عليه وعلى آله بإكذاب قولهم، والرد في زورهم عليهم، فقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، معنى ﴿قُلْ﴾ هو: أمر من الله بقول ذلك لهم، وإيقاعه في أسماعهم، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ فهو: قسم أمره أن يقسم بربه على بعثهم إنه لكائن، ومعنى ﴿بَلَىٰ﴾ فهو: إيجاب لقوله، وإكذاب لقولهم، وهي كلمة تستعملها العرب يوجب بها المتكلم إذا قالها قوله، ويكذب بها قول محاجه، ويدفع بها قول مناظره، ﴿وَرَبِّى﴾ فهو: خالقي، ومعنى ﴿وَرَبِّى﴾ فهو: وحق ربي، ﴿لَتُبْعَثُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ معناها: لتخرجن من قبوركم، ولتحشرن إلى ربكم، ولتبعثن أحياء بعد موتكم، ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ معنى ﴿ثُمَّ﴾ فهو: معنى الواو، وينسق بها كما نسق بالواو، يريد: لتبعثن ولتنبؤن، ومعنى ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ فهو: لتخبرن ولتحاسبن، ولتجدن جزاء فعلكم، ولتجازون بما عملتم، ومعنى الباء، التي في ﴿بِمَا﴾ هو: على؛ لأن الباء من حروف الصفات، وعلى من حروف الصفات، فقامت الباء مقام على؛ لأن حروف الصفات يعقب بعضها بعضاً، وأراد: لتجازن على ما عملتم، ومعنى قوله: لتخبرن بما عملتم فهو: في هذا الموضع لتعرفن جزاء ما عملتم من كذبكم وكفرانكم، وظلمكم وجحدانكم، فأراد الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ في هذا الموضع لتجازن، ولتعاقبن على فعلكم، ولم يرد لتخبرن عن فعلكم الذي تقدم منكم؛ لأنهم عالمون بما تقدم من فعلهم،

(١) حذفت النون من الأفعال الخمسة باعتبار أن مفسرها منصوب بلن.

وليس التذكرة لهم بأفعالهم هو المعنى الذي قصده الله في هذا الموضع، وإنما قصد الجزاء، يقول سبحانه: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أي: لتعلمن ولتجدن عقوبة كفركم، عندما يكون من بعثكم في يوم حشركم، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ معنى ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: البعث والحساب والجزاء، وقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقول: على الله سهل هين حقير.

ثم أمرهم سبحانه بالإيمان به وبرسوله والنور الذي أنزل، احتجاجا منه عليهم، وتثبيتا لحجته فيهم، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝﴾، معنى ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ فهو: أمرٌ من الله لهم بالإيمان، والإيمان فهو: التصديق، يقول: صدقوا بأمر الله وبرسوله، يقول: وصدقوا بالنور الذي أنزلنا، والنور فهو: الحق الذي جاء به رسوله إليهم، من أمره ونهيه، وإعذاره وإنذاره، وكلما ذكر لهم من خبره، من بعث أو حساب، أو نشر أو ثواب، ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ يقول: أوحينا وجعلنا لكم، وأمرنا الرسل بتبليغه إليكم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ يخبر أنه سبحانه بكل ما يفعلون عليم، فخبير معناها: عليم، أي: لا يسقط عنه من ذلك صغير ولا كبير، يسيرٌ كان ولا كثير.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾، معنى ﴿يَوۡمَ﴾ فهو: يوم القيامة، ومعنى ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ فهو: يحشركم ويبعثكم، ويأتي بكم من آفاق الأرض إلى هذا المقام، الذي جعله لكم محشرا، ولجميعكم موقفا، ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ لهم، فمعنى ﴿لِيَوۡمِ﴾ فهو: إلى يوم، ﴿ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ فهو: الحشر للخلق، والجمع لهم إلى موقف الحق.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ معنى ﴿ذَٰلِكَ﴾ فهو: دلالة على ذلك اليوم، ألا تسمع كيف يقول: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ يخبر سبحانه أن ذلك اليوم هو يوم التغابن، و

التغابن فهو: التفاضل، معنى التفاضل فهو: حين يفضل بعض الناس بعضا، ويغبن بعضهم في ذلك اليوم بعضا، بما يستأهله بعض الناس دون بعض، من الثواب العظيم، و العطاء الجسيم، جزاء على ما كان من فعلهم، في دار دنياهم وعملهم، يغبن بعضهم في عطاء الله بعضا، بما يستأهله من ثواب ربه جزاء على فعله، فشبه الله سبحانه تفاضلهم في الآخرة في ثواب الله، بتفاضهلم، فيما يتفاضلون ويتغابنون به في دنياهم، ألا ترى أن من نال حظا في الدنيا ولم ينله صاحبه، قال: غبنتني، أي: فضلتني واستأثرت به وفيه علي، فكل من كان له فضل في شيء فهو: غابن للمفضول، والمفضول مغبون، والفاضل غابن، فضرب الله مثلا لهم تفاضل الآخرة وتغابنها، بتفاضل الدنيا ومغابنة من فيها، حضا لهم على العمل بطاعته، و تحذيرا للتغابن في عظيم عطائه في دار آخرته، في يوم الحسرة والندامة، وطلب الإقالة حين لا إقالة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُكَفِّرْ عَنْـهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَنُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْـهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾، معنى ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فهو: الذي يؤمن بالله، ومعنى ﴿يُؤْمِنۢ﴾ فهو: يصدق، ويقر بالله سبحانه وبرسله، وبكل أمره، ﴿وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾ معنى ﴿يَعْمَلْ﴾ فهو: يفعل ويصنع، ومعنى ﴿صَـٰلِحًا﴾ فهو: حقا مرضيا، ﴿نُكَفِّرْ عَنْـهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، معنى ﴿نُكَفِّرْ﴾ هو: نعفو، ﴿عَنْـهُ﴾ معناها: له، ﴿سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ ومعناها: ذنوبه وخطاياه، و ﴿وَنُدْخِلْهُ﴾ معناها: نصيره إلى جنات، والجنات فهي: دار الرضى والخيرات، ودار الثواب والعطيات الجزيلات، ﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْـهَـٰرُ﴾ فهي: تسيل من تحتها، و تحتها فهو: أسفلها، ﴿ٱلْأَنْـهَـٰرُ﴾ فهي: أنهار الجنة الجارية، ومياهها العذبة الطيبة الهنية المريّة، ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ معناها:

مقيمين فيها، ﴿أَبَدًا﴾ أي فهو: دائم سرمد لا انقطاع له ولا فناء، ولا غاية لمدته ولا انقضاء، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ معنى ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو: ذلك الفعل الذي فعلناه، لمن أدخلناه جنتنا وأعطيناه ثوابنا وأنلناه، ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يقول: ذلك العطاء هو الفوز العظيم، والخير الكثير الجسيم.

ثم أخبر سبحانه بمحل الكافرين، ومصير المكذبين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ فهو: خالفوا وعصوا، ولم يشكروا ما أولوا وأعطوا، من إرسال المرسلين إليهم، وإثبات حجج الله سبحانه بالتبليغ فيهم، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ معناها: كذبوا بأمرنا، وجحدوا رسلنا، ولم يقروا بشيء من آياتنا التي بعثنا بها رسلنا، والآيات فهي: المعجزات، وما جاء به الرسول، وأراه الخلق من آيات الله التي لاتكون إلا منه، ولا تأتي إلا عنه، ومن الآيات ما أرسل به الرسل من الأمر والنهي، فكذب الكافرون بذلك كله، وجحدوا ما جاء به عن الله من نوره، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ معنى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فهم: الذين فعلوا ذلك، هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ومعنى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ فهم: سكانها وأهلها، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ معناها: مقيمين فيها أبدا، لا يخرجون منها إلى غيرها، ولا يزالون حالين طول الدهور فيها، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ معنى ﴿بِئْسَ﴾ فهو: شر موئل ومصير، ومكان وقرار، والمصير فهو: المكان الذي يصار إليه، ويقام فيه، ومعنى يصار إليه فهو: يحل فيه، ويرجع إليه.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾، معنى ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ فهو: كل ما أصاب من مصيبة، ومعنى ﴿أَصَابَ﴾ فهو: وقع ونزل، ومعنى ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ فهو: نازلة من محنة أو نقمة، أو

فعل غير ذلك من فعل الله سبحانه أو فعل غيره، من مصائب الدنيا، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهذا القول فيخرج على معنيين، ثم يتفرع كل معنى منهما على معنيين:

فأما أحدهما فهو: ما كان من فعل الله مما يكون الله المتولي له من المصائب النازلة بالخلق، ويكون ذلك على معنيين: إما مصيبة أصابت من الله على طريق الجزاء والإنتقام، من أحد أعدائه ذوي المعصية والإجترام. وإما مصيبة نزلت من الله على طريق المحنة بمن يمتحن من عباده الصالحين، وأوليائه الصابرين، فهذا معنى ما كان من الله، وهو يتفرع على هذين المعنيين. ومعنى قوله في هذا المعنى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو: بحكم الله وإرادته ومشيئته.

والمعنى الآخر من المصائب فهو: ما ينزل بالخلق بعضهم من بعض، ثم هذا المعنى يتفرع على معنيين فأحدهما: ما ينزل من المصائب بالمؤمنين من الفاسقين، فهذا لم ينزل إلا بعلم الله أنه سيكون وبتخليته.

ومعنى قول الله فيه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو: بتخلية الله وعلمه.

والمعنى الثاني فهو: ما ينزل من المصائب بالفاسقين من المؤمنين، وعلى أيدي عباد الله الصالحين، من إقامة الحدود عليهم، وإظهار الحكم من القتل وما دونه، ومعنى قول الله في هذا المعنى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو: بأمر الله وحكمه، وإذنه لأوليائه في أعدائه. فافهم ما فسرنا من معاني المصائب، وما شرحنا في معانيها كلها، ومخارجها من تفسير قول الله سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فقد ميزنا لك ذلك كله، وشرحناه وفسرناه وأثبتناه، وبينا معانيه، وشرحنا تأويله، على أصله وفرعه، بما فيه كفاية ونور، لمن كان ذا معرفة باللغة والعلم.

ثم أمر سبحانه بما فيه النجاة لمن قَبِلَه فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، معنى ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ﴾ فهو: ابتعوا أمر الله في كل ما يأمركم به فافعلوه، وما ينهاكم عنه فاتركوه، ﴿وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من أمرنا، ويبلغكم من رسائلنا، ويفترض عليكم من فرضنا، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ يقول: فإن أعرضتم وكذبتم، ولم تُقبلوا على الرسول، ولم تأتمروا بما أمركم به من أمرنا، ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يقول: فإنما عليه أن يبين البلاغ لكم، ويبلغكم مابه أمركم ربكم، وليس عليه أن يجبر قلوبكم، ويصلح سريرتكم، كما عليه أن يصلح علانيتكم، إنما عليه صلى الله عليه وعلى آله أن يضربكم بالسيف حتى تسلموا لما بلغكم عن الله، وأمركم به من دين الله، وليس عليه صلاح قلوبكم؛ إذ كان غير قادر على ذلك منكم؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، ولا يطلع على السرائر إلا الله، و﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فيقول: البلاغ الظاهر النير، الذي لا يخفى منه شيء ولا يستتر.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فأخبر سبحانه أن المرسل بالبلاغ المبين هو الله، الذي لاإله إلا هو، ومعنى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾فهو: لا إله غيره، ولا خالق سواه، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ومعنى قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فهو: أمر منه سبحانه للمؤمنين، أن يكونوا عليه متوكلين، وبه في كل أمرهم واثقين، ومعنى ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ هو: فليعتمد وليتكل، ومعنى يتكل فهو: يثق به في كل أمره، ويتكل على كفايته له في كل شأنه، قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فهم: عباده المنقطعون إليه، والمتوكلون عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾، فأخبر سبحانه عباده المؤمنين، بعداوة أهل المخالفة في الدين، من الأزواج والأولاد، والبنات والبنين، وذلك قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ فأخبر سبحانه أن من خالف الدين، وتأدب بأدب غير رب العالمين، وكان عند الله من الفاسقين، كان عدوا بذلك الفعل لآبائه المؤمنين، وكذلك من كان من زوجات المؤمنين على غير طريق الحق، ولا متعلقات بعروة الصدق، كن أعداء لأزواجهن المؤمنين، وكذلك فقد يخرج المعنى في العداوة من الرجال الفاسقين للأزواج المؤمنات، فتكون عداوة الفاسق من الأزواج للزوجة المؤمنة على إيمانها وتقواها، كما تكون العداوة من الزوجة المخالفة في الدين لزوجها، فالآية قد تحتمل المعنيين، وينتظم جميع الحالين؛ إذ كان لا يمتنع أن تكون الزوجة تقية مؤمنة، ويكون الزوج فاسقا فاجرا، فتكون العداوة منه لها على الدين، كما تكون العداوة من المخالفة من الزوجات للزوج المؤمن في الدين، كما تكون العداوة من الأولاد للوالدين كليهما، وللوالد والوالدة، فكلا الزوجين قد تكون منه العداوة، وحيث كان الإيمان والهدى من الزوج والزوجة فالمخالف لمذهب الحق هو المذموم بالعداوة، المخصوص في كتاب الله باللائمة، والمؤمن فهو: المحذر لعداوة الكافر، وليس الكافر بمحذر لعداوة المؤمن؛ لأن المؤمن لا يعادي مؤمنا، ولايستجيز فيه غشا، فافهم ماقلنا به في قوله الله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ فدل بذكره بعضا دون بعض على أهل الخلاف والمعصية، كائنا من كان من بعض الأزواج، أوبعض الأولاد، ألا تسمع كيف يقول: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ فَحَذَّرَهم أمرهم، وخَوَّفهم

كيدهم، وَنَبَّهَهم على اتقاء شرهم، ولن يحذر ولن ينبه إلا مؤمنا، ولن يحذر المؤمنين إلا من الفاسقين المخالفين، الذين لا يؤمن مكرهم، ولابوائقهم، فافهم رحمك الله ما قلنا، وميز بقلبك تفهم ما شرحنا، وتقف على جميع ما ذكرنا.

ثم قال: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾ فحض سبحانه على العفو، والصفح والغفران لهم، لما بينهم من وشائج الخلطة، من الولادة والنكاح، وأراد بذلك يأمر المؤمنين بالتعطف على من ذكر من الأولاد والأزواج، ما لم يخرجوا إلى المباينة بالمشاقة في العداوة لأوليائه المؤمنين، من أبنائهم وأزواجهم، ثم قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأخبر أنه غفور لمن استغفره بعد التوبة النصوح البينة، واسترحمه بعد الرجعة عن المعصية.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، يقول: إنها تفتن كثيرا من الجهال عن طاعة الله، وتدخله في المعصية لله، ومعنى ﴿فِتْنَةٌ﴾ فهي: محنة امتحنتم بها، ليعلم الله أيكم يثبت معها على أصل دينه، وأيكم تفتنه وترده عن حقه.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾ يريد: أن عنده سبحانه لمن لم تفتنه الأموال والأولاد، فيخرجه الإعجاب بهما عن الهدى، ويدخله في بحر الهوى، ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والأجر العظيم فهو: الثواب الكريم، والعطاء الجسيم.

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾، فأمر باتقاء الله، ومعنى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هو: خافوا الله وراقبوه، في سركم وعلانيتكم، وكونوا له خائفين، ولثوابه متنجزين، قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ يقول: ما أطقتم، وعليه قويتم؛ لأنه سبحانه لايكلف نفسا إلا وسعها، كما قال جلا جلاله، عن أن يحويه قول أو

يناله: ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ معنى ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ فهو: ائتمروا إذا أمرتم، وانتهوا إذا نهيتم، ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ معناها: أطيعوا الله في إقامة فرضه، وأطيعوا الرسول فيما أمركم من ذلك به.

﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ يقول: أنفقوا من أموالكم ما تكفسبون به الخير لأنفسكم، والخير فهو: الأجر.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ فمعنى ﴿يُوقَ﴾ فهو: يوقى، ومعنى يوقى فهو: يصرف عنه، ويكفى شح نفسه. ومعنى ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ فهو: شر الشح وبلاؤه، ونازلته وشقاؤه، وإثمه ولؤمه وآذاه؛ لأن من كان ذا شح ولؤم، كان عند الله مدحورا مأثوما، وعند الناس مقبحا ملوما، فأخبر سبحانه أن من يوق شح نفسه وشره، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فطرح بلاء وشر نفسه، وهو يريده، والمعنى على ذلك كما قال سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣]، وإنما المعنى: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، فطرح حب، وهو يريده، والعرب تفعل هذا، تطرح ما كان مثل هذا في المعنى وهي تريده، وكذلك قال الله سبحانه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، أراد أهل القرية، وأهل العير، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب:

ألا إنني أسقيت أسود حالكا ... الأبجلي من ذا الشراب الأبجل[1]

وإنما أراد: إني سقيت سم أسود حالك، يعني: سم الحية السوداء، فطرح السم

(١) سبق تخريجه.

وهو يريده، فعلى ذلك يخرج قول الله سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ يريد: ومن يوق شر شح نفسه، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ يقول سبحانه: من وقي شر شحه، وسوء عاقبته، بالتوفيق للسخاء والتسديد، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ معنى المفلحين هم: الفائزون الناجون من عواقب أفعالهم، والسالمون من توابع أعمالهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾، معنى ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ فهو: إن تخرجوا لله، وتنفقوا في سبيل الله، شيئا تقصدون به وجه الله، ولا تريدون به شيئا غير الله، يكون ذلك قرضا حسنا، ومعنى ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: فعلا جميلا، لا يتبعه من ولا أذى، ﴿يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي: يضاعف لكم أجره، ويبسط لكم عليه رزقه، في الدنيا والآخرة، بالعطاء الجزيل، والثواب الجليل.

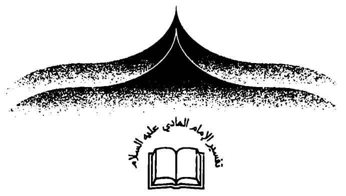
﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ معنى ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ۚ﴾ يقول: يقبل منكم نفقاتكم، فيغفر لكم ذنوبكم، ويقبل توبتكم، ومعنى ﴿شَكُورٌ﴾ فهو: شاكر الحسنات، ومعنى الشكر لله فهو: الإيجاب منه للقبول ممن فعل فعلا يريده سبحانه مخلصا، ﴿حَلِيمٌ﴾ فمعناها: المتأني بخلقه، الذي لا يعاجلهم عند زلتهم، ولا يأخذهم عند عثرتهم، ليعودوا ويرجعوا، ويتوبوا ويهتدوا، ذو الصفح والأناءة العظيمة، والرحمة والمغفرة الجزيلة الكثيرة.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾، فمعنى ﴿عَـٰلِمُ﴾ فهو: خبير بما يكون، ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ فهو: ما غاب من الأشياء فلم يظهر، وأسر مما قد أسره مُسِرّ، ومما سيكون ولم يكن، فالله عالم بذلك كله، كعلمه بالظاهر المشاهد، ألا تسمع كيف

يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فالغيب هو: ما غاب مما ذكرنا، والشهادة فهو: ما أُعلن وشُهد، وعُلم فلم يستتر، فأخبر سبحانه أن علمه بالغيوب المستجنة، كعلمه بالشهادة الظاهرة.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ فالعزيز فهو: القوي القاهر، الغالب الظاهر، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو: ذو الحكمة المتقنة، والأفعال المحكمة، التي لا تفاوت في تدبيرها، ولا تفاوت في تقديرها، فتبارك الله ذو الحكمة و القدرة، والعزة الظاهرة، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، خالق كل شيء وفاطره، ومدبره ومقدره، رب العرش الكريم، الواحد الفرد العليم.





تفسير

سورة الطلاق





ومن سورة الطلاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾، معنى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ فهو: نداء من الله سبحانه لنبيه عليه السلام، وأمر ودلالة منه على ما فيه الرشد له وللمؤمنين، ولجميع من معه من أوليائه الصالحين، ومعنى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ فهو: أيها، و﴿ٱلنَّبِىُّ﴾ فهو: الرسول المنبي، بما يأتيه من وحي الله العلي، ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ يقول: إذا فارقتم ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ وهن: الأزواج ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ معناه: فارقوهن لعدتهن، والعدة فمعناها: الطهر من غير جماع، والعدة المذكورة المجعولة من القروء الثلاثة، أوالثلاثة الأشهر هي التي جعلت عدة للمطلقات، ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ فيقول: عدوا الأيام واحفظوها، والأقراء والعدة فهي: ثلاث حيض للتي تحيض من النساء، وثلاثة أشهر مع التي لا تحيض من صغر أوكبر.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ يقول: اتقوه في احصاء ذلك كله، والإحاطة به، لا تعجلوا عن اتمامه، ولا تحبسوهن بعد وفائه، يقول: لا تعجلوا من أجل النفقة فتخرجوهن من قبل أن يستتممن العدة، ولا تحبسوهن بعد انقضاء عدتهن لتضاروهن بالحبس لهن.

ثم قال سبحانه: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ

بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، معنى ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ يقول: لا تخرجوهن من البيوت اللواتي طلقن فيها، وكن مع الأزواج حالات بها، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ معناها: لا يسدى إليهن قبيح يخرجن به من ضيق، ولا عسر ولا قبيح من الامرأة، ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ معنى ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾ فهو: إلا أن يفعلن فاحشة، والفاحشة فهي: المعصية لله في كل شيء من كبائر معاصيه، اللواتي حرم فعلها، وقد قيل: إن الفاحشة خروجهن قبل انقضاء العدة، وليس ذلك بشيء، بل هو أمر مما حرم الله عليهم من ذلك ومن غيره.

معنى ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ فهو: مبينة لنفسها، مظهرة لما جاء من صاحبها، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ ومعنى ﴿تِلْكَ﴾ فهو: هاتيك، ومعنى هاتيك فهي: هذه الشروط والمعاني، والأمر والنهي الذي حد لكم من أمر الله، وأوقفكم عليه من فرض الله، من شروط الطلاق وحدوده ومعاني العدة وأسبابها، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ فمعنى ﴿يَتَعَدَّ﴾ هو: يتجاوزها، ويتخلى عنها ويتركها، ويفعل غير ما أمر به منها، ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ فهي: فروض الله التي جعلها، وحدوده التي أوقف سبحانه عباده عليها، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ يقول: ظلمها بما أدخلها فيه مما أوجب عليها من عذاب ربها.

﴿لَا تَدْرِى﴾ يقول: لا تعلم ما يكون ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝﴾ يقول: لعل الله يأتي بعد الفراق، بأمر من المراجعة والإتفاق، ومعنى ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ فهو: بعد ما كان من الفراق، وما جاء بينهما من الطلاق، ﴿أَمْرًا﴾ يريد: مراجعة وصلحا.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، يقول: إذا بلغن آخر عدتهن، وقضين ما أوجبنا عليهن من مدتهن، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يقول: راجعوهن بالأمر المعروف عند الله، وعند المسلمين، الذي تجوز به مراجعتهن، ويحل بكينونته الإفضاء إليهن.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فمعنى ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾ يقول: أتموا لهن ما قد أوقعتم عليهم من طلاقهن، وعزمتم عليه من فراقهن، بالتخلية لهن، والإشهاد بذلك من أمرهن، ومعنى قوله: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ فهو: بأمر حسن مفهوم، وأمر من المفارقة معلوم، ومعنى معلوم فهو: مشهود عليه، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فمعنى ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فهما: صاحبا العدل في فعلهما وقولهما، وما يكون من حكمهما، والعدل فهو: الحق والقسط، يقول: أشهدوا على مايكون من الفراق، وانقضاء العدة والطلاق، عدلين من عدولكم، ليكون ذلك أنفع في العاقبة لهن و لكم، وأنجز مما يخاف في ذلك منهن ومنكم، من التعنت والأذى، والإدعاء لغير ماكان من الأشياء.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ معنى ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾: أدوا ماالستشهدتم عليه على وجهه، وأْتوا به على صدقه، والشهادة فهي: ماالستودع الخلق من شهاداتهم على ماعلموه، مما استرعوه من الأمر واستودعوه، ﴿لِلَّهِ﴾ يقول: اصدقوا بإقامتكم للشهادة، وتأديتكم لما عندكم من الأمانة لله رب العالمين، الذي افترض ذلك عليكم، وجعل إقامة الشهادة بالحق ديانة فيكم.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ﴾ معنى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ فهو: الأمر الذي جعل فيكم، وافترض بحكم الله عليكم، من إقامة الشهادة، ﴿يُوعَظُ بِهِ﴾ فهو: يؤمر، ويخوف به ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فأخبر أنها يوعظ به الموعظون من ذلك،

ويخوف به المخوفون، ويؤمر به المأمورون، لا ينفع إلا من كان بالله مؤمنا، وباليوم الآخر مصدقا موقنا، ومعنى ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ فهو: يصدق بالله ويتقيه، في كل مايفعله ويأتيه، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فمعناها[1]: يوقن باليوم الآخر، ويصدق بما فيه من العقاب والثواب.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝﴾ ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فهو: يؤمن بالله ويخافه ويتقيه، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ معناها: يجعل له بقبول التوبة من ذنوبه مخرجا، مع ما يجعل له من المخارج والتوفيق والتسديد، والمعونة والتأييد، الذي من ناله ورزقه اتسع عليه أمره، وتفسح عليه شأنه.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، يقول: يسبب له رزقه من حيث شاء سبحانه، من الوجوه التي لم يحتسب العبد التقي، ولم يرجها فيما كان يرجو.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ معنى ﴿يَتَوَكَّلْ﴾ فهو: يعتمد، ويتوكل على الله في أمره، ويسند إليه بالثقة به مهمات أمره، ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ يقول هو: غايته وكفايته، ومنتهى بغيته، ورأس حاجته، وأقصى إرادته. معنى ﴿بَٰلِغُ﴾ فهو: قادر، ومعنى ﴿أَمْرِهِۦ﴾ فهو: إرادته، فأخبر سبحانه أنه يبلغ ما أراد وشاء، ولا راد لحكمه، ولا صارف لأمره.

﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾ معنى ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ فهو: قد فعل الله وركب وميز وعَيَّن، ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ يقول: لكل شيء مقدارا ركبه وأوقعه سبحانه بقدرته فيه.

---

(١) في (أ) و (ج): فمعنى.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾، معنى ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾ فهن: اللواتي، ﴿يَئِسۡنَ﴾ فمعناها: أيسن من المحيض، ومعنى ﴿يَئِسۡنَ﴾ فهو: أيقن أنهن لا يحضن لكبر السن، وارتفاع الحيض منهن، فقد أيست كل واحدة منهن أن ترى حيضا من نفسها، بعد مبلغها ما بلغت من سنها، و﴿ٱلۡمَحِيضِ﴾ فهو: الدم والطمث، ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ معناها: من أزواجكم ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ يقول: إن شككتم هل في أرحامهن ولد أم لا، ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ يقول: يعتددن عند الطلاق، ويستبرين أرحامهن بوقوف ثلاثة أشهر، ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ يقول: اللواتي لم يحضن، واللواتي لم يحضن فهن: الصبايا الصغار اللواتي لم يرين حيضا، ولم يعرفن بعدُ دما، فجعل سبحانه عدة الكبيرة التي قد أيست من الحيض ثلاثة أشهر، وكذلك جعل عدة الصغيرة التي لم تحض أيضا ثلاثة أشهر، إذا مضت هذه الثلاثة الأشهر عن الآيسة الكبيرة، والصبية الصغيرة، فقد انقضت عدتها، وحل للرجال تزويجها.

ثم أخبر سبحانه بعدة الحامل وأمرها، وما جعل سبحانه من الأجل لها، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أويناله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ معنى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ فهن: صواحبات الأحمال، والأحمال فهو: ما يحملن في بطونهن من أولادهن، الذي جعل الله في أرحامهن، ومعنى ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ فهو: مداهن الذي يصرن إليه، ويقفن عن التزويج حتى يبلغنه، وبلوغهن له فهو: ما ذكر الله سبحانه من وضعهن لحملهن، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ يقول: أن يضعن ما في بطونهن إلى الأرض، ويستبرين منه، ويفصل عنهن، ويتبرأ هو أيضا منهن بخروجه إلى الأرض، التي جعلت له مهادا ومسكنا، حيا وميتا.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر المطلقات، وما أمر به فيهن من البينات، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ يقول: من يتق الله فيها شرط وذكر، وجعل من هذه الآجال وأمر، فيكون له فيها متقيا، ولأمره بالإتقاء والإستيفاء لها مؤتمرا، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ يقول: يصنع له ويفعل ويهيء، ويجعل له ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، يقول: من شأنه كله خيرا وفرجا، وأمرا مستويا حسنا، ويعطيه ثوابا له على اتقائه لربه، تيسيرا من كل أمر عسير، وتوفيقا وتهوينا لما عسر عليه من أمره، واشتد عليه من أسبابه.

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾، معنى ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك حكم الله، ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أنزله عليكم، وأمره الذي جعله فرضا مؤكدا فيكم، من إمساكهن بالمعروف، أومفارقتهن بالمعروف، وإشهادكم على ذلك، وما جعل من العدة لهن آيسات كبارا كن أوصبايا صغارا، وحوامل لحملهن، وماجعل في ذلك من الشروط عليكم فيهن، فكل ذلك أمر الله الذي أنزله، وحكمه الذي حكم به في ذلك عليكم وفيكم.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ يقول: من يكن لله متقيا خائفا، منتهيا إليه راجعا، ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ يقول: ثوابا وأجرا.

ثم رجع فقال سبحانه: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾، يقول: أسكنوهن في وقت اعتدادهن، ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ معنى ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ فهو: حيث ﴿سَكَنتُم﴾ يريد: حيث كنتم وحللتم، وأمسيتم وأصبحتم، ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ فهو: طاقتكم وجدتكم، من المنازل التي تكون كفافا لكم، فأمرهم سبحانه أن

يسكنوهن من حيث سكنوا من جيد المنازل أورَدِيِّها، وأن لا يعزلوهن عن مواضعهن، وأن يكن في البيوت التي يكونون فيها، ولا تجعلوهن في موضع سراها، ولا تنقلوهن عنها إلى ما هو [1] أضيق منها وأردى، وأقل في السعة وأبلى، ألا تسمع كيف يقول: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ يقول: لاتضاروهن بإخراجهن من منازلهن التي كن فيها، إلى غيرها فتضيقوا بذلك عليهن، متعمدين للتضييق عليهن، مخطين بذلك في أمرهن.

ثم ذكر سبحانه ماجعل لأولات الحمل من النفقة، فقال سبحانه: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ معنى ﴿وَإِن كُنَّ﴾ فهو: إن كن الزوجات المطلقات أولات حمل. ومعنى ﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ فهن: صواحب حمل، أي: في بطونهن حمل، والحمل فهو: الأولاد، ﴿فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ يقول: مَوِّنوهن بالنفقة والكسوة والخدمة، والقيام عليهن بجميع مصالحهن، ﴿حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يريد: يلدن ويضعن ما في بطونهن، فإذا وضعن ما في بطونهن، وخرجن من عدتهن، فقد انقطعت النفقة عنكم لهن.

ثم ذكر سبحانه ما يكون من أمر إرضاع الأولاد بعد مفارقتهم، فقال: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يقول: إن أرضعن الزوجات المفارقات لكم أولادكم، الذين ولدتهم بعد مفارقتكم لهن، ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، ومعنى ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ فهو: اعطوهن وأوفوهن، وأدوا إليهن، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ فمعنى ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ فهو: الإجارات، والإجارات فهي: الأجرة والكراء التي يستأجرنها، ويكترى المرضع لصبيه أبو

---

(١) سقط من (ج): هو.

الصبي، فيقول: ادفعوا ذلك إلى أمهات أولادكم إن ارضعن لكم، فهن أحق بذلك من غيرهن، وأولى برضاع أولادهن، إن أردن ذلك وشئنه، وطلبنه وبغينه، ومعنى ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾: تشاوروا بينكم، يا هذا الرجل ويا هذه المرأة في أمر رضاع هذا الصبي، والمعروف فهو: الأمر الحسن، يريد: تواصوا بينكم في رضاعه بأمر جميل، لاتشط المرأة على الرجل في إرضاع ولده، فتزداد عليه فوق ما يجب، ويعنته فيما تطلب، ولا يعنتها بالإقلال لها، ويشط عليها في رضاع ولدها بالوكس لها بما يجب لمثلها.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه في تصحيح ما ذكرنا، وتفسير ما شرحنا، من قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ حيث يقول: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ۝﴾، يقول: إن تعاسرتم في أمر الشرط الذي يكون لها على إرضاعها لولدها، فلا بد أن ترضع له أخرى، يقول سبحانه: إن طلبت المرأة شططا، فسيرضع الرجل ولده غيرها من النساء، بدون ما طلبت من الأجرة والعطاء، وإن طلب أبو الصبي من أمه رضاعا بوكس من الأجرة، وعسر عليها في الإنفاق فلا أن يسترضع غيرها إن تركت الولد أمه، فينفق ويخرج، وينفق للمرضع الأخرى فوق ما أراد أن يعطي أم الصبي، فأخبر سبحانه أنه لا بد من الحق، وأن من عَنَدَ منهما عن الحق، فسيوجد للصبي مرضعا بالحق، الذي عَنَدَ منهما من عَنَدَ منهما [1] عنه.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، يقول: ذو الجدة من جِدَتِه، وذو المقدرة [2] من مقدرته، على النفقة من نفقته.

---

(١) في (ج): عند عنهما من عند عنه.

(٢) في (ب) و (ج): القدرة.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ يقول: من قتر عليه، ولم يوسع ما في يديه، فكان بذلك معسرا، ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، يقول: مما رزقه الله على قدره وطاقته، فأراد سبحانه بذلك الإخبار عن ذي السعة، وذي الفاقة والحاجة، والأمر لهما بأن ينفقا على قدر ما في أيديهما، ويخرجا من رضاع ولدهما على قدر انقطاعهما ورزقهما، فأمر بما ذكر من ذلك للأب إذا كان ذا سعة، أن يوسع على أم ابنه إذا أرضعت له، وأمر أم الولد أن تقصد وتقبل ميسور أب ابنها إذا قدر عليه رزقه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ يريد فلينفق عليها، على قدر ما آتاه الله، ومعنى ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، فهو: رَزَقَه وأعطاه، ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝﴾ معنى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يجعل الله على نفس حكما فوق ما تطيق من النفقة، ولا يحكم عليها من النفقة إلا على قدر ما رزقها وآتاها، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾: سيؤتي الله ذا العسرة بعد عسره تيسيرا، حتى يكون بعد اليوم موسرا، كما كان اليوم معسرا، فهذه عِدةٌ من الله تبارك وتعالى للمتقين باليسر والتيسير، بالرزق الكثير، ورفع المعسور.

ثم رجع سبحانه في [1] ذكر من كان فيمن عَنَد من خلقه عن أمره، وتخويفا لعباده، وإنذارا وإعذارا إلى خلقه، فقال جل جلاله، وتعالى عن كل شأن شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، معنى ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ يقول: وكم من قرية ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾، ومعنى ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ فهو: من أهل قرية، ومعنى ﴿عَتَتْ﴾ فهو: قست وتجبرت [2]،

---

(١) في (أ) و (ج): وذكر.

(٢) في (أ): وغيرت. وفي (ج): وتحيرت.

وظلمت وتكبرت، ومعنى ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ فهو: تكبرت عن الطاعة لأمر ربها، ﴿وَرُسُلِهِ﴾ أي: بالمخالفة لأمر الله، والمشاقة لرسل الله، ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: جازيناها جزاء على فعلها، ﴿حِسَابًا﴾ أي: مثلا بمثل من صنعها، ومعنى جازيناها فهو: عاقبناها عقابا شديدا.

﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾﴾ يقول: عذبناها بما أنزلنا عليها من العذاب الأليم، والنكال العظيم، و﴿عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾﴾ والنكر من العذاب فهو: المنكر، ومعنى المنكر فهو: الأمر الذي لم ير مثله في العذاب، ولم يكن في أحد من الأمم، فأنكر شديد ما رؤي منه، وعوين عند وقوعه بأهله، فكان بذلك نكرا، أي: اشتد أمره، وعظم شأنه، واشتد سبيله، حتى كان نكرا عند أهله، ومن سمع به.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾، معنى ﴿فَذَاقَتْ﴾ هو: وجدت، ومعنى ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ فهو: عاقبة أمرها، ومعنى ﴿أَمْرِهَا﴾ فهو: فعلها وما تقدم من فسقها.

﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾، معنى ﴿عَاقِبَةُ أَمْرِهَا﴾ فهو: آخر أمرها، وأمرها هاهنا فهو: حالها، ﴿خُسْرًا﴾ فهو: خسرانا وبلاء، وعذابا وشقاء.

ثم أخبر سبحانه بما أعد لهم في الآخرة التي تبقى، من بعد ما أنزل بهم في دار الدنيا، فقال سبحانه: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، يريد: عذاب النار في الآخرة، التي لا تفنى، ولا تبيد ولا تنقضي أبدا.

ثم قال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فمعنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يقول: خافوا الله وراقبوه، واحذروا معاصيه، ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فهو: يا أصحاب الألباب، والألباب فهي: العقول.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقول: يا أهل الألباب من المؤمنين، الذين جعلت لهم ألبابا فانتفعوا بها، فأصابوا بها الرشد عندما استعملوها، دلتهم على الإيمان واستدلوا، ووقفتهم على طريق الهدى فاهتدوا، ولم يكابروا ألبابهم فيضلوا، ولم يعندوا عن الله فيهلكوا، بل ركبوا سبيل الحق فاهتدوا، وقصدوا ما أمروا فنجوا.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝﴾، معنى ﴿أَنزَلَ﴾ فهو: أظهر وأرسل إليكم به، ﴿ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا﴾، فهو مذكر يتذكر به من تذكر، ويؤمن به من اعتبر، ويقبل تذكرته في أمره من أبصر، ﴿رَّسُولًا﴾ يقول: مبعوثا مرسلا مبينا، أي: مؤديا، يقول: أرسله بالرسالة النيرة، والحجة البالغة، التي يتلوها عليكم، ويقيمها بينكم وفيكم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ﴾، يعني ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ فهو: يقرأ عليكم، ويظهر بينكم، ﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، ومعنى ﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فهو: رسالات الله وفرائضه، وما جعل عليكم، وافترض من دينه وأقام فيكم من حقه ويقينه، ﴿مُبَيِّنَـٰتٍ﴾ فهي: ظاهرات واضحات، مكشوفات نيرات، قد ثبينت براهينها أنها من عند ربها، وصح بالمعجزات أنها من الله سبحانه، ثبتت ذلك البراهين النيرات، والآيات المعجزات، اللواتي لا تكون إلا من الله، ولا تأتي إلا عن الله.

﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ معنى ﴿لِّيُخْرِجَ﴾ فهو: ليخلص أهل الإيمان والتقوى، بما يأتي به من الدلالات والهدى، التي يستدل بها المستدلون، ويعلم بها العالمون، صدق م اجاء به الرسول الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، من الهلكة، و﴿ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والبينات، معنى ﴿ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ فهي: ظلمات الكفر وشركه، وما فيه لأهله من الويل والبلاء، قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فهو: إلى نور الحق وضيائه، وراحته ورجائه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾، معنى ﴿وَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ فهو: يصدق بالله، ويوقن بآيات الله، ويوقن بالرسالات التي جاءت من الله على ألسنة أنبيائه، ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يقول: يكون مع إيمانه وتصديقه، عاملا بما أمر الله به من فرائضه، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ يقول: على ذلك من العمل أدخلناه جنات، والجنات فهي: دار الكرامات، التي جعلها الله للمتقين، وكرم بها عباده المؤمنين، دار السرور في المآكل والمشارب، والمناكح والملابس، التي لا يفتقر من نال ملكها، ولا يسقم من حلها، ولا يشقى من نالها، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يقول: تجري من تحت أشجارها، وبين دورها وقصورها، الأنهار، والأنهار فهي: التي ذكر الله تبارك وتعالى حين يقول: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، معنى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فهم: مخلدون، ومعنى مخلدين فهو: مقيمون لا يبرحون ولا يخرجون، ولا يفقدون كرامة الله التي يعطون، فهم مقيمون أحياء لا يموتون، مسروررون لا يحزنون، أغنياء لا يفتقرون، قد صدقوا قول الله فصدقهم، وأرضوه فأرضاهم، فصاروا عنده مقربين، وفي ثوابه خالدين، أبد الأبد.

﴿فِيهَآ أَبَدًا﴾ فمعنى ﴿أَبَدًا﴾ هو: أبد الأبد، والغاية التي لا انقطاع لها ولا مدى.

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ يقول سبحانه لمن كان كذلك، وصار إلى ما ذكرنا من ذلك، قوله: ﴿رِزْقًا﴾ فهو: ثوابا، وثوابا فهو: عطاء ونائلا وفضلا.

ثم ذكر سبحانه ما جعل من سماواته وأرضه، ليكون ذلك حجة له على جميع خلقه، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، معنى قول الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، فهو: دلالات منه على نفسه، بما فطر من فعله، وأظهر من صنعه، في سماواته وأرضه، فدل سبحانه بصنعه على نفسه، وأخبر أنه هو الذي خلق ما ذكر، ومعنى ﴿خَلَقَ﴾ فهو: أوجد وفطر، وابتدع وصَوَّر، وأوجد وقدر هذه السبع السموات، وأوجد مثلهن أيضا من الأرضين المدحوات، ومعنى ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ فهو: في العدد سبعا كالسماوات، لا أنها مثلها في الخلق والتصوير، والتجسيم والتقدير.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ فمعنى ﴿يَتَنَزَّلُ﴾ فهو: يتنزل ويتردد ويهبط ويتبدد [1]، و الأمر فهو: ما جعل الله سبحانه من الأسباب والمقادير، والأرزاق والتقادير، التي قدرها من هبوط ملائكته، إلى أنبيائه بأمره، ونهيه وفرضه وجعله، وما ينزل من السماء من الماء، الذي به حياة الأشياء، وما ينزل من السماء إلى الأرض من رحمة واسعة، وكرامة شاملة للمؤمنين، ومن عذاب نازل بالفاسقين، واقع بالكافرين، فهذا تنزيل ما يتنزل بين السموات والأرضين.

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ معنى ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ هو: لتوقنوا إذا رأيتم وأبصرتم تنزيل هذا الأمر الذي به خبرتم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومعنى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو: على كل شيء من الأشياء مقتدر، وله منفذ قاهر، لا يمتنع عليه منها شيء، ولا يفوته شيء، وهو القادر على كل شيء، يفعل ما يشاء فينفذ في الأشياء فعله، ويظهر عليها في تدبيرها قدرته.

---

(١) في (أ): يهبط ويتردد. وفي (ج): ويتردد ويتبدد.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ فهذا: إخبار من الله سبحانه أنه قد أحاط علمه بكل شيء، فهو: عالم بالأشياء علماً واحداً، علمه بها قبل كينونتها كعلمه بها بعد تكوينها، ﴿أَحَاطَ﴾ معناها: حفظ كل شيء، فلم يضل عنه شيء، من قعور البحور الزاخرات، ولا أكنان الجبال الشامخات، وهو السميع البصير، وبالله نستعين.





تفسير

سورة التحريم





ومن سورة التحريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ معناها: مناداة من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى المناداة، فهو: الأمر والمناجاة، ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾ فهو: الرسول، وإنما سمي: نبيئا؛ لأنه نبأ بما يأتي به من الله تبارك وتعالى من الأخبار والأمور، التي جعلها الله سبحانه وحيا وديانة وفرضا، ومعنى ينبي فهو: يُعلم. ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ معنى ﴿لِمَ﴾ هو: لأي معنى تحرم، ومعنى ﴿تُحَرِّمُ﴾ فهو: تجعله على نفسك حراما، وتعتزل ما جعل الله لك منه حلالا، ألا تسمع كيف يقول: لم تحرم الذي أحل الله لك [1]، معنى ﴿أَحَلَّ﴾ فهو: جعل وأطلق لك، ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ

---

(١) أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنه الله عنهما قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن مارية أم إبراهيم القبطية أصابها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت حفصة في يومها، فوجدت حفصة، فقالت: يا نبي الله لقد جئت إليَّ شيئا ما جئته إلى أحد من أزواجك في يومي وفي داري، وعلى فراشي، فقال: ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها؟ قالت: بلى، فحرمها وقال: لا تذري ذلك لأحد، فذكرته لعائشة رضي الله عنها فأظهره الله عليه، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفر عنها، فأظهر الله يمينه وأصاب جاريته. الدر المنثور ٨/ ٢١٤.

أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ معنى ﴿تَبۡتَغِي﴾: تريد وتطلب، وتأتي وتسبب، لمرضاة أزواجك، معنى ﴿مَرۡضَاتَ﴾ فهو: محبة أزواجك ومرادهن، ومسارهن ومبتغاهن، والأزواج فهن: الزوجات، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فهو قبول للتوبة، مقيل للعثرة، ومعنى ﴿رَّحِيمٞ﴾ فهو: عائد بالفضل، رحيم بمن أحسن، متعطف على التائبين.

وسبب ما ذكر الله تبارك وتعالى مما ذكر من تحريم نبيئه صلى الله عليه وعلى آله لما أحل له فهو: أنه صلى الله عليه وآله وقع يوما من الأيام على جاريته وسريته مارية القبطية، في بيت عائشة بنت أبي بكر، فاطلعت عليه وصاحت وألاحت، وقالت: في منزلي وعلى فراشي، وفي موضعي؟! فاغتم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله واحتشم، وداخله في ذلك من الحياء ما داخله معه من الندم، فقال صلى الله عليه لها: استكي يا عائشة فإني لا أعود إليها، ثم قال عليه السلام: والله لا دنوت منها أبدا، حياء منه صلى الله عليه وتكرما، وكراهية للائمتها وتسلما، فعاتبه الله عز وجل فيما حرم من جاريته، وأمره بتكفير اليمين التي أقسم بها في غشيان سريته، مع ما عاتبه فيه، في تحريمها على نفسه.

ومعنى تحريمه لها فهو: قسمه بالله لا يغشاها، فسمى الله تبارك وتعالى اعتزاله لها، وقسمه فيها تحريما، من رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه؛ إذ كان بقسمه تحريم ما كان يحب من الدنو منها، الذي جعله الله له حلالا فيها، فأنزل الله سبحانه: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝﴾، فأمره سبحانه بتحليل يمينه. معنى ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللهُ لَكُمۡ﴾ فهو: جعل الله لكم، وحكم بتحلة أيمانكم، معنى ﴿تَحِلَّةَ﴾ فهو: كفارة أيمانكم، التي تُحل لكم بالكفارة ما كنتم حرمتموه بالقسم على أنفسكم، فمعناها: حلفكم بالله وقسمكم، ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ يقول: والله وليكم، والفاعل لما يشاء بكم وفيكم، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فهو:

العالم بسرائر القلوب، المطلع على كل مستترات الغيوب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو: المتقن لكل ما دبر، المحكم لكل ما قدر، فأخبر تبارك وتعالى أنه جعل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله كفارة يمينه، وكفارة اليمين بالله تبارك وتعالى فهو: ما ذكر الله سبحانه من إطعام عشرة مساكين، أوكسوتهم، أوتحرير رقبة، أوصيام ثلاثة أيام لمن لم يجد، وذلك قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:٨٩]، فكفر صلى الله عليه وعلى أهل بيته عن يمينه، ورجع إلى جاريته، ولم يلتفت إلى ما كان من أمر زوجته.

ثم أخبر سبحانه بما كان أسر إلى بعض أزواجه، فهي: عائشة، وذلك أنه كان صلى الله عليه وآله قال لها حين صاحت وألاحت، وشنعت وأشاحت: اسكتي حتى أسرك بشيء وأخبرك بأمر، فكان الذي أخبرها به أن قال لها: إن أباك يلي هذا الأمر من بعدي، ثم يليه عمر من بعده، ثم أمرها بكتمان ذلك عليه، وألا تخبر به أحدا، فيقال: إنها أخبرت به من ساعتها حفصة ابنة عمر، ثم إنهما دعتا أبويهما فأخبرتاهما بما أخبرهما به رسول الله صلى الله عليه وآله يقال: إنه عند ذلك كان سبب إعراض رسول الله عن ذكره، فلم يبكتها بشيء من أمره، فهو: الذي قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، معنى ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ فهو: إذ أخفى سرا، وألقاه إليها، ﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ فهي: عائشة، ﴿حَدِيثًا﴾ فهو: خبرا وسرا، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، معنى ﴿فَلَمَّا [نَبَّأَتْ بِهِۦ]﴾: أظهرته وأخبرت به، ولم تحفظ فيه سره، ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، معنى ﴿أَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فهو: أطلعه عليه، وأعلمه بما

كان من إفشائها له، ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ﴾ فهو: عرفها بعض ما أفشت عليه، وبعض ما كان منها فيه، ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ ومعنى ﴿أَعۡرَضَ﴾ هو: ترك ولم يخبر، ولم يبكت ببعض ما كان منهم في ذلك، فكان الذي عرفها من فعلها أنه قال لها: لم أخبرت أباك بما استكتمت، وأخبرت حفصة وعمر؟! وقد جعلت ذلك لي عندك سرا، وأعرض صلى الله عليه وعلى آله عما قيل: إنه كان منهم في ذلك فلم يذكر منه شيئا[1].

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ يقول: أعلمها بأنه قد علم بأمرها، واطلع على ما كان من إفشائها سره الذي كان عندها، ﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾؟! معنى ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ﴾: من أعلمك وأخبرك بهذا الذي كان مني، من إفشاء سرك، وإظهار أمرك، ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝﴾ معنى ﴿قَالَ﴾ فهو: تكلم وذكر، وقال وأخبر، ﴿نَبَّأَنِيَ﴾ يقول: أعلمني وأخبرني، ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ فهو: رب العالمين، الذي

---

(١) أخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه بسند ضعيف، عن أبي هريرة قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمارية القبطية سريته بيت حفصة فوجدتها معه، فقال: يا رسول الله في بيتي من بين بيوت نسائك؟ قال: فإنها عليَّ حرام أن أمسها، واكتمي هذا عليَّ، فخرجت حتى أتت عائشة، فقال: ألا أبشرك؟ قالت: بماذا؟ قالت: وجدت مارية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي، فقلت: يا رسول الله في بيتي من بين بيوت نسائك؟ فكان أوّل السر أنه أحرمها على نفسه، ثم قال لي: يا حفصة ألا أبشرك فأعلمي عائشة أن أباك يلي الأمر من بعده، وأن أبي يلي بعد أبيك، وقد استكتمني ذلك فاكتميه، فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ إلى قوله: غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، أي: لما كان منك ... إلى قوله: ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾، يعني: حفصة، ﴿حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ يعني: عائشة، ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي: بالقرآن، ﴿ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ﴾ عرف حفصة ما أظهر من أمر مارية، ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ عما أخبرت به من أمر أبي بكر وعمر. الدر المنثور ٨/ ٢١٦ – ٢١٧.

أعلمه بذلك منها، وأعلمه بما أفشت من سره عنها، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو: الذي لا يخفى عليه شيء، العالم بالأشياء الذي لا يسقط عنه منها شيء، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ فهو: المحيط بسرائر خلقه، الذي يعلم ما يصلحهم ويفسدهم، فليس يسقط عنه من أسبابهم، ولا أمورهم قليل ولا كثير، كبير ولا صغير.

ثم قال سبحانه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝﴾، معنى ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ فهو: إن ترجعا وتنيبا إلى الله سبحانه، من فعلكما وتتوبا، ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يقول: فقد مالت عن الحق قلوبكما، وركنت قلوبكما إلى الباطل، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ فهو: إن تعاونا وتكاتفا على رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته وتماليا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ يقول هو: وليه، والدافع عنه، والمعين له، ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ فجبريل صلى الله عليه فهو: الملك الأمين، الرسول بين الله عز وجل وبين نبيه المبين، ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم: أهل الطهارة، والفضائل من المسلمين، ذو الورع والتقوى، والتجريد في أمر الله والهدى، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فهم: ملائكة الله المقربون، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، معرفة منهم بحق ربهم، وإجلالا بذلك لخالقهم، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ بعد ذلك فهو: بعد تولي ما ذكرنا من الله سبحانه وجبريل وصالح المؤمنين، ﴿ظَهِيرٌ﴾ فهو: معين لصالح المؤمنين، على مناصرة رسول رب العالمين.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، معنى ﴿عَسَىٰ﴾ هي: كلمة إيجاب من الله للمؤمنين، يريد سبحانه بها: الإخبار عن فعله بنبيه صلى الله عليه وعلى آله إن طلق من قد آذاه، وأظهر سره، ولم يستر عليه أمره، فقال سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن

طَلَّقَكُنَّ﴾ ومعنى ﴿طَلَّقَكُنَّ﴾ فهو: فارقكن، ومعنى فارقكن فهو: أخرجكن من حباله وتركَكن.

﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا﴾ يريد: أن يجعل بدلكن له أزواجا، ومعنى ﴿أَزْوَٰجًا﴾ فهو: زوجات ونساء، ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ومعنى ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فهو: أفضل منكن، يأمن إفشاء عليه سره من أزواجه، وأظهر عليه أمره من نسائه.

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ فمعناها: مستسلمات إلى الله، ومعنى مستسلمات فهو: مُسَلِّمَات أنفسهن إلى الله، ومعنى مسلمات أنفسهن إلى الله فهو: مفرغات أنفسهن في طاعة الله، غير مشتغلات بشيء سوى مرضاة الله.

﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ فمعناها: مؤمنات لأنفسهم، بصالح أعمالهن من عذاب ربهم.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ فالقانتات، فهن: الداعيات المستغفرات، الذاكرات لله، المنيبات لله، وأفضل قنوتهن ودعائهن فهو: ما يكون منهن في أدبار صلاة الصبح المفروضة عليهن، من القنوت بما فيه من الدعاء من القرآن، الذي نزل من عند الواحد الرحمن.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ معناها: راجعات إلى الله، خارجات مما كن عليه من الدين، مصدقات للرسول المبين، مقرات بالتوحيد للمحقين.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ فهن: المطيعات لله المتقيات، المواضبات على طاعة الله المؤمنات.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ فالسائحات فهن: المهاجرات إلى الله ورسوله، التاركات لأهل الكفر والجحدان، المهاجرات إلى دار السلام والإيمان.

﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ فهن: اللواتي قد تزوجن وعقلن، وفهمن وكمل أدبهن، وباشرن

الأشياء، حتى عرفن ما يصلح للأزواج من الخدمة والقيام، والمعاشرة والإكرام، فذكر الله سبحانه تبديل نبيه عليه السلام من الأزواج الثيبات؛ لما ذكرنا من فضلهن على الأبكار بالخدمة للأزواج، والإصطبار والمعرفة بحسن العشرة، فأراد بذكرهن في هذه الحالة ما ذكرنا من منافعهن، وإجلالهن لأزواجهن، لما هن عليه من التجريد والمعرفة بما لا تعرفه البكر، بحسن القيام للبعل في كل أمر.

وأراد بذكر الأبكار فقال: ﴿وَأَبْكَارًا ۝﴾: ما الأبكار عليه وتشتمله من لذاذة القرب، والحلاوة على القلب، لما هي عليه من الغرة والصبا، والإستطراف من الزوج لها في كل معنى.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝﴾، معنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو: مناداة من الله عز وجل للمؤمنين، وأمر منه لعباده الصالحين، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ فمعنى ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: كفوا عن أنفسكم، فادفعوا عنها وعن أهليكم، ﴿نَارٗا﴾ ومعنى دفعهم للنار عن أنفسهم، وعن أهليهم، فهو: تعليمهم لأهليهم ما فيه نجاتهم، وتوقيفهم على ما أمرهم به ربهم، و تحذيرهم عما نهاهم عنه سيدهم، فإذا فعلوا ذلك بأنفسهم وبأهليهم، كانوا بما أخرجوا به أنفسهم وأهليهم من الضلالة إلى الهدى، ومن الباطل إلى التقوى، واقين للكل من النار والعذاب، مستوجبين بذلك لما وُعد المؤمنون من الثواب. ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝﴾ فمعنى ﴿وَقُودُهَا﴾ فهو: حطبها، وما به تأجج في استيقادها، ﴿ٱلنَّاسُ﴾ فهم: الإنس ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾

فهي: الحجارة المعروفة من الصخور والجبال، وقد قيل: حجارة الكبريت [١]، وأي ذلك كان فهي حجارة كما ذكر الرحمن، وقودا لما جعل الله من النيران، ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ فمعنى ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: خزنة جعلت عليها، وَقَوَمَةٌ فيها، تصب الحميم على رؤوس أهلها، وتعذب من صار فيها كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨]، فهم عليها موكلون، وبتعذيب من فيها من الثقلين مأمورون، وهم صلوات الله عليهم بها قائمون، ومن ألمها وحرها وعذابها سالمون، لا ينالهم فيها حر ولا تعب، ولا يصيبهم فيها غم ولا نصب.

﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ ومعنى ﴿غِلَاظٌ﴾ فهم: فظاظ، والفظاظ فهم: الذين لا رحمة في قلوبهم لمن يعذبونه، ولا رقة عندهم على من يصلونه، ﴿شِدَادٌ﴾ فهم: الأقوياء في أبدانهم، الأشداء في استطاعتهم، المقتدرون على كل أمرهم، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ معناها: لا يخالفون الله، ﴿مَآ أَمَرَهُمْ﴾ معناها: فيما أمرهم، ومعنى أمرهم فهو: ما يأمرهم به من تعذيب المعذبين، وإيصال الوعيد إلى الفاسقين، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ معناها: يصيرون إلى ما جعلوا له، ويمضون ما أقيموا فيه، ولا يعصون آمرهم، ولا يخالفون جاعلهم، ولا يتكلفون أمرا يأتون به من أنفسهم، فهم لأمر الله مسلمون، وبه في كل الأسباب مؤتمرون.

ثم ذكر سبحانه اعتذار الكافرين في يوم الدين، عند وقوع الحسرة والندامة بالفاسقين، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾، معنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فهو: نداء من الله وتوقيف، لأهل الكفر من الناس

---

(١) عن ابن مسعود، وابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ هي حجارة الكبريت لأنها أحر شيء إذا أحميت. مجمع البيان للطبرسي ١/١٣٨.

وتعريف، والذين كفروا، فهم: الذين أساءوا وظلموا، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ ولا تحدثوا توبة، فلن تقبل لكم، ولا تبدوا من القول ما لا ينفعكم، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ فهو: يوم القيامة.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ معنى ﴿تُجْزَوْنَ﴾: تعطون وتدانون، فأخبر سبحانه أنهم لن يجازوا إلا بفعلهم، ولن ينالهم عذاب إلا بعملهم، وذلك قوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول: جزاكم ما كنتم تعملون.

ثم ذكر سبحانه حال المؤمنين، وأمرهم بما أمر به من كان قبلهم من المتقين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾، معنى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾ فهو: أمرٌ من الله للمؤمنين، يريد يا أيها الذين، ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهم: الذين اتقوا وأحسنوا إلى أنفسهم، حتى أمنوا عقاب ربهم، ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معنى ﴿تُوبُوٓا۟﴾ أي: أخلصوا التوبة إلى الله، والعمل الصالح لله، ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ يقول: أخلصوا لها إخلاصا، ﴿نَّصُوحًا﴾، ومعنى ﴿نَّصُوحًا﴾ فهو: خالصا ثابتا، يقول: أخلصوا له.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ معنى ﴿عَسَىٰ﴾ فهو: إيجاب من الله لمن تاب توبة نصوحا أن يقبل منه توبته، ويكفر عنه سيئاته، وهي كلمة تشبه الشك، وهي كلمة تستعملها العرب في إيجابها للشيء، وتصحيحها له، ﴿أَن يُكَفِّرَ﴾ معنى ﴿يُكَفِّرَ﴾ فهو: يغفر ويهب، ويصفح عن سيئاتكم، والسيئات فهي: الخطايا الموبقات.

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يقول: إذا كفر عنكم سيئاتكم

أدخلكم جنات، والجنات فهي: دار النعيم والكرامات، والحالات القيات، ذوات الثمار والأنهار، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يقول: تجري من تحت الأشجار - أشجارها وثمارها، ودورها وقصورها - الأنهار، فهي فوق الأرض سائلة، ومن تحت ما ذكرنا جارية، والأنهار فهي: الغُدُر والمياه المتفجرة، بعضها من بعض.

﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾، واليوم الذي لا يخزي الله فيه النبيء فهو: يوم القيامة، ويوم الحشر للمؤمنين والسلامة ، والشقاء للكافرين والندامة، ﴿لَا يُخۡزِي﴾، فهو: لا يفضح ولا يسوء، بل تفلح حجته، وتظهر فيه كرامته.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يقول: والذين آمنوا أيضا مع رسولهم، لا يخزون ولا يرون ما يسوؤهم ولا يردون، بل يرون السرور في ذلك اليوم من ربهم، ويتنجزون مواعيدهم من خالقهم، ﴿مَعَهُۥ﴾ فهو: مع الرسول صلى الله عليه وعلى آله.

﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ معنى ﴿نُورُهُمۡ﴾ فهو: برهانهم، وما جعله الله سبحانه من حجة الإيمان لهم ومعهم، ومعنى ﴿يَسۡعَىٰ﴾ فهو: تظهر بين أيديهم، ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ فهو: يتبين براهين الدلالات، وكرامات البشارات، فهو: ظاهر لا يخفى على الناظرين، ولا يتغيب عن المبصرين.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، معنى ﴿يَقُولُونَ﴾ فهو: يسألون ويطلبون، ﴿رَبَّنَآ﴾ يعني يقولون: يا إلهنا، وخالقنا ومالكنا، ﴿أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ يريدون بذلك: أتمم لنا ماقد أعطيتنا من هذا النور، وظهور الحجة، وكرامات البشارة، بإيصالنا إلى ما وعدتنا من دار كرامتك، والخلاص من موقف حسابك، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآ﴾ هو: ارحمنا، وتجاوز عما كان منا،

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، معناها: إنك على كل ما تريد مقتدر، ومعنىَ مقتدر فهو: قادر فاعل، فكان ذلك من قولهم اقرارا لربهم بالقدرة وتقديسا منهم وإجلالا، وتبجيلا وتعظيما، وهيبة في كل حال.

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وعلى آله بجهاد من عَنَدَ عن الله من الكفار والمنافقين، وبأن يبتدئ الغلظة على جميع الفاسقين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝﴾، معنى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ فهو: أمر من الله لنبيئه صلى الله عليه وآله بما أمره به من جهاد عدوه، معنى ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ فهو: المنبي عن الله سبحانه بوحيه الرضي، ﴿جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ فهو: نابذ الكفار وقاتلهم، وابسط يدك بالسيف عليهم، والكفار فهم: الذين كفروا بالله وأشركوا، وكذبوا بآياته وأنكروا، والمنافقون فهم: المدغلون في الدين، الذين يفسدون عليه صلى الله عليه وآله، ويعطونه من ألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويبدون له الإسلام، ويفسدون عليه ضعفة الأنام، فأمره سبحانه بالجهاد لمن نابذه من أولئك، وأظهر له ما يخفيه من المعصية والعداوة في ضميره، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: اشتد عليهم، وكن بهم فظا غير رحيم، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ يريد: مصيرهم ومعادهم، ﴿جَهَنَّمُ﴾ وجهنم فهي: النار، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ يقول: بئس المرجع والقرار، والمصير والدار، ومعنى ﴿بِئْسَ﴾ فهو: شر مصير، ومصير فمعناها: الموضع والمنزل والمرجع الذي يُرجع إليه، ويُصار فيه.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكافرين، فأخبر بأمرهم وحالهم، وأنه لا يغني عنهم الأولياء الصالحون، من الأزواج والأولاد، والآباء والأبناء، في عصر رسول الله

صلى الله عليه وآله، كما لم يغن ذلك عمن كان كذلك في عصر نوح ولوط صلى الله عليهما، فضرب في ذلك مثلا لأزواج الرسول صلى الله عليه، الذين ذكر عنهم في أول السورة ما ذكر، يخبرهن أن نكاح رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لهن لا يغني عنهن من الله شيئا، إن عدلوا عن الحق، ولم يتبين عما كان من تظاهرهما على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، وأنه لا منجاة من ذلك، إلا بالتوبة عن تلك المهالك، وأن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لا يغني بنكاحه لهن، ولا مقاربته إياهن، وأنه لا نجاة لهما مما فعلتا إلا بالتوبة عما كانتا صنعتا، وإلا كانت حالهما كحال غيرهما من امرأة نوح وامرأة لوط صلى الله عليهما، فقال سبحانه في ذلك: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝﴾، فضرب الله هذا المثل لجميع الكافرين، الذين لهم أولياء صالحون، من قريش وغيرهم من الناس أجمعين، فأخبر بما ضرب من ذلك أن الولي الصالح، لا ينفع عند الله غدا وليه الطالح، وأن ليس من الله نجاة إلا بالعمل الصالح، وبالتوبة النصوح، وبالرجوع إلى الله في كل فعل أوقول، سرا وعلانية، وأن حال من كان كذلك كحال امرأتي نوح ولوط صلى الله عليهما، لما خانتا نوحا ولوطا صلى الله عليهما، فصارتا بخيانتهما إلى النار، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا، معنى ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ فهو: عند عبدين، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ يقول: من عبيدنا، ﴿صَٰلِحَيْنِ﴾ فهما: مؤمنين تقيين، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فهو: عصتاهما [1]، وصارتا إلى مضادتهما، ومعاندتهما

---

(١) في (ب): عصياتهما. وفي (ج): عصيانهما.

في ماحرمه الله عليهما، من مخالفتهما فيما عصتا ربهما، بخيانة ولييه استحقتا النار، بعصيانهما الجبار، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلم يغنيا معناه: فلم ينفعاهما، ولم يدفعا منهما شيئا مما نزل بهما من عذاب ربهما، ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ﴾ معنى قيل فهو: حكم عليهما، فأوجب العذاب، ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ يقول: صيرا إليها، وحلا فيها، وادخلا مع الداخلين، وكونا من سكانها يوم الدين.

ثم ضرب الله سبحانه مثلا للمؤمنين، الذين يكونون مع الأولياء الفاسقين، فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝﴾، معنى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ فهو: جعل مثلا ضربه للمؤمنين، الذين هم مع الأولياء الطالحين الفاسقين، ليخبرهم أن ضلال أوليائهم ليس بضارٍ لهم، إذا أخلصوا لله نياتهم، وقدموا التوبة إلى ربهم، كما لم يضر امرأة فرعون ضلال فرعون، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾، فمعنى ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى﴾ فهو: دعت وسألت ربها بأن يجعل لها في دار الآخرة عنده منزلا، أفضل من منزل فرعون وأكرم، ﴿بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ فهو: منزلا في الجنة، والجنة فهي: جنة المأوى التي جعلها الله تبارك وتعالى للمؤمنين ثوابا، ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ﴾ تقول: خلصني من فرعون، ومعنى خلصني فهو: أرحني منه، وانقلني منه إليك، ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ تقول:

أرحني مما أرى من عمله، اللذي لا أقدر أن أغيره عليه، ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معنى ﴿نَجِّنِي﴾ فهو: تخلصني وتنجيني، وتنقذني من قرب القوم الظالمين، والقوم الظالمون فهم: الظالمون لأنفسهم، بعصيانهم لربهم، وهم قوم فرعون وأهل ملته، الساعون في طاعته.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾، فأخبر أيضا أنها ضُربت مثلا للمؤمنين، كما ضربت امرأة فرعون، ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ فهي: أم المسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ معنى ﴿ٱلَّتِيٓ﴾ فهو: هي، ومعنى ﴿أَحْصَنَتْ﴾ فهو: حفظت وصانت عن معاصي الله فرجها، ولم تصرفه إلى شيء مما يسخط ربها، وفرجها فهو: قبلها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ يقول: جعلنا فيه، وجعلنا في رحمها، وصورنا، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ فمعنى ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ فهو: الروح الذي خلقنا فيه، هو عيسى بن مريم صلى الله عليه، وإنما نسبه إليه فقال: ﴿رُّوحِنَا﴾، لأنه خلقه وفعله، مثل قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١]، فقال: عبدنا؛ لأنه من فعله، كما قال: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ لأنه روح خلقه وصوره، فنسبه إليه؛ إذ هو فعله، كما نسب العبد إليه؛ إذ كان من خلقه وفعله، فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ يقول: جعلنا في عبدنا المسيح، وخلقناه، وفطرناه وصورناه، من غير ذكر، كما خلقنا غيره في غير مريم عليها السلام من الذكر، فكان إيجادنا في رحم مريم من غير ذكر كإيجادنا غيره من عبادنا من الذكران، وكان ذلك شيئا سهلا هينا حقيرا، ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ فهو: آمنت وأيقنت، وقبلت وأقرت، ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ فكلمات ربها هي: وحيه الذي أوحى إليها حين تمثل لها جبريل عليه السلام بشرا سويا، فـ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ

بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ۝﴾ [مريم:١٨-٢١]، فلما أن قال لها جبريل صلى الله عليه ما قال من قوله، وجاءها بما جاءها من أمر الله به، فصدقته في ذلك وأيقنت به، وعلمت أنه من عند الله، ولم تنكر قدرة الله فسلمت لأمر الله، فهذا الذي كان من كلام جبريل عليه السلام، فهو: الكلمات الذي صدقت بهن وقبلتهن، ولم تكذب جبريل في شيء منهن، ولم يدخلها شك في أنه رسول من الله ولا ارتياب، وأن الأمر الذي جاء به إليها هو من عند الله، فذكر تصديقها بالكلمات التي وجه جبريل بها إليها، فألقاها إليها واحتج بهن عليها، فصدقته فيهن، وقبلت ما جاءها به منهن، ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ فالكتب التي صدقت بها، فهي: كتب موسى وصحف إبراهيم صلى الله عليهما، فكانت بذلك مصدقة، وبأنبيائه مقرة عارفة، وبشرائعهم متعلقة، ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ والقانتون فهم: الداعون إلى الله، المسلمون لأمره، القائمون بحكم الله، فكانت كما ذكر الله سبحانه قانتة، وله عز وجل بالنجاة سائله، فأجاب الله قنوتها، وشكر عملها، وتقبل سعيها، وجعلها مثلا للمؤمنين، خصهم بالإقتداء بها، وأخبرهم أنه لم يرزأها كفر أهل زمانها، وأن كلا مأخوذ بعمله وقوله، ومجازى بسعيه، وأنه ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤، الإسراء:١٥، فاطر:١٨، الزمر:٧، النجم:٣٨]، وأن الله يجزي كلا بالجزاء الأوفى.

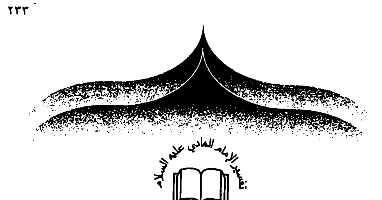
٣٤٩) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤، التحريم:٦]؟

والناس هم: أهل المعاصي من الآدميين، والحجارة فقد قيل [١]: إنها حجارة الكبريت، وقد يمكن أن تكون هي وغيرها من الحجارة والصخور، وليس في ذلك على الحجارة ألم ولا وجع، فتكون بالألم والوجع مظلومة، وإنما هي شيء جعلها الله لذلك، لا تألم ولا تشكع [٢]، وليس حال الصخور والإيقاد بها [٣] في الآخرة، إلا كحال الحطب والإيقاد به في الدنيا، فإن كان ذلك ظلما للحجارة، فهو: ظلم للحطب والخشب في الدنيا، وإنما يقال: ما ذنب الشيء فيما يفعل به؟ إذا كان يدري ويعلم ما يعمل به، ويتألم ويشكع مما يصنع به [٤]، فأما ما لا يشكع ولا يعلم، ولا يألم ولا يفهم، فلا يجوز ذلك القول في مثله، ولا يجوز أن [٥] يقاس بغيره.



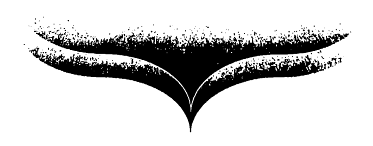
---

(١) في (أ): وقد قيل في الحجارة. ..
(٢) شكع: كفرح، كثر أنينه.
(٣) في (أ): لها.
(٤) في (أ): فيه.
(٥) في (أ): بأن.



تفسير

سورة الملك





ومن سورة الملك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾، معنى ﴿تَبَـٰرَكَ﴾ هو: تعالى وتقدس، وجل وعظم، من كل مايقول فيه المشركون، وينسب إليه الملحدون، ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ﴾ معنى ﴿ٱلَّذِى﴾ فهو: من بيده، معنى ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ والملك فهو: الخلق كله، ما خلق الله وذرأ وبرأ، من جميع الأشياء، من السماوات كلهن، والأرضين بأسرهن، وما فوقهن وما تحتهن، وما خلق الله فيهن وبينهن، فكل ذلك فهو: الملك، والملك فهو: عرشه، وعرشه سبحانه: فملكه، وملكه فهو: ما جعل وفطر، وما خلق سبحانه من الأشياء فصَوَّر، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول سبحانه هو: على ما يشاء فعله، فهو قادر أن يفعله، لا يمتنع منه شيء فيفوته، كل شيء في قبضته، وكل شيء فهو: لاحقه، ما شاء أن يفعل فعل، وما أراد أن يجعل جعل، فهو قدير على ذلك مقتدر، قوي على ما شاء أن يدبر.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾، معنى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ يقول فهو: الذي جعل الموت وقدره، والموت فهو: الفناء والذهاب من الإنسان، وخروج النفس كلها من الأبدان، ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ فهي: حياة البشر، وحياة البشر فهي: جعل الأرواح في أبدانهم، وتقريرها في [1] جميع أعضائهم، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾

---

(١) في (ج): من.

يقول: ليختبركم مما جعل في ذلك لتعملوا في حياتكم بها أمركم به، وتقوموا فيها بما افترض عليكم، ألا تسمع كيف يقول:

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ يقول سبحانه: ابتلاكم بالموت والحياة، فجعل الحياة الأولى، وقت اكتساب وبلوى، والحياة الثانية التي بعد الموت وقت الحساب والجزاء، على ما تقدم من العمل في الحياة الأولى، فجعل الحياة الأولى بلوى ابتلى خلقه فيها أمرهم به من طاعته، ونهاهم عنه من معصيته، ليعلم سبحانه أيهم أحسن عملا، ومعنى ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أيهم أشد لطاعتنا اتباعا، ومن معاصينا امتناعا، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ فأخبر سبحانه أنه العزيز الغفور، فهو: المقيل للعثرة، بعد التوبة عند الزلة، المتجاوز عن خطايا التائبين، القابل من المحسنين.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، فدل عز وجل على نفسه بما أظهر من فعله، وأبان من قدرته لخلقه، يريد بـ﴿ٱلَّذِى﴾ أي: هو ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ يريد: خلق، أي: أوجد وفطر، وابتدع بعد العدم وصور، ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ فهن: السماوات السبع المجعولات المقدرات، ﴿طِبَاقًا﴾ أي: المجعولات بعضهن فوق بعض، ومعنى ﴿طِبَاقًا﴾ فهو: طبقة فوق طبقة، ومعنى طبقة فوق طبقة فهو: سماء فوق سماء، حتى ينتهي إلى السماء السابعة التي ليس فوقها سماء.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ معنى ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ هو: نفي من الله تبارك وتعالى، من أن يكون في خلقه اختلاف ولا ردى، ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فمعناه: فيما جعل الرحمن، ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ والتفاوت فهو: الإختلاف، والإختلاف الذي ذكر الله أنه لا يرى في خلقه فهو: اختلاف الأشياء عما جعلها الله فيه، وقدرها

من التركيب سبحانه عليه، فأخبر سبحانه أنه لا يوجد ولا يرى في خلقه اختلاف أبدا، عما جعله عليه وركبه فيه تركيبا، فأخبر سبحانه بذلك أن كل شيء من خلقه، ثابت على ما جعل فيه من تركيبه، لا يزيد على ما جعله الله عليه، ولا ينقص عنه، فالكبير كبير على حاله كما جعل، والصغير صغير كما فعل، والبعيد بعيد قاصٍ، والقريب قريب دانٍ، والجميل جميل لا يتغير أبدا، والسمح فعلى ما جعل عليه يكون من الأشياء، ليس من خلق الله خلق يحول عما خلق عليه [1]، ولا يتفاوت فيما ركب فيه، فهذا معنى قوله سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾.

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝﴾ معنى ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ يقول: ارجع في النظر، وأدر واقلب ما جعل لك من النظر، في خلق الله العزيز الأكبر؛ ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ يقول: هل ترى من اختلاف، أو تفاوت مما جعل من الإئتلاف، فلن تجد أبدا فطورا ولا اختلافا، بل ترى كل ما خلقنا على ما جعلناه من التسوية والإئتلاف والتركيب.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، أي: مرتين، يقول: ارجع البصر، وأجِدَّ استعمال النظر، ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرتين ليثبت لك أمرك، ويتبين لك غير ما قصد بصرك، وأنك إن فعلت ذلك وأجدت التمييز والبصر استعملت [2] في ذلك العقل والفكر، لم تر في شيء مما خلقنا تفاوتا، فيما ركبناه عليه من تقديرنا.

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾ معنى ﴿يَنقَلِبْ﴾ يقول: يرجع إليك - بعد تثبتك في النظر في مجعولاتنا، وتقليبك لبصرك في مخلوقاتنا - بصرك

---

(١) في (ب): خلق يجوز ما جعل عليه.

(٢) في (ج): التمييز استعملت.

﴿خَاسِئًا﴾ والخاسىء فهو: الذليل المتصاغر لنفسه الموقن بصحة ما نظر إليه، ووقف من جليل أمر الله عليه، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ والحسير: المنقطع الذي قد جهد فلم يعرف[1]، فانحسر عن طرح ما أراد بلوغه، وشاء تناوله ودركه.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ فهو: إيجاب منه لذلك، يقول: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ فهو: جعلنا وحسنا، ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ بما جعلنا فيها من المصابيح، والسماء الدنيا فهي: السماء القريبة منا، معنى الدنيا فهي: القريبة من الناس. لأن العرب تقول: ذلك الأدنى، تريد: الأقرب إليها، وتلك الدار الدنيا، تريد: الدار التي هي إلى المتكلم أقرب وأدنى، فهذا معنى سماء الدنيا، ولذلك سميت: دار الدنيا؛ لأنها أدنى إلى الخلق وأقرب؛ إذ كانوا فيها سكنوا أولا، فسميت: الأولى؛ لأنها أول الدارين المسكونتين من الآخرة والدنيا، وسميت: دنيا؛ لأنها أقرب إلى أهلها وأدنى، والمصابيح فهي: النجوم التي تبرق وتلوح، وتضيء وتنير في مواضعها، وتوقد في أفلاكها.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، معنى ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ هو: قدرناها وأعددناها، ﴿رُجُومًا﴾ فهي: مراجم يُرجمون بها، ومرامٍ يُرمون بها، والشياطين فهم: الأبالسة من مردة الجن المستجنين.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ يقول: اعتدنا لمن كان مرجوما منهم عذاب السعير، فهو عذاب الجحيم، والجحيم فهي: جهنم، وبئس المصير.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝﴾،

(١) في (أ) و (ج): يفز. مصحفة.

يقول: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾، كل كافر من الجن والإنس، و﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ فهو: أغلالها وسعيرها، وسلاسلها وحريقها، وبلاؤها، وجهنم فهي: النار، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ معناها: شر موئل يؤول فيه، ومصير يُصار إليه.

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾ فمعنى ﴿أُلْقُواْ فِيهَا﴾ هو: طرحوا فيها وصيروا إليها، ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾ يقول: سمعوا لها زفيرا، والزفير فهو: الشهيق، والشهيق فهو: الزفير، والزفير فهو: الحنين والتأجج العظيم الكبير، الذي يهول سامعه ما يسمعه من حنينه، فضلا عن مقاربته ومباشرته، ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ معنى ﴿تَفُورُ﴾ هي: تغلي بأهلها، وتقلبهم في أعالي لهبها، ترفعهم تارة وتضعهم، وتشويهم تارة وتفسخهم.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، معنى ﴿تَمَيَّزُ﴾: تكاد تتقطع قطعا من الغيظ على من عصى، وتولى عن أمر الله وأبى، ومعنى ﴿ٱلْغَيْظِ﴾ فإنما هو: مَثَلٌ من الله تبارك وتعالى ضربه فيها، يريد جل ذكره أن فعلها بأهلها، من أكلها لهم وإحراقها، وعظيم ما جعل الله فيها، وركبها عليه من الفوران والإتقاد، وسرعة الإحراق؛ لما يقع فيها بالمتغيظ المحسر الغضبان، الذي قد داخله من الغيظ أمر، فَشَبَّه الله سبحانه أمر جهنم وتأججها وحركتها وحسها، وفعلها بمن طرح فيها، بفعل المغتاظ الغضبان؛ لا أن جهنم تغتاظ ولا ترضى، ولا تميز بين من أطاع ولا بين من عصى، غير أن الله عز وجل قد ركبها وجعلها نقمة محرقة لمن وقع فيها، فصار بحكم الله سبحانه إليها.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ معنى ﴿كُلَّمَآ﴾ هو: إذا، ومعنى ﴿أُلْقِيَ﴾ فهو: طرح فيها، ورمي إليها، والفوج فهو: الجماعة الكثيرة، ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ معناه: استخبروهم عن أمرهم، وسألوهم عما

كانوا فيه في حياتهم، و﴿خَزَنَتُهَآ﴾ فهم: ملائكة الله الذين يخزنونها، ومعنى يخزنونها فهو: يحفظون من فيها، ويعذبون أهلها، ويمنعونهم من الخروج منها، ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي فهو: سؤال من الملائكة لهم على طريق التقريع والتوبيخ منهم لهم، لا على طريق الشك في أن النذير قد جاءهم، فقالت الملائكة صلوات الله عليها: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾؟! ينذركم هذا اليوم، ويحذركم هذا العذاب.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾، فأقر أهل النار بأن النذير قد جاءهم، في قولهم: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا﴾، ومعنى ﴿بَلَىٰ﴾ فهو: نعم، ومعنى ﴿جَآءَنَا﴾ فهو: أتانا وكلمنا، وأعذر وأنذر إلينا، ﴿فَكَذَّبۡنَا﴾ يقول: صددنا عن ربنا، ولم نصدق رسولنا، ﴿وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ معنى ﴿قُلۡنَا﴾ أي: تكلمنا وذكرنا، واعتقدنا وأضمرنا، أنه لم ينزل الله مما جاءت به الرسل شيئا، وأن ذلك كان منهم كذبا وعُتُوًّا.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩﴾ فأخبروا الملائكة خزنة جهنم صلوات الله عليهم، بما كانوا يقولون للرسل المرسلين من قولهم لهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩﴾ والضلال الكبير فهو: الكذب والخطأ، والعدول عن الحق والهدى، والكبير فهو: العظيم الكبير.

﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾، فهذا قول من الكافرين أهل النار المعذبين، ومعنى ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ فهو: لو كنا في حياتنا نسمع قول الأنبياء، ومعنى نسمع قولهم، فهو: نطيع أمرهم، ونصير إلى أمرهم، وقولهم: ﴿أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ معنى ﴿نَعۡقِلُ﴾ أي: لو كنا نعقل ما جاؤا به، ومعنى

﴿نَعۡقِلُ﴾ فهو: نفقه، ومعنى نفقه [1] فهو: نصدق به ونقبله، ألا تسمع كيف يقول قائل العرب لمن يكلمه ويخاطبه: اعلم ما أقول لك. يريد: افهم ما أكلمك به واعقله، واعرف معانيه وافهمه، ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يقولون: لو كنا سمعنا قولهم، وآمنا بما جاؤا به من ربهم، لم نكن في أصحاب السعير، معنى ﴿مَا كُنَّا﴾ أي: ما صرنا ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، والسعير فهي: جهنم، وأصحابها فهم: أهلها، المعذبون الصائرون إليها.

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾، معنى ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾ فهو: أقروا بذنوبهم، أي: لم يجحدوا شيئا من أفعالهم، ومعنى ذنوبهم فهو: سيئاتهم، وما كان من عصيانهم لربهم، ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ ﴿فَسُحۡقٗا﴾ معناها: فبعدا، ومعنى بعدا فهو: بعدا لهم، ومعنى بعدا لهم فهو: بعدوا من الثواب، والرحمة في كل الأسباب، ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يقول: لأهل النار.

ثم يرجع سبحانه إلى صفة المؤمنين، وذكر من ذكر من أوليائه الصالحين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝﴾، معنى ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ فهو: يتقون ويخافون، ﴿رَبَّهُم﴾ فهو: خالقهم وسيدهم، ومالكهم ومقدرهم وجاعلهم، ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ فمعناها: في الغيب، ومعنى في الغيب فهو: في سرهم، وما تَغَيَّبَ من أمرهم، واستتر عن الناس من أفعالهم، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ يقول: لهم غفران من الله ورحمة، وعائدة منه سبحانه وكرامة، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ يقول: ثواب عظيم كثير، كبير خطير.

---

(١) في (أ) و (ج): نفهمه. ومعنى نفهمه.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝﴾، ومعنى ﴿وَأَسِرُّواْ﴾ فهو: اخفوا، ﴿قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ يقول: أو أظهروه، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يريد: عالم بضمير الصدور، وما يستجن فيها، وفي كل الجوانح من الأمور، فأخبر سبحانه بما ذكر من ذلك أنه سواء عنده، وفي علمه ما أسره وأظهره أحد من خلقه، وأن علمه بالغيب المكتوم، كعلمه بالظاهر المعلوم، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝﴾، يقول سبحانه: إنه عالم بكل ما يكون من سر أو علانية، وإنه لا يخفى عليه من الأمور خافية.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝﴾، يريد بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: كيف لا يعلم سبحانه ما قد خلقه، ويطلع على سر من فطره؟! وهو أعلم به من نفسه! وأعلم بسره وعلانيته! ومعنى ﴿يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فهو: سر من خلق، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ واللطيف فهو: البر بخلقه، المتفضل عليهم برزقه، المآن عليهم بمرافقه، والخبير فهو: العليم الخابر بكل أمورهم، العارف بكل أسبابهم، الذي لا يغيب عنه شيء من افعالهم.

ثم دل سبحانه على نفسه، ونبه الخلق على معرفته، لما فطر من فطره، وجعل من جعائله وصنعه، فقال جل ثناؤه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝﴾، تفسير ﴿ٱلَّذِى﴾ فهو: دلالة عليه سبحانه دون غيره، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: هو سَوَّى لكم، وجعل لكم، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أي: قَدَّرها ودحاها وسواها، ﴿ذَلُولًا﴾ والذلول فهي: المطية السامحة، التي لا تمتنع مما يفعل بها، ولا تدفع شيئا عن نفسها، فشبه الله عز وجل الأرض في

انبساطها ووطائها، واستوائها بأهلها، بالذلول من الإبل التي لا تمانع ربها، ولا تخالف في شيء مما يراد بها، ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ يقول: سيروا في جوانبها؛ لأن المناكب هي الجوانب والأطراف، ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ ومعنى ﴿وَكُلُواْ﴾ أي: أطعموا وتنعموا من رزقه، أي: فهو من فضله وعطائه، وما أخرج من ثمرات أرضه، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يقول: وإليه معادكم، وإليه نشوركم، فإذا أراد سبحانه أن ينشركم نشركم، ومعنى النشر، فهو: البعث والحشر.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾، معنى ﴿ءَأَمِنتُم﴾ هو: إخبار من الله عز وجل عن قدرته، وإخبار منه أنه لا يأمن أعداؤه أخذ نقمته، ومعنى ﴿ءَأَمِنتُم﴾ فهو: أيستم أن يخسف بكم الأرض؟! ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ﴾ يقول: آأمنتم إلهكم أن يخسف بكم الأرض؟! وأيستم من أخذه لكم؟! معنى ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فهو: الله الواحد الذي هو في الأرض كما هو في السماء، لا يخلو منه مكان، وهو الله الواحد ذو العزة والسلطان، وقوله: ﴿يَخْسِفَ بِكُمُ﴾ أي: فهو تذهب وتميد بكم الأرض حتى تذهب بكم في بطنها، وتُصَيِّركم في قعرها.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝﴾ يقول: إذا هي تذهب بكم ذهابا، وتهبط بكم في بطنها هبوطا، ومعنى ﴿تَمُورُ﴾ فهي: تنخسف وتغور.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ من هو في كل مكان من السماء وغيرها، وهو الله الخالق لها ولغيرها.

﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، فمعنى ﴿يُرْسِلَ﴾ أي: فهو يصيبكم، ويرمي بالحاصب عليكم، والحاصب فهي: الحجارة التي تحصبهم كما حصب قوم لوط فرماهم بالحجارة، فيقول سبحانه: أمنتم أن يرميكم بها؟! كما رمى من كان قبلكم بمثلها.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝﴾ يقول: ستعرفون كيف كان إنذاري وإعذاري لكم، وتحذيري لما ننزل بكم من بعد نزوله بساحتكم، وحلوله بأهل المعاصي منكم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝﴾، ومعنى ﴿وَلَقَدْ﴾ فهو: إيجاب لما كان منهم، بتكذيب مَن قبلهم، فمعنى ﴿كَذَّبَ﴾ فهو: جحد واستهزأ، ولم يوقن فيصدق بما جاء من الهدى، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فهم: الأمم الذين كانت قبل هذه الأمة، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يقول: قد رأيتم وأبصرتم كيف كان نكيري عليهم، ومعنى نكيري فهو: تغييري وعقوبتي، وما أحدثه وما أخذوا به من نقمتي، على ما اجتروا [1] عليه من مخالفتي.

ثم نبه سبحانه على نفسه بالطير الذي لا تكون إلا منه، ولا يقدر عليها أحد إلا هو، احتجاجا بذلك عليهم، وتأكيدا لحجته فيهم، ثم قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ﴾، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ معنى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ فهو: ألم ينظروا ويبصروا؟! ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ الطيارة، ذوات الأجنحة، التي تطير في الهواء، وتصف فوقهم، فهي في الهواء فوق رؤوسهم، و﴿صَـٰٓفَّـٰتٍ﴾ فمعناها: صافات أجنحتهن، وصفها لأجنحتهن فهو: نشرها وتسكينها حتى تهدأ وتسكن، حتى تكون كالشيء المنشور في الهواء، لا يتحرك منها أسفل ولا أعلى، فحينئذ يسمى ما فعل ذلك من الطير: صآفا، ﴿وَيَقْبِضْنَ ۚ﴾ فهو: يضممن أجنحتهن إلى جنوبهن، ويخفقن بها تحريكا في طيرانهن، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي: ما يلزمهن في الهواء، ويمنعهن إلا الله العلي الأعلى، ومعنى امساكه إياهن فهو: بما جعل وقدر لهن من الريش الذي جعلهن به طائرات،

---

(١) اجتروا. هي: اجترأوا. وإنما سهل الهمزة لأن لغته حجازية.

وفي الهواء واقفات صآفات، ودبر فيه وبه طيرانهن، وجعله حاملا لأبدانهن، وموقفا في الهواء لأعضائهن، فلما كان ذلك منه وبه فيهن، ذكر أنه سبحانه هو الممسك لهن، و﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُۚ﴾، فهو: الرؤوف المتفضل ذو الإحسان.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾، معنى ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ﴾ معناها: لجميع الأشياء من فعل أو جسم، ﴿بَصِيرٌ﴾ فهو: عليم.

﴿أَمَّنۡ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾، معنى ﴿أَمَّنۡ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾: فهذا تقريع من الله لهم وتوبيخ وإعلام أنه لا جند من دونه لهم ينصرونهم منه، والجند فهم: الأعوان، من الأنصار والإخوان، ﴿يَنصُرُكُم﴾: يمنعكم، ويقوم دونكم.

﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَـٰنِۚ﴾ يعني: دون أمر الرحمن، يريد: مَن هذا الذي ينصركم، من دون أمر الرحمن إن نزل بكم؟!

﴿إِنِ ٱلۡكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠﴾ يقول: ما الكافرون إلا في اغترار وباطل، وخديعة من الشيطان لهم، وتمادٍ في باطلهم.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمَّنۡ هَـٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾، يريد: أمن هذا الذي يرزقكم؟! ومعنى ﴿يَرۡزُقُكُمۡ﴾ فهو: يسبب لكم رزقكم، ويخرج لكم من الأرض معائشكم، ﴿إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾ يقول: إن منعكم الله رزقه وأمسكه عنكم، فلم تخرج الأرض نباتها، ولم تسكب السماء منها ماءها، حتى تموتون جوعا، فمن يأتيكم بالرزق إن أمسكه؟! فلن يأتي به أحد بعده.

ثم قال سبحانه: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١﴾، معنى ﴿بَل﴾ فهو: قد، و العتو فهو: العنود والتكبر، والإعراض عن الله والتحير، والنفور فهو: الإعراض والصدود وقلة الإقبال على الحق، والتمادي في الفسق.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾، يقول: يمضي على جهل، ومعنى ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ يقول: يمضي على جهل من أمره، ويعمل في غير صواب من عمله.

﴿أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾، ﴿يَمْشِي سَوِيًّا﴾ معناها: يمضي معتدلا مستويا، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معناها: على طريق مستقيم، أراد سبحانه: التمييز بين من يمشي مكبا على وجهه، ماضيا على الخطأ من فعله، مجنبا عن سبيل رشده، وبين من كان على هدى من ربه، وسبيلٍ من رشده، لا يخطئ في أمره، ولا يعرج عن سبيل حقه، فأخبر بذلك سبحانه أن من كان من أهل الضلالة والردى، هم كمن يمشي مكبا على وجهه في غير هدى، وأن من كان من أهل التقوى، كالآخر الذي يمشي على الصراط المستقيم والاستواء، وهذا مثل ضربه الله العلي الأعلى، يفرق به بين أهل الضلالة والهدى.

ثم أخبر سبحانه بالدلائل عليه، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، معنى ﴿قُلْ﴾: أخبر وأنذر وكلم وبيّن، أن الله هو الذي أنشأكم، ومعنى ﴿أَنشَأَكُمْ﴾ أي: هو خلقكم وأنبتكم، وفطركم وأوجدكم، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾، معنى ﴿جَعَلَ﴾ أي: ركب ربكم ﴿لَكُمُ﴾، أي: فيكم، يقول: خلق لكم السمع الذي به تستمعون، وهي الآذان التي بها تسمعون، والأبصار فهي: العيون التي بها تبصرون، والأفئدة فهي: القلوب التي بها تعقلون.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يقول: قليلا شكركم، على ما أوليناكم من ذلك وأعطيناكم.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فأمر سبحانه أن يحتج بذلك عليهم؛ إذ

هو فعلٌ فيهم من ربهم، ومعنى ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ فهو: أنبتكم وأخرجكم وأوجدكم، وخلقكم وثبتكم في الأرض﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يقول: إليه ترجعون بعد موتكم، في يوم حشركم، وحين وقت بعثكم.

ثم أخبر سبحانه بما يقول الكافرون، ويتداعا به المكذبون، فقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، معنى ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هو: يلفظون ويتكلمون، ويمترون ويسألون، ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: متى هذا الوعد الذي به توعدوننا؟! وبأسبابه تخوفوننا؟! انكارا منهم لوعد الله ووعيده! وقلة إيمان بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: تقولون إئتوا به إن كنتم من الصادقين، معنى إن كنتم من الصادقين أي: إن كنتم من الوافين بوعدكم، المحقين في قولكم.

ثم أمر نبيئه صلى الله عليه وعلى آله أن يرد العلم في ذلك إليه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، فمعنى ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: علم غيب ما تستعجلون به، وتكذبوننا في ذكره، عند الله إذا شاء أنزله، وإذا شاء أمسكه، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فمعنى ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: محذر معذر، ﴿مُّبِينٌ﴾ معناها: بيِّن القول، ظاهر الإعذار، مبين للحق من الله، مبلغ لرسالات الله، لا آتيكم بعذاب، ولا أصرف عنكم عقابا، ولا عن نفسي، أصرف ما أرادني به ربي، وإنما أنا رسول من رسله أبلغ ما أمرني به.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾، معنى ﴿فَلَمَّا﴾ أي فهو: حين، ﴿رَأَوْهُ﴾، فهو: أبصره وعاينوه، ﴿زُلْفَةً﴾ فهو: معاينة مقاربة، ومداناة مواجهة، ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ معنى ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ أي: اسودت، ومعنى اسودت فهو: نزل بها السوء، وحل بها، وعاينت وواجهت ما كانت به مكذبة، ومعنى ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

هم: الكافرون في أنفسهم، لا أن السوء نزل بالوجوه دون الأبدان، بل الوجوه والأبدان، وسائر أعضاء الإنسان. وفي ذلك ما تقول العرب في أشعارها:

إني بوجه الله من شر البشر أعوذ من لم يعذ الله دمر[1]

فقال: بوجه الله، وإنما أراد: الله، كذلك قوله سبحانه: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: سيء الذين كفروا، أي: نزل بهم السوء والبلاء، عند معاينتهم للعذاب والشقاء، ومن ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝﴾ [الرحمن:٢٧]، أراد بقوله سبحانه: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ أي: يبقى ربك، فأخبر عز وجل أن كل شيء هالك إلا ربه تبارك وتعالى، فأراد بقوله: ﴿إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص:٨٨]: إلا هو، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فهم: الذين كذبوا وأساءوا وظلموا وعتوا، واعتدوا وعندوا.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝﴾، فهذا قول من ملائكة الله لهم، وتوقيف منهم صلوات الله عليهم، للمكذبين على ما كانوا به يكذبون، من وقوع الوعد والوعيد، وما كان في ذلك من أخبار الواحد الحميد، فقالت لهم ملائكة الله المكرمون: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝﴾ [الأنبياء:١٠٣]، ومعنى ﴿تُوعَدُونَ﴾ فهو: تخبرون وتعلمون، وتخوفون به وترهبون.

ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم ما يقول، ويحتج عليهم بما ثبت في القول، فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝﴾، يريد بقوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ هو أي: أخبروني وأفهموني، كيف

---

(١) لم أقف على هذا البيت.

القول عندكم إن أهلكني الله ومن معي أورحمنا، فله القدرة علينا، فماذا عليكم في ذلك أولكم؟! وما يضركم أو ينفعكم؟! بل هذا ما لا يضركم ولا ينفعكم، أي: ذلك كان من عند ربنا فينا، ولن يكون منه إلينا، غير الرحمة والرأفة، والفضل والإحسان والمنة والعاطفة، ولكن أخبروني ونبؤني من يجيركم أيها الكافرون من عذاب أليم إذا واقعتموه؟! في يوم حشركم وعاينتموه؟! فلن تجدوا لأنفسكم مجيرا من الله، ولا ناصرا من دون الله، فهذا معنى قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾، ومعنى ﴿يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهو: يمنع الكافرين، ويدفع عنهم العذاب في يوم الدين.

ثم أمره صلّى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم ما أمره به من التسليم والإقرار به، والتوكل عليه والإخلاص له، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾، معنى ﴿قُلْ﴾ هو: كلمهم وانطق لهم، واحتج عليهم وبيّن لهم، أن الذي يجير ولا يجار عليه هو الرحمن، ذو المن والإحسان، وإنا به آمنا، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ يريد: آمنا بأمانه أنفسنا من عقابه، باتباع طاعته، والإعراض عن معصيته، ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يقول: وعليه اتكلنا، ومعنى اتكلنا فهو: عليه اعتمدنا، وبه اكتفينا، لا نريد غيره، ولا نتوكل على سواه، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعرفون وتفهمون، وترون وتوقنون، ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: من هو في باطل من أمره، وحسرة من صنعه، وفساد من دينه، أنحن أم أنتم؟! والمبين فهو: الظاهر المستبين، الواضح للمتوسمين.

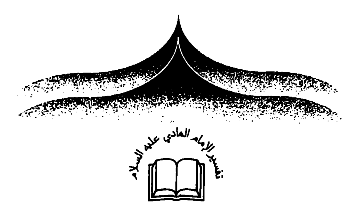
ثم أمره صلى الله عليه وعلى آله بتوقيفهم على ما هو عليهم حجة، مما تبين له فيه القدرة، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ۝﴾، معنى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ هو: قل ما تفعلون إن أصبح ماؤكم غورا؟! يعني:

إن غار ماؤكم في الصباح، والصباح فهو: أول النهار عند ادبار الليل وخروجه، فيقول: إن غار ماؤكم في وقت الصبح فأصبحتم لا ماء لكم، ومعنى ﴿غَوۡرًا﴾ أي: غار ذاهبا مغيبا في الأرض سائحا، ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ﴾ يقول: فمن يجلب لكم ماء، ويأتيكم به، ويرده في بياركم وأنهاركم، ﴿مَّعِينِۭ﴾ فالمعين فهو: الظاهر، فيقول سبحانه: إن غار ماؤكم وذهب، فمن يأتيكم بماء غيره، هل تعلمون أحدا يأتيكم به غير الله؟! وساقيا يسقيكم الماء غيره سبحانه؟! الذي ينزله من السماء إلى الأرض، فيسكنه فيها رزقا لكم، وحياة لكم ولأنعامكم، أفلا تعقلون وتفهمون؟! ما به يحتج الله عليكم وتسمعون؟! مما ترونه بأعينكم، وتوقنون به بقلوبكم، وتفهمونه بعقولكم، من الدلائل في كل ما ذكر ودل عليه تبارك وتعالى رب العالمين، وتقدس أحكم الحاكمين.

٣٥٠) وسألت عن قول الكافرين في يوم الدين: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ [الملك:١٠]؟

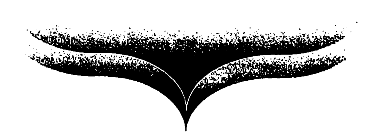
فمعنى ذلك من قولهم، فهو: لو كنا سمعنا لله ولرسوله وأطعنا، أو كنا عقلنا عن الله ما به أمرنا، ما كنا من المعذبين، ولا كنا من أصحاب السعير، بل كنا عند الله لو فعلنا ذلك من المثابين، وبنعمته وكرامته من الفائزين.





تفسير

سورة القلم





تفسير سورة القلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾، هذا قسم من الله سبحانه بالنون والقلم ومايسطرون، على أن رسول الله غير مجنون، كما يقول الفاسقون، ونسب إليه المكذبون، فأقسم الله بالنون، والنون فهو: الحوت، وما أحسب - والله أعلم - أن الله أقسم في هذا الموضوع بنون غير نون يونس النبي صلى الله عليه الذي التقمه، ولبث في بطنه حتى أراد الله تخليصه فخلصه، فأقسم الله به سبحانه تنبيها على عجيب ما جعل فيه وركبه، وقدر له وسبب من التقامه ليونس رسول الله صلى الله عليه، ومكثه في بطنه حيا سويا، طول ما مكث في جوفه مستجنا، فنبه سبحانه على عجيب ماكان من قذفه له، عند ارادة الله لقذفه، فلما أن كان من تدبير الله عز وجل لذلك كله في يونس صلى الله عليه، وأمره بالحوت في سببه [1]، أقسم الله سبحانه في هذا الموضع به [2] تنبيها على عجائب ماكان فيه من قدرته.

وكذلك أقسم بالقلم، تنبيها منه لجميع الأمم، على ما فعل فيه وَرَكَّب، وهدى الخلق إليه وسبَّبَ، من قطع القلم وبَرْيِه، وشقه وقطعه، ومحكم ما هداهم إليه من تدبيره، وَفَطَّنَهم سبحانه من تقديره، حتى قدروه بقدرة الله تقديرا، ودبروا أحكامه بهداية الله لهم تدبيرا، حتى صلح بعد التقدير، والتأم بعد الإحكام والتدبير، فصار

---

(١) في (أ) و (ج): وسببه.

(٢) سقط من (ج): به.

سببا لما يسطر ويكتب، ويبيّن في الصحف من كل ما سبب، فنبه الله سبحانه جميع العالم، على عظيم ماألهمهم له من تدبير القلم، وعلى عجيب ما ألهم الخلق من أمره، وهداهم إليه من تدبيره، حتى صلح لما جعل له، لأن آيات القلم وفعل الله فيه، وما هدى ودل الخلق عليه، فعل عجيب أمره، ولطفٌ ظاهر نوره.

ألا ترى كيف يسطر به مالايستغنى عنه من العلامات والدلالات، والأسرار الخفيات، والأخبار الكافيات، حتى يبلغ بها الحاجات، ويعلم بها الإرادات، ويثبت بالقلم في الصحف كل حاجة بعدت أوقربت، تبلغ بعيد البلاد وقريبها، وقاصيها ودانيها، مع ماينال بالقلم من غير ذلك من تنفيذ حساب العالمين، ومايحفظ به من التداين بين المتداينين، ومايسطر به من كتاب رب العالمين، ويثبت به من أحكام أحكم الحاكمين، ويكون به أثبت علم المتعلمين والعالمين، وبسببه، وما ذكرنا من ألوانه وأسبابه، وحكمه وآياته، ما مثل الله للعباد حفظه لأفعال عباده، صغيرها وكبيرها بما يكتبونه بالقلم في صحفهم، ويثبتونه بالقلم عندهم في كتبهم، فيكون عندهم مذكورا لا ينسى، وثابتا صحيحا أبدا أبدا، فقال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝﴾[القمر:٥٢]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝﴾ [الانشقاق:٧]، وقال فيما حكى من محاورة موسى وفرعون حين قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝﴾ [طه:٥١]، فأجابه في ذلك موسى صلى الله عليه عن العلي الأعلى، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝﴾ [طه:٥٢]، فَمَثَّل له حفظ الله سبحانه لأمرها، وعلمه بصورة شأنها، وماتقدم من فعالها، بما يكون في الكتاب الذي لاينسى، الذي هو غاية الحفظ عندهم، وأكثر مابه يحفظون

أسبابهم، فهذا كله من عجائب تدبير الله في القلم، وما هداى [1] إليه فيه من جميع الأمم، فلذلك أقسم به الرحمن، تنبيها منه لجميع الإنسان، على ماكان منه فيه من المن والإحسان.

قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ ۝﴾، فأقسم سبحانه بما يسطرون من القرآن العظيم، الذي يكتبون ويقرأون، وقد يمكن أن يكون معنى قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ تنبيها لهم على النعمة، وجليل أثر القدرة، فيما دبره من حروف الهجاء، من الألف واللام والواو والياء، وغير ذلك من الأشياء، وغير ذلك من التسعة والعشرين حرفا، التي جعلت للكتاب كله حكما ومعنى، فنبههم سبحانه على ما هداهم إليه منها، وعلمهم إياه من تدبيرها، وتقطيع ما تقطع منها، وتوصيله ما يوصل فيها، حتى تجتمع الأحرف في الاسم الواحد المسمى، ويفترق في غيره من الأسماء، فيأتي كل شيء على معناه، ويستوي كل حرف على أصله ومستواه، ففي هذا - لَعَمْرُ من عقل واهتدى - دليل على من إليه هدى، ومبين لقدرة من قدّره، وشاهد على حكمة مَن دَبَّرَه.

فإن يكن أراد سبحانه بقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما يقولون ويجعلون، من تلفيق حروف الكتاب، ويؤلفون، ففي أقل من هذا ما أقسم الله به ودل عليه، ونبه أهل الجهل به على معانيه، احتجاجا من المقسم به على الشاك في قدرته، الضال الفهم عن حكمته.

وإن يكن سبحانه أراد بقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: كتابه الذي يقرأون، الذي ذكره، وأقسم به في أول سورة ﴿وَٱلطُّورِ ۝﴾، حين يقول سبحانه: ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝﴾، فهو: الكتاب الذي يسطرون، وهو

(١) في (ج): هداهم.

القرآن الحكيم الذي يقرأون، وكلا الأمرين يخرج في المعنى، ويصح في قلب من كان ذا هدى، وقد أتوهم - والله أعلم - أن الذي أقسم به سبحانه لجليل أمره وعظيم خطره، وماجعل الله من برهانه وأمره، وحججه على خلقه، وحلاله وحرامه، وما تعبد به سبحانه جميع خلقه وعباده، فأقسم سبحانه بالنون والقلم وما يسطرون، من كتاب الله العظيم الذي يكتبونه، وما نبيئه صلى الله عليه وعلى آله بنعمة ربه بمجنون، ومعنى قوله: ﴿مَآ أَنتَ﴾، أي: ما أنت يا محمد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يريد: بكرامة ربك، ومدافعته لكل سوء عنك، وربك فهو: خالقك ومالكك، ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ يقول: ما أنت بزائغ العقل، ولا مأفون، ولا بمخلط مجنون.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، يقول: لك عند ربك أجرا، والأجر فهو: الثواب والعطاء، على ما صبر عليه من المحن والبلاء، ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ فالممنون هو يقول: غير مستكثر لك ولا ممنون عليك، يعني: بالذكر له في يوم الدين والإستكثار له، بل هو قليل لك عندنا، وإن كثر في عينك وعين غيرك، صغير ما أعطيناك عندنا، وإن كان عظيما عندك، هذا معنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فهو: ما جعله الله عليه من الطبع الكريم، والقلب البر الرحيم، والأخلاق الحسنة، والطبائع الكريمة، من الصبر والتجمل، والعفو والتحمل، وغير ذلك من الأخلاق التي جعلت فيه، وامتن الله سبحانه بها عليه، التي يعجز عن يسيرها غيره، ولايحمل القليل منها إلا مثله.

والخُلق فهو: ما يتخلق به العباد بينهم، وتخلُّقهم فهو: فعلهم، وفعل الله في خُلق نبيئه صلى الله عليه وعلى آله فهو: عونه وتوفيقه وتسديده. لكل جميل من الأخلاق، فلما أن كان العون في ذلك من الواحد الخلاق، جاز أن ينسب إليه على طريق مجاز الكلام في قول القائلين، لا أن شيئا من أفعال رسول الله عليه السلام

فعل لرب العالمين، وقوله: ﴿خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فهو: خلق جليل لا يقدر عليه غيرك، ولا يفعله سواك.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝﴾، معنى ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يقول: سوف ترى ويرون، صدق ما تُخبَر به ويُخبَرون، ونذكر لك ونعدك ونعدهم، ونخوفك ونخوفهم، ونشرح لك من أمر القيامة ونشرح لهم، من العذاب والثواب، ألا تسمع كيف يقول: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝﴾، يقول: فستعلم ويعلمون ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ فهو: المعذب المغبون، ومعنى ستبصر ويبصرون هو: تعلم ويعلمون، والعرب تجعل تبصر في معنى، تعلم، وتعلم في معنى تبصر، تقول العرب: فلان بصير بالحلال والحرام، تريد: عالم بهما، فَهِمٌ بأسبابهما، وتقول: بصير بالشعر، بصير بالنحو، تريد بقولها: بصير بها، أي: عالم بأمرهما، واقف على حدودهما، فأخبر الله سبحانه نبيئه صلى الله عليه وعلى آله أنه سيعلم وأنهم سيعلمون في يوم الدين، من يكون من المعذبين.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝﴾، فأراد سبحانه، وجل جلاله، أنه أعلم بمن ضل عن سبيله، ومعنى ﴿ضَلَّ﴾ فهو: عدل وترك، و﴿سَبِيلِهِۦ﴾ فهو: طريقه ودينه، التي جعلها لخلقه دينا وسبيلا، ومتعبدا يعبدونه، ويثبتون عليه، لا يعدلون عن قصده، ولا يميلون عن محجته، ثم أخبر أنه أعلم بالمهتدين، والمهتدون فهم: الثابتون على سبيله، الذي ارتضاه لخلقه.

ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله عن المخافة في ذاته لوعيد المكذبين، فسمى المخافة لهم طاعة لمن خافهم، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّواْ

لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾، معنى ﴿تُطِعِ﴾ هاهنا في هذا المكان، بأوضح الحق والبيان، فهو: لاتخف وعيدهم إياك، فتترك شيئا مما أمرنا لك به من الجهر بدعوتك، والإظهار لشرائع دينك، والإعلان بعبادة ربك، متاقاة [1] لهم، ومخافة من شرهم، والمكذبون الذي نهى الله عن خوفهم، فهم أهل التكذيب لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله الذي جاء به عن الله خاصة.

﴿لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ يقول سبحانه: ودوا لو تدهن لهم، في الإتقاء لمخافتهم، إما برهبة، وإما بمصانعة [2]، فتترك شيئا مما أُمرت بإظهاره فتخفيه، مخافة لهم ومحاذرة أن تبديه، فيدهنوا هم بأكثر من ذلك وأوفر، يقول: ودوا لو تصانعهم في شيء فيصانعوك في أكثر منه، وتداريهم في يسير فيداروك بأعظم من مداراتك لهم، ليوقفوك بذلك عن مباينتهم، ويحجروك بالمداراة والمداهنة على مكاشفتهم، فأخبر الله سبحانه أنهم يودون بأجمعهم لو تركت شيئا من مباينتهم.

ثم أمره: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾، والطاعة هاهنا التي نهى الله عنها لكل حلاف مهين، فهو: أيضا ما ذكرنا من المخافة من الحلاف المهين، في شيء من وعيده، وإبراقه وإرعاده عليه، وحلفه وأيمانه فيه، فنهاه صلى الله عليه وآله من مخافته، أوترك شي من اظهار أمر الله لمراقبته، وسمى تركه لشيء من ذلك لخوف شيء من وعيده طاعة منه له، والحلاف فهو: الكثير الأيمان بالله، الذي لا يفي بشيء منها، ولا يقوم بحد من حدودها، والمهين فهو: الذليل الحقير.

﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾﴾، فالهماز هو: الذي يهمز الإنسان من خلقه، ومعنى

---

(١) متاقاة: من التقية.

(٢) في (ج): رهبة وإما مصانعة.

يهمزه أي: يؤذيه بلسانه ويتناوله، ويقع فيه من ورائه وينتقصه، ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ معنى ﴿مَّشَّآءِۭ﴾ أي: مشاء بين الناس، ﴿بِنَمِيمٖ﴾ بالنمائم، والمشي بها فهو: المجيء إلى ذا بالخبر عن ذا، والمجيء من ذا إلى ذا بالخبر، ليوقع بينهم الوحشة والبلاء، والعداوة والأذى، ومعنى ﴿بِنَمِيمٖ﴾ فهو: ببلاغه وخبره، والنميمة فلا تكون خاصة إلا في كل خبر قبيح، يوحش بعض الناس من بعض، ويفسد المودة بينهم، ويوقع الوحشة في قلوبهم، فما كان من الأخبار المنقولة بفعل هذا فهو: نميمة، وناقلها يدعا: نماما، ومالم يكن من الأخبار يوقع الوحشة، ويوجب الفرقة، ويحدث الهجرة والبغضة، فلا ينتظمه اسم النميمة، ولا يدعا حامله وناقله: نماما.

﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾، يقول فهو: الممتنع من كل خير، الداخل في كل ضير، ﴿مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فالمعتدي هو: الظالم الغوي، ﴿أَثِيمٍ﴾ فهو: الآثم الردي.

﴿عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، العتل فهو: الفدم من الرجال، في الخلق والفعال، الذي لا فهم له بما يقول أو يفعل، وَلا معرفة له بما يأتي وما يعمل، الذي لا يميز بين الأمور في معانيها، ولا يعرف حسانها [1] من مساويها، ولا يفعل شيئا بتمييز أصلا، ولا يأتي من الخير إلا ما عتل عليه عتلا، لفدامة خلقه، وقلة تمييزه لنفسه. ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ يقول: بعد هذه الخصال التي فيه كلها هو زنيم أيضا، والزنيم فهو: الذي له في خلقه زنمتان يبين بهما من غيره للمبصرين، يكونان في حلقه متدليتين، يعرف بهما، ويستدل على معرفته بذكرهما، كزنمتي الشاة التي يكونان في حلقها، تذكر وتوصف بهما.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾، معنى ﴿أَن كَانَ﴾ فهو: إذ كان، ﴿ذَا مَالٖ

---

(١) في (أ) و (ج): حسناها.

﴿وَبَنِينَ﴾ فمعنى ﴿ذَا﴾ فهو: صاحب مال، ﴿وَبَنِينَ﴾ والبنون فهم: الذكران من الأولاد.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾، يقول: إذا قرئت عليه آياتنا وذكرت عنده، ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ وأساطير الأولين فهي: أحاديث الأولين، وأحاديث الأولين فهي: أقاويل المكذبين، وأسمار المتحدثين، فنسب هذا الزنيم آيات الرحمن الرحيم، ووحي العلي الحكيم، وماجاء به من النور، على لسان نبيه البشير النذير، إلى الأسمار والباطل، والقول القديم الحائل، فأخبر الله تبارك وتعالى أن من كان ذا مال وبنين، كان الواجب عليه الحمد والشكر لله رب العالمين، دون ما يأتي به الوليد بن المغيرة اللعين [1]، من الكفر بآيات الرحمن، والجحدان لمفصل القرآن، فجعل الشكر على ما أولى، والمجازاة على ما أعطى، تكذيبا وكفرا، وعنودا عن الله وشرا.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾، فوسم الله على خرطومه هو: ما وسمه الله به من ذكره في القرآن وذمه، بما تسمع في هذه الآيات من ذكره، فجعل الله سبحانه ماشرح من أخباره في هذه الآيات، وفسره من صفته وحاله في هذه المحكمات، وسما ودلالات يعرف بها الذكر والوصف في كل الأسباب، كما يعرف بالوسم كل موسوم من الدواب، وإنما ذكر الله الخرطوم دون غيره؛ لأنه شيء لا يستتر بثوب، ولا يستتر عن المتوسمين؛ لأن الوجه بارز أبدا للناظرين، والخرطوم فهو: الأنف وما والاه، وما كان منه وداناه.

ثم ذكر سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، ذكر من سار إلى بدر من قريش لقتال النبي صلى الله عليه وآله، وما طمعوا به من الأمر العظيم فيه، فصرف الله عنه

---

(١) أخرج القصة باختصار أبو نعيم في الدلائل من طريق مجاهد، عن ابن عباس. الدر المنثور ٨/ ٢٣٠.

كيدهم، وأمكنه منهم وأذلهم، ثم ذكر ما فتنهم به وبلاهم، من ستر أمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله عنهم، وما كان من إيجابه من النصر له عليهم، فلم يعلموا بشيء من أمره، ولم يحسبوا مانزل بهم من ربه، فكانوا مقتدرين في أنفسهم على أخذه، وأخذ من كان معه لما رأوا قلتهم، فدخل في قلوبهم الطمع فيه وفي أصحابه، اقتدارا وكفرا وطمعا فيما لن ينالوه، ولن يطيقوه ولن يبلغوه، فقال أبو جهل بن هشام اللعين لمن معه من أوباش الكفرة الملاعين: لا تقتلوهم وخذوهم فأوثقوهم واربطوهم، فتكون تلك فضيحة على محمد صلى الله عليه وعلى آله وعليهم، فيدخلون به مكة أسيرا، فذلك أفضح لهم وأبلى(١).

فلم ينالوا ما أرادوا، ولم يبلغوا ما أملوا، وقضى الله أمرا كان مفعولا، فأنفذ وعده لنبيه صلى الله عليه وعلى آله انفاذا، وحباه ونصره عليهم فقتل من خيارهم سبعين، وأسر من أعداء الله سبعين، وَغَنَّمَهُ الله غنائمهم، وَفَلَّ حدهم، فولت فضلتهم خائبة حاسرة، منهزمة هاربة طائرة.

فَمَثَّلَ الله سبحانه ما كان من اقتدارهم وبغيهم على نبيئه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، باقتدار أصحاب الجنة الذي أقسموا ليصرمنها مصبحين، وهذه الجنة فجنة من جنان الدنيا، كانت باليمن على اثني عشر ميلا من صنعاء، صارت بواد يقال له: احربي(٢)، فلما دنا حصادها، وأينعت ثمارها، وحسنت حالها، أقسم أهلها

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن جريج، أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذا فاربطوهم في الحبال، ولا تقتلوا منهم أحدا ... الدر المنثور ٨/ ٢٥٠.

(٢) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ قال: هي أرض باليمن يقال لها: ضرء، وإن بينها وبين صنعاء ستة أميال. الدر المنثور ٨/ ٢٥١.

ليصرمنها في غدهم مصبحين، اقتدارا على صرمها من الصارمين، فلم يستثنوا في قسمهم، فكان ما ذكر الله من أمرهم من ذهاب جنتهم، حين طاف عليها طائف من ربهم، فهلك ما فيها من ثمرها، فأصبحت خواء من كل ما كان فيها. فذكر الله سبحانه أن أباجهل وأصحابه نزل بهم في اقتدارهم على ماكان من جنتهم ومن ثمارهم، فنزل بكفرة قريش الفسقة المقتدرين، ما نزل بالإقتدار بأهل الجنة المقسمين.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝﴾، معنى ﴿بَلَوْنَـٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم بابتلائهم، لنعلم هل يرجعون عن اقتدارهم، فلم يرجعوا فأخذهم بأسنا بما عصوا، وهؤلاء المبتلون فهم: قريش الكافرون.

قوله: ﴿كَمَا﴾ فمعناها: مثل، وقوله: ﴿بَلَوْنَـٰهُمْ﴾ أي: اختبرنا، ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فهم: أصحاب صادٍ، وهي الجنة التي أقسم أهلها ليصرمنها، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ يقول: إذ حلفوا، ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ يقول: ليقطعن ثمرها، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ فهو: صباحا منورين، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ يقول: لم يقولوا: إن شاء الله، فيثبتوا بذلك القدرة لله، فلما أن لم يستثنوا في قسمهم، وبغوا في ذلك وطغوا، طاف عليها ما ذكر الله من أمره، حين يقول سبحانه:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝﴾، معنى ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي: واقعها ونزل بها، ﴿طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ والطائف فهو: الأمر الذي نزل بها وعمها، وطاف فيها حتى أبادها وأفناها، وتركها كأن لم يكن فيها ثمر ولا خير، ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ فمعناها: وهم راقدون، أي: في الليل.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝﴾، يقول: أصبحت في ذهاب ما فيها، وبَوَاد [1] ثمرها، لما نزل بها، من طائف ربها ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ والصريم فهو: كالشيء الذي قد صرم فذهب من أرضه، وخلت الأرض من بعده.

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ۝﴾، معنى ﴿تَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾ أي: تصايحوا وتداعوا عندما أصبحوا، وجاء وقتهم الذي فيه اتعدوا. ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝﴾، فتصايحوا وتداعوا بهذا اللفظ، ﴿ٱغْدُواْ﴾ أي: انهضوا في غداتكم، واذهبوا إلى حرثكم فاصرموا، والحرث فهو: الموضع الذي يكون فيه الزرع، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي: إن كنتم لزرعكم قاطعين.

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝﴾، يقول معناها: فانطلقوا أي: مضوا، وذهبوا وساروا ونهضوا، ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يقول: وهم يتشاورون، ويُغبون كلامهم ويتناجون، ويخفون عن غيرهم ما يقولون، ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝﴾، يقول: ويتناهون عن إطعام المسكين، لا يقربنهم، ظَنًّا منهم بما في جنتهم من ثمرهم، قوله: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ يقول: لا يقربنها ولا يدخلن عليكم فيها مسكين، والمسكين فهو: السائل لهم، الطالب ما عندهم.

أن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝﴾، معنى ﴿وَغَدَوْا﴾ أي: خرجوا وبكروا، ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ فالحرد هو: القطع، يقول: على قطع الثمر، ﴿قَٰدِرِينَ﴾ معناها: مقتدرين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝﴾، معنى

---

(١) بواد: من الإبادة.

﴿رَأَوْهَا﴾ أي: عاينوها وأبصروها، وصاروا فيها وأتوها، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: لمخطون، ليس هذه ضيعتنا، ولا هي بجنتنا، هذه جنة قد هلكت، وذهب ما فيها فصرمت، وجنتنا غير هذه الجنة، وليس هذه الجنة بتلك الجنة، ثم تعرفوا حدودها، وفهموا معالمها، فأيقنوا أنها جنتهم، وعلموا أنها ضيعتهم، فقالوا من بعد ذلك: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بل هي ضيعتنا، ولكنا محرومون لثمرها، ممنوعون مما كان فيها، قد نزل بها أمر الله فأهلكها، ولم ينزل ذلك من الله إلا عن جرم كان منا، وخطأ كان من فعلنا، فحرمنا ماكان قد أعطاناه، وصرف عنا ما كان قد رزقناه، فصرنا لذلك محرومين، ومنه بالخطيئة ممنوعين.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝﴾، فأخبر أنه قد كان قال لهم عند وقت ما أقسموا: سَبِّحُوا ربكم واذكروا، واثبتوا القدرة له واستثنوا، فلم يفعلوا في ذلك الوقت ما أمرهم أوسطهم، ولم يحسبوا أنه ينزل بهم ما نزل بهم من عقوبة ربهم، عند ظلمهم وبغيهم، فرجعوا باللوم على أنفسهم، وأبدوا ما كانوا يخفون من تسبيحهم، خوفاً من أن ينزل بهم في أنفسهم، ما هو أشد مما نزل بهم في جنتهم.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝﴾، معنى ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: تعالى ربنا، وتنزه خالقنا، وجل سيدنا عن فعلنا، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يقولون: نحن كنا ظالمين لأنفسنا فيما فعلنا، فأقروا بذنبهم، وشهدوا على أنفسهم بظلمهم، ثم أقبلوا يتلاومون، ويختصمون ويتعاذلون، فيما كان من تفريطهم في أمرهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝﴾، معنى ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: قصد بعضهم بعضا بالتلاوم والعذل، فيما كان من خاطئ الفعل،

﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾ فهم: يتعاذلون، ويقبحون أفعالهم، ويعجزون آراءهم.

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾، معنى ﴿قَالُواْ﴾ أي: هم تكلموا به وأظهروا، معنى ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ فهو: يا ويحنا من هذا الأمر، الذي أدخل الويل علينا، والويل فهو: الغم، والطويل من الهم، ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ يقولون: المعنى الذي أدخل الويل علينا، هو ما كان من طغياننا، والطاغون، فهم: العتاة الباغون، الذين لم يستسلموا في يد الله، ولم يلقوا بأمرهم كلهم إلى الله، فأقروا بطغيانهم، وعلموا أنه كان سبب هلاكهم.

ثم رجعوا إلى الواجب، والحق المصيب الراتب، قالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾، معنى ﴿عَسَىٰ﴾ أي: لعل، ﴿أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا﴾ معناها: أن يخلف علينا ويبدلنا، بدلا من الذي ذهب منا من جنتنا، ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ معنى ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ فهو: أفضل منها، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ معناها: راجعون طالبون، قاصدون سائلون، ومعنى ﴿إِنَّآ إِلَىٰ﴾ فهو: من ربنا، أي: إنا من ربنا للبدل والعوض سائلون.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك منه عذاب لهم، ونقمة أنزلها بهم على ما كان من عتوهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، معنى ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ يقول: كذلك نعذب بالإنتقام، من أردنا عذابه من الأنام، في الدنيا بذهاب مانذهبه من أموالهم، وانتقاص مانتقصه من أنفسهم وثمارهم، فجعل ماينزل بهم من ذلك في الدنيا الفانية، عذابا أدنى دون عذاب الأخرة الباقية، وفي ذلك مايقول الله سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١].

ثم أخبر سبحانه أن عذاب الآخرة لمن عتى عن أمره، أشد وأعظم عليه مما ينزل به في حياته ونفسه، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يقول: أجل وأعظم وأخطر، والآخرة فهي: الدار التي أول أيامها يوم القيامة، ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لو كانوا يفقهون ويعقلون.

ثم أخبر سبحانه بما أعد للمتقين، وجعل سبحانه عنده لعباده المؤمنين، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾، والمتقون فهم: المتقون لمعاصي الله الخائفون، ومعنى متقين لمعاصي الله فهم: التاركون لها، والخائفون من الله العقوبة في ارتكابها، تقول العرب: اتق فلانا، أي: احذر منه وخفه. وتقول العرب: اتقوا السلطان. أي: خافوه، ولا تفعلوا شيئا يجب عليكم فيه العقوبة، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فمعناها: عند معادهم إلى ربهم، ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فهي: جنات الخير المقيم، من الشهوات والمطاعم والمناكح والمشارب والبشارات.

ثم أخبر سبحانه أنه لن يجعل مسلما كمجرم، في الحال والحكم، فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾؟! معنى ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ يقول: أنسوي ونعدل في الحكم والفعل بين من كان مسلما ،؟! ومن كان مجرما؟! هذا ما لا يكون أبدا !! ولا يعرف من فعلنا وعدلنا !! بل لكلٍّ دار، وجزاء وقرار، والمسلمون فهم: المؤمنون بالله، المسلمون لأمر الله، والمجرمون فهم: المعتدون الظالمون لأنفسهم، المجترون على الله ربهم، الذين أجرموا في فعلهم، وعصوا في صنعهم.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟! معنى ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي: ما بالكم؟! ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يقول: كيف حكمكم بهذا؟! وكيف القول فيه عندكم؟! أفمن فعله فعل المحسن كالمسيء؟! والضال كالمهتدي؟! إن كان هذا صوابا ماضيا، وحكما بالحق

عندكم جاريا، فلن تروا هذا حقا أبدا، ولن تسموه حكما ولا عدلا، إن أتى وكان من أحد منكم، فكيف تسمونه؟ أو تتوهمون أنه يكون عند ربكم !

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾؟! يقول: كتاب منا إليكم وعليكم، فيه ما زعمتم، من أن المجرم، كالمسلم عند الله في الحكم، فأنتم ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾، ومعنى ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ فهو: فيه تقرأون هذا الحكم، وهذا الأمر الذي تفكرونه، وتجعلونه وتشرحونه وتسطرونه.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾، يقول: إن لكم في هذا الكتاب إن كان عندكم بحق وصدق ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، ومعنى ﴿تَخَيَّرُونَ﴾ فهو: تحبون وتريدون، وتبغون وتشاءونن.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، معنى ﴿أَيْمَٰنٌ﴾ فهي: عهود، يقول: أم لكم علينا، ومعنى ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ فهي: لازمة واجبة إلى يوم القيامة، يقول: ثابتة علينا لكم، ومعنى ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فهو: في يوم القيامة، فقامت (إلى) مقام (في)، يريد: أم لكم أيمان علينا ثابتة في يوم القيامة بالوفاء لكم، بهذا الذي ذكرتم، من أنكم غير معذبين، وأن المجرمين منكم في الحكم عندنا كالمسلمين، وأنهم سواء في الجزاء يوم الدين.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ يقول: إن كان الأمر منا عندكم كذلك، وكان لكم علينا عهد في ذلك، فالحكم حكمكم، والقول قولكم، ولكم ذلك علينا ما أردتم مما تشاءون وبه تحكمون، مما تريدون وتحبون.

ثم قال سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله انكارا عليهم في فعلهم، وتكذيبا لهم في قولهم.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾؟! يريد بقوله: ﴿سَلْهُمْ﴾ أي: ناظرهم، وافتش أمرهم واستخبرهم أيهم بهذا القول و الخبر زعيم؟ معنى ﴿زَعِيمٌ﴾: كفيل ضامن، يضمنه لهم حتى يأتيهم من قِبَلِه ما أحبوا، وتكون كفالته به آتية على ما طمعوا، فلن يكون ذلك أبدا، ولن يتزعم به منهم صغير ولا كبير أصلا.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾؟! معنى ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ هو: هل فيهم؟! وهل هي: معنى أم، وقامت ﴿لَهُمْ﴾ مقام (فيهم)؛ لأنها من حروف الصفات، أراد سبحانه هل فيهم لنا شركاء شاركونا في خلقهم؟! وأعانونا على رزقهم فنازعونا في أمرهم؟! فضمنوا لهم غير ما ضمنا! ووعدوهم غير ما أوعدنا! فكان لهم حكم سوى حكمنا، وأمر فيهم ماض كأمرنا! ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ يقول سبحانه: فليأتوا بهؤلاء الشركاء لنا فيهم، المنازعين لنا في أمرهم، الحاكمين بغير حكمنا في شأنهم. إذ حكمنا بأن المسلم عندنا خلاف المجرم، وحكم ما ادعوا من الشركاء فيهم، بأن المجرم كالمسلم، فليأتوا بهم حتى ينفذوا الحكم، ويمضوا الذي ادعوا منهم، ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فمعنى ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ هو: إن كانوا قائلين حقا، أومتبعين في ذلك صدقا، والذي قال الله فيهم: ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فإنها عنى المشركين من قريش وألفافها، وأهل مقالتها وأديانها، ممن ادعا هذا الحكم الفاسد الباطل، وقال بهذا القول الجائر العادل.

ثم أخبر سبحانه بما يكون في يوم الدين، من شدة الأمر على المكذبين، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾، معنى ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فهو: يكشف في ذلك اليوم عن أمر شديد هائل لأهله، نازل شره بمستأهله ومستحقه، والعرب تسمي الأمر الشديد: ساقا، تقول العرب: قامت الحرب على ساقها، تريد: أنها قامت على أمر

شديد أمره، وصارت إلى حال شديد ذِكْرُه، فيقول: يكشف للخلق في يوم الدين، عن أمر شديد هائل للعالمين. قوله: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، معنى ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ فهو: يدعون إلى إثبات حجة ظاهرة نيِّرة بأنهم كانوا من أهل السجود والإيمان، والطاعة لله والعرفان، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يقول: لا يستطيعون أن يثبتوا بباطل حجة، ولا أن يقيموا بأنهم كانوا من المطيعين لله بينة، فهذا أحسن ما يقال به في قول الله سبحانه: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وقد قال بعض من يتعاطى تفسير القرآن، معنى هذا الذي ذكر الله من السجود في الفرقان هو: دعاء من الله لهم في يوم الدين، إلى أن يسجدوا لرب العالمين، وأنه يمنعهم في ذلك اليوم بقَسُوٌ ويُبْسٌ يجعله في ظهورهم من السجود، حتى لا يستطيعون سجودا[1]. وهذا فيفسد عند من عقل، من معنيين:

---

(١) أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، والطبراني، والآجري في الشريعة، والدارقطني في الرؤية، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة، وينزل الله في ظلل من الغمام فينادي منادٍ يا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم وصوّركم ورزقكم أن يولي كل إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا ويتولى، أليس ذلك من ربكم عدلاً؟ قالوا: بلى، قال: فينطلق كل إنسان منكم إلى ما كان يعبد في الدنيا ويتمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا، فيتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويتمثل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير، حتى يمثل لهم الشجرة والعود والحجر ويبقى أهل الإسلام جثوماً فيتمثل لهم الرب عز وجل وجل، فيقول لهم: ما لكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس؟ فيقولون: إن لنا رباً ما رأيناه بعد، فيقول: فيم تعرفون ربكم إن رأيتموه؟ قالوا: بيننا وبينه علامة إن رأيناه عرفناه. قال: وما هي؟ قال: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فيكشف عند ذلك عن ساق فيخر كل من كان يسجد طائعاً ساجداً، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون

السجود فلا يستطيعون، ثم يؤمرون فيرفعوا رؤوسهم، فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى نوره دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدميه يضيء مرة ويطفأ مرة، فإذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام، فيمر ويمرون على الصراط والصراط كحدّ السيف دحض مزلة، فيقال لهم: انجوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الرجل ويرمل رملاً، يمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه يجر يداً ويعلق يداً، ويجر رجلاً ويعلق رجلاً، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد الذي أراناك. لقد أعطانا الله ما لم يعط أحداً، فينطلقون إلى ضحضاح عند باب الجنة فيغتسلون فيعود إليهم ريح أهل الجنة وألوانهم، ويرون من خلل باب الجنة وهو مصفق منزلا في أدنى الجنة فيقولون: ربنا أعطنا ذلك المنزل، فيقول لهم: أتسألون الجنة وقد نجيتكم من النار، فيقولون: ربنا أعطنا، حل بيننا وبين النار، هذا الباب لا نسمع حسيسها، فيقول لهم: لعلكم إن أعطيتموه أن تسألوا غيره، فيقولون: لا وعزتك لا نسأل غيره، وأي منزل يكون أحسن منه؟ قال: فيدخلون الجنة ويرفع لهم منزل أمام ذلك كأن الذي رأوا قبل ذلك عنده فيقولون: ربنا أعطنا ذلك المنزل، فيقول: لعلكم إن أعطيتكموه أن تسألوا غيره، فيقولون: لا وعزتك لا نسأل غيره، وأي منزل أحسن منه؟ فيعطونه، ثم يرفع لهم أمام ذلك منزل آخر كأن الذي رأوا قبل ذلك حلم عند هذا الذي رأوا فيقولون: ربنا أعطنا ذلك المنزل، فيقول: لعلكم إن أعطيتكموه أن تسألوا غيرهن فيقولون: لا وعزتك لا نسألي غيره وأي منزل أحسن منه؟ ثم يسكتون فيقول لهم: ما لكم لا تسألون. فيقولون: ربنا قد سألناك حتى استحينا، فيقال لهم: ألم ترضوا أن أعطيكم مثل الدنيا منذ يوم خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافها؟ فيقولون: أتستهزئ بنا وأنت رب العالمين؟ قال مسروق: فما بلغ عبد الله ذها المكان من الحديث إلا ضحك. وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدثه مراراً فما بلغ هذا المكان من الحديث إلا ضحك حتى تبدو لهواته، ويبدو آخر ضرس من أضراسه، يقول: الأسنان. قال: فيقول لا ولكني على ذلك قادر فاسألوني، قالوا: ربنا ألحقنا بالناس، فيقال لهم: الحقوا الناس، فينطلقون يرملون في الجنة حتى يبدوا لرجل منهم في الجنة قصر درة مجوّف فيخر ساجداً، فيقال له: ارفع رأسك، فيرفع رأسه فيقول: رأيت ربي، فيقال له: إنما ذلك منزل من منازلك فينطلق ويستقبله رجل فيتهيأ للسجود فيقال له: ما لك؟ فيقول: رأيت ملكاً، فيقال له: إنمنا ذلك

أما أحدهما: فإن هذا لعب وعبث وسبب، من معنى التفكه والطرب، أن يأمر آمر مأمورا بفعل شيء قد منعه من فعله، أو يصنع شيئا قد حال بينه وبين صنعه، بمانع لا يقدر معه عليه، ولا ينال معه الدخول فيه، فيقول له: افعله، وهو يعلم أنه لايقدر على فعله، فهذا استهزاء وجور، وتعبث بالمأمور، والله سبحانه فبريء من

قهرمان من قهارمتك عبد من عبيدك فيأتيه فيقول: إنما أنا قهرمان من قهارمتك على هذا القصر تحت يدي ألف قهرمان، كلهم على ما أنا عليه، فينطلق به عند ذلك حتى يفتح لهالقصر، وهي درة مجوّفة سقائفها وأغلاقها وأبوابها ومفاتيحها منها. قال: فيفتح له القصر فتستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمراء سبعون ذراعاً فيها ستون باباً، كل باب يفضي إلى جوهرة على غير لون صاحبتها، في كل جوهرة سرر وأدراج ونصائف، وقال: وصائف، فيدخل، فإذا هو بحوراء عيناء عليها سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء حللها كبدها مرآته وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفا عما كانت قبل ذلك، وإذا أعرضت عنه إعراضة ازداد في عينها سبعين ضعفا عما كان قبل ذلك، فتقول: لقد ازددت في عيني سبعين ضعفا ويقول لها مثل ذلك، قال: فشرف على ملكه مد بصره مسيرة مائة عام، قال: فقال عمر ابن الخطاب عند ذلك: ألا تسمع يا كعب ما يحدثنا به ابن أم عبد عن أدنى أهل الجنة ما له، فكيف بأعلاهم؟ قال: يا أمير المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، إن الله كان فوق العرش والماء فخلق لنفسه داراً بيده فزينها بما شاء وجعل فيها ما شاء من الثمرات والشراب، ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه منذ خلقها جبريل ولا غيره من الملائكة، ثم قرأ كعب ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٧] الآية، وخلق دون ذلك جنتين فزينهما بما شاء وجعل فيهما ما ذكر من الحرير والسندس والاستبرق، وأراهما من شاء من خلقه من الملائكة، فمن كان كتابه في عليين نزل تلك الدار، فإذا ركب الرجل من هل عليين في ملكه لم يبق خيمة من خيام الجنة إلا دخلها من ضوء وجه حتى إنهم ليستنشقون ريحه ويقولون: واهاً وهذه الريح الطيبة، ويقولون: لقد أشرف علينا اليوم رجل من أهل عليين، فقال عمر: ويحك يا كعب إن هذه القلوب قد استرسلت فاقبضها، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إن لجهنم زفرة ما من ملك ولا نبي إلا يخر لركبته حتى يقول إبراهيم خليل الله: رب نفسي نفسي، وحتى لو كان لك عمل سبعين نبيا إلى عملك لظننت أن لن تنجو منها. الدر المنثور ٨ / ٢٥٧ – ٢٥٩.

ذلك كله، متعال عن كل شيء منه، تبارك وتعالى عما يقول الجاهلون!! وينسب إليه الضالون!!

والمعنى الثاني: الذي يفسد قولهم منه: أن يوم القيامة ليس هو يوم عمل ولا ابتلاء، وإنما هو يوم حساب وجزاء، فافهموا ما قلنا من تفسير هذه الآية المحكمة، فإنه معنى يضل جميع هذه الأمة عنه، إلا من هداه الله إليه، ودله بلطائف صنعه عليه.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ﴾، يقول: تعلوهم الذلة وتغشاهم، فالخاشعة من الأبصار هي: المكتئبة المرعوبة الفزعة، التي قد دخلها من الإيقان بهلاكها ما أذهل نفوسها، وأبلسها في كل أمورها، فخشعت للضعف والدمار، منها الأجفان والأبصار، ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ﴾ يقول: تعلوهم الذلة وتغشاهم فهم أذلاء، في يوم الدين أخزياء، هالكون [1] أردياء.

﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾، فمعنى ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ هاهنا خلاف ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ ثَمَّ؛ لأن معنى ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ الأولة هو: يدعون بالحجة، ويُسْأَلُونَ إثباتها، و﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ هاهنا: أخرى، فهو: إخبار عما كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يدعوهم إليه من السجود والإيمان به، والإيقان بأمره، والتسليم لحكمه، في دار دنياهم، وفي حال صحتهم ورخائهم، إذ هم سالمون، ومعنى ﴿سَٰلِمُونَ﴾ فهم: سالمون القوى والإستطاعة، قادرون بذلك لله على الطاعة، لم ترهقهم في ذلك الوقت من دنياهم الذلة التي ترهقهم في دار جزائهم، فكانوا عند دعاء رسول الله عليه السلام لهم إلى ذلك مستكبرين، وعن السجود لله صآدين، ولوعده ووعيده مكذبين، فهذا معنى ما ذكر الله من أنهم كانوا سالمين.

---

(١) في (أ) و (ج): هالكين. مصحفة.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، معنى ﴿فَذَرْنِي﴾ أي: خلني ودعني، وأوحدني لعقوبته وأفردني، ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ فالتكذيب فهو: الإبطال والجحدان، والمكابرة للحق في كل بيان، ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ فهو: بهذا القول الذي أنزلناه عليك من الوعد والوعيد في الفرقان، وجعلناه إعذارا وإنذارا وحجة لكل انسان.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ معنى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ فهو: سنأتيهم ونأخذهم، ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهو: من حيث لا يظنون، أنا نأتيهم منه ولا يدرون، حتى يواقعهم أمرنا، وتغشاهم نقمتنا، وهم آمنون، فيعاينون من ذلك ما كانوا به يكذبون.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾، معنى ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ فهو: أؤخرهم ولا أعاجلهم، وأتركهم وقتا ولا أغافصهم، ثم إلي مرجعهم، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ فالكيد هو: الأخذ لهم، والبطش بهم، والإنتقام منهم، ﴿مَتِينٌ﴾ فهو: قوي رصين.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾؟! معنى ﴿أَمْ﴾ فهي: هل تسألهم، وهي أن تطلب منهم، ﴿أَجْرًا﴾ فهو: جَعْلاً وعطاء، على ما جئتهم به من الهدى، وما تدعوهم إليه من التقى، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ يقول: فهم من الغرم الذي سألتهم إياه، ﴿مُّثْقَلُونَ﴾؟! والغرم فهو: العطاء والأجعال، التي يسألون إخراجها من الأموال، ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ فمعناها: مكلفون ما لا يطيقون، من الأجعال الذي يسألون، وأراد سبحانه بقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾: توقيفهم على أنهم لم يُسألوا، على ما أعطوا وأوتوا، من الأمر الذي به خلاصهم من العذاب، وفكاك رقابهم من العقاب، جعلا، ولا عطاء ولا مالا، وأن ذلك من الله نعمة وابتداء، وعائدة وعطاء.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾، معنى ﴿أَمْ﴾ يقول: هل عندهم ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ هو: علم الغيب، ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: فهم يحصون ويعرفون ما يرجعون إليه، ويعودون فيعلمون بعلمهم الغيب ما يقولون، فيكونوا على بيِّنة مما يصنعون، ويكونوا قد أحاطوا بعاقبة أمرهم، وفهم ما يلقونه في يوم حشرهم، فإن كان ذلك كذلك، فهم على بينة من ذلك، وإن كانوا لا يعلمون الغيب، فإنما يتكلمون بالكذب والريب، والمحال، في القول والفعال، فأخبر بذلك سبحانه أنهم غير عالمين بشيء من غيبه، ولا مطلعين على شيء من أمره، وأنهم فسقة كاذبون، فجرة معذبون.

ثم أمر نبيئه بالصبر له وفيه، فقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم:٤٨]، معنى ﴿فَٱصْبِرْ﴾ فهو: احتمل ولا تجزع، وألزم نفسك عند الغضب والغم ولا تهلع، ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يقول: لأمر ربك، الذي حكم به عليك، من الصبر عليهم، والتبليغ لرسالته إليهم، وإثبات الحجة بذلك عليهم، ﴿وَلَا تَكُن﴾ يقول: ولا تفعل كفعل ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، وصاحب الحوت فهو: يونس صلى الله عليه، الذي التقمه الحوت، فكان في بطنه إلى ما شاء الله أن يكون.

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ معنى ﴿إذ﴾ فهو: حين، ﴿نَادَىٰ﴾ فهو: سأل وناجى، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ يقول: وهو مكروب، فأخبر سبحانه بمناجاة يونس صلى الله عليه، وسؤاله لربه وهو في حال شدته وكربه، إذ هو في جوف الحوت مكضوم، وشدة الحال التي هو فيها مغموم مهموم، فنادى ربه وذكره، وسأله النجاة واستغفره، فنجاه من كربه، و استخرجه من موضعه، فأعاده إلى ما كان فيه من أمره.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾، يقول سبحانه: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بالإجابة له في دعائه، والرحمة له عند تسبيحه، ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يقول: لما خرج من بطن الحوت حتى ينبذ بالعراء يوم القيامة، ومعنى ينبذ فهو: يخرج من البحر إلى وجه الأرض ويحشر، ويرد إلى ما كان عليه في ذلك اليوم من الخلق وينشر، فأراد الله بما ذكر من العراء عراء الأرض في يوم الدين، وعند حشر جميع المربوبين، فلم يرد عراء الأرض في الدنيا، ألا تسمع كيف يقول:

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٢-١٤٤]، فدل سبحانه بقوله: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ على أنه لو لا أن تداركه نعمة الله لكان لابثا في بطنه حتى ينبذ بالعراء في يوم الدين، والعراء في يوم الدين هو: عراء أرض الآخرة لا عراء الدنيا، فقال: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، يقول: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، تداركته النعمة فخلصته من بطنه، لكان مقيما في جوفه، حتى ينبذ بالعراء في يوم حشره، وإحيائه ونشره، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يقول: مأثوم، عند الله غير سليم.

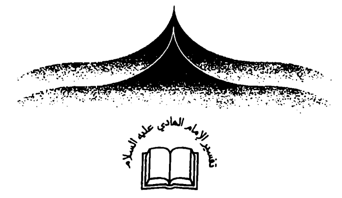
﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾، معنى ﴿فَٱجْتَبَٰهُ﴾ أي: رفعه وأدناه، وقربه واصطفاه، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والصالحون فهم: المصلحون، والمصلحون فهم: الذين أصلحوا ما بينهم وبين الله، حتى صلحت لهم عنده أمورهم، واتصلت بأسبابه أسبابهم، فعادوا له أولياء مطيعين، مختارين محسنين.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، معنى

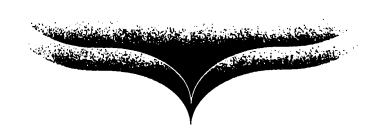
﴿وَإِن﴾ فهو: قد، ومعنى ﴿يَكَادُ﴾ فهو: يريد، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فهم: الذين أشركوا وكذبوا، ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ فمعناها: لينفذونك ويهلكونك، ويستفزونك ويقتلونك، ﴿بِأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي: بأعيانهم لشدة النظر إليك، للغيظ الذي يداخلهم عليك، إذا قرأت الذكر فسمعوه، يريد سبحانه: قد يريد الذين كفروا أن يهلكوك بأبصارهم، ويحبون ذلك لو ينالوا أن يفعلوه بأبصاهم دون أيديهم؛ إذ لم يقدروا أن يبطشوا بأيديهم إليك، فأعينهم لشدة غيظهم وما في قلوبهم، تكاد أن تزلقك لو قدرت، وتهلكك لو استطاعت، إذا سمع اللاحظون لك بها ما تتلوه من الذكر الحكيم، والذكر فهو: القرآن العظيم.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّـهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝﴾، فهذا قول من الكافرين - عليهم اللعنة إلى يوم الدين - ﴿يَقُولُونَ﴾ تقول: إن رسول الله صلَّى الله عليه وآله فيما يأتي به عن الله من الذكر المذكور، والقرآن المنير المسطور، مجنون، ينسبون في ذلك إليه الجنون، كذبا على الله واجتراء، وعداوة للحق وافتراء، فأخبر سبحانه أنهم كاذبون في قولهم، مترددون في ربهم، وأنه صلى الله عليه وعلى آله خلاف ما قالوا، مما نسبوا إليه وافتروا، فقال عز وجل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾، فأخبر سبحانه أنه ليس بمجنون كما يقولون، وأنه لرسول منه مُبين، ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ومعنى ﴿ذِكْرٌ﴾ فهو: نور وهدى، وداع إلى الله بالحسنى، ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ فمعناها: للمخلوقين أجمعين، من الإنس والجان، والحمد لله ذي الجلال والإكرام والسلطان، والجبروت والبرهان، والمن والإحسان، على الخلائق بالغفران، بعد الضلال منهم والعصيان، حمدا يقرب من الرحمن، ويبعد من الشيطان، ويقصي من النيران، ويفتح أبواب الجنان.





تفسير
سورة الحآقة





تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝﴾، معنى ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ فهي: النازلة العظيمة التي تحق بأهلها، وتصيبهم وتواقعهم ولا تخطئهم؛ لأن العرب تقول للشيء إذا أصابه السهم: حَقَّه، وأصاب حاق وسطه، تريد: لم يخطئه ولم يعدل عنه، بل أصاب الذي طلب وقصد منه، معنى قوله: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ فهو: تعظيم منه سبحانه لها، وإخبار بجليل ما يحق بأهلها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝﴾، يقول: ما أعلمك ما هذه الحآقة؟ يريد: أنك لا تعلم منها إلا ما أعلمناك، ولا تطلع من شدتها إلا على ما أطلعناك؛ لأن الله سبحانه لا يقول لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله في شيء: ما أدراك ما هو؟ إلا وهو أعظم ما يكون من الداهية، وأشد ما يكون من النازلة الصائبة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝﴾، فأخبر سبحانه بتكذيب ثمود وعاد بالقارعة، والقارعة فهي: النازلة التي تقرع الشيء وتصيبه، وتنزل به وتهلكه، وثمود وعاد فهما قبيلتان من أولاد نوح صلى الله عليه، عتتا وطغتا، وكذبتا بما أنذرتا به من القارعة التي قرعتهما، وحلت بهما عند تماديهما، فأهلكتهما.

ثم أخبر سبحانه بما أهلكهما به على عصيانهما، فقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝﴾، معنى الطاغية فهو: ما كان من طغيانهم، بعصيان ربهم،

وقيل: إن معنى الطاغية التي أهلكوا بها هي: الصيحة التي أخذتهم فأهلكتهم، ومعنى طاغية عليهم فهو: مهلكة لهم غالبة على أنفسهم، وهذا فأحسن المعنيين، وأصوبهما عندي، والله أعلم وأحكم.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝﴾، فأخبر سبحانه بما أهلكت به عاد، كما أخبر بما أهلكت به ثمود، فقال عز وجل: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ والصرصر فهي: الشديدة المدمدمة، المدمرة لما أتت عليهم المخربة، والعاتية فهي: الغالبة الهائلة التي لا تذر شيئا إلا أتت عليه، وعتت فمعناه: صعبت واشتدت به وغلبت، فلم يستر منها ستر، ولم يكن منها أي من شرها كِنٌّ، فهي تذهب بما أتت عليه، وتهلك ما ارتمت فيه.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، فمعنى ﴿سَخَّرَهَا﴾ أي: هو جعلها وأذن لها، وسلطها وأنزلها، ومعنى ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾، يخبر عز وجل أنه بعثها عليهم باكرا، فأقامت عليهم ثمانية أيام إلى آخر اليوم الثامن، فكان لهذه الثمانية الأيام سبع ليال، ليلة اليوم الثاني، وليلة اليوم الثالث، وليلة اليوم الرابع، وليلة اليوم الخامس، وليلة اليوم السادس، وليلة اليوم السابع، وليلة اليوم الثامن، فكان ذلك سبع ليال، وثمانية أيام؛ لأنها واقعتهم في أول نهار اليوم الأول، وفرغت منهم في آخر نهار اليوم الثامن، فكان ذلك سبع ليال وثمانية أيام، ثم قال ذو الجلال والإكرام: ﴿حُسُومًا﴾ فمعناها: دائمة متوالية، لا راحة فيها، ولا فترة لساعة منها، وما كان كذلك في الدوام والإستواء، وقلة الغفلة والونى، سمي: حسوما من الليالي والأيام.

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝﴾، فأخبر سبحانه بحالهم وصفاتهم بعد ما نزل بهم من إهلاكه لهم ما نزل، فمثلهم في ذلك

الحال بأعجاز نخل خاوية، وأعجاز النخل الخاوية فهي: أسافلها وما غلظ منها، ومعنى ﴿خَاوِيَةٍ﴾ فهي: خاوية من الحياة، أي: ليس فيها شيء من الحياة، فمثلهم بأعجاز النخل الميتة الخاوية؛ لأن النخل إذا ماتت وخويت كانت أضعف ما يكون من الأشياء وأوهاه، وأسمجه في الصورة وأرداه، فمثل سبحانه أجسامهم المهلكة الملقاة بأعجاز النخل الخاوية.

ثم قال سبحانه: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝﴾، يريد بقوله: ﴿هَلْ تَرَىٰ لَهُم﴾ أي: هل تحس منهم، فقامت ﴿هَل﴾ مقام ﴿مِّن﴾؛ لأنهما من حروف الصفات، ومعنى ﴿مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ فهو: من أحد صغير أو كبير، إخبارا منه بذهاب الكل ودماره وانقضائه واستئصاله، حتى لم يبق منهم باق، ولم ينج منهم من عذاب الله ناج.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝﴾، ومعنى ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ فهو: أتى، وفعل واجترأ، هو ومن كان قبله من المؤتفكات، والمؤتفكات فهي: الأمم الكاذبات على الله. المجتريات الأفكات، وإنما سميت مؤتفكات لما أتت به من الإفك، والإفك فهو: العجز عن لحوق الحق، والتمادي في طرق الفسق، فسمي من كان كذلك مؤتفكات، مما كان منها من الكذب والإفك على الله في الحالات، ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ فهي: الأفاعيل المخطئة العاصية، والخاطئة التي جاء بها فرعون ومن قبله والمؤتفكات، فهي الأمم المخطئات للصواب المذنبة، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝﴾، فأخبر أن الخطيئات التي أتوا بها هي معصية ربهم في معصية رسوله عليه السلام، وما كان منهم من التكذيب برسالاته، ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ يقول: أخذهم على معصيتهم لرسوله، واجترائهم على التكذيب بآياته، ومعنى ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ فهو:

أنزل بهم من العذاب الذي لا راد له، ومعنى ﴿رَّابِيَةً﴾ فهي: شديدة مبالغة بينة.

ثم أخبر سبحانه بما كان منه من النعمة في حملهم في الفلك الجارية، فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾، ومعنى ﴿إِنَّا﴾: إخبار عن فعله بهم، ومعناها: نحن، ومعنى ﴿لَمَّا﴾ فهو: إذ، ﴿لَمَّا طَغَا﴾ فمعنى ﴿طَغَا﴾ فهو: علا وكثر، وأتى وطمى، و﴿ٱلْمَآء﴾ فهو: الماء المعروف الذي يستغني بمعرفته الخلق له، عن شرحه وتفسيره وذكره وتأويله.

معنى ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: دللناكم على الركوب وهديناكم إلى عملها، حتى عرفتم ما جهلتم من بنائها، واستدللتم بدلالتنا على تقديرها، فقدرتموها بقدرتنا، وثبتموها بإرادتنا، فصارت فلكا حاملة لكم، سفنا في الماء جارية بكم، فهذا معنى ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، والجارية فهي: السفن المسمرة، المؤلفة المبينة المقدرة، التي تجري في البحار بأهلها، وتطفو بقدرة الله على الماء بما فيها، فلما كان الله سبحانه الهادي لخلقه إلى ذلك، جاز أن يقول: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾، معنى ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ هو: لنصيرها لكم تذكرة، ومعنى ﴿تَذْكِرَةً﴾ فهو: ذكر لكم، وحجة عليكم، لتعلموا أنا أولياء نعمتها، والمنعمون عليكم بها، لتذكروا نعمتنا فيها فتشكروا، وتتفكروا فيما هديناكم إليه من أمرها فتؤمنوا، ومعنى ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فهو: تفهمها وتعلمها، وتوقن بها وتعرفها، وهذه التي قال الله سبحانه: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فهي: التذكرة والحجة، والأذن الواعية فهي: الأذن المؤمنة المصدقة بكتب ربها ورسله وآياته ونذره، المستدلة بظاهر آيات الله وصنعه، وما أظهر في تدبير العالم من قدرته، على عجائب ما حجب من علمه، وأرسل به على ألسنة رسله، من ذكر

الحشر والحساب، وما أخبر به سبحانه من الثواب والعقاب، الذي يكذب به المكذبون، وينكره الكفرة المنكرون.

ثم أخبر سبحانه باليوم الذي يميز فيه العالمون، ويحشر فيه المبطلون، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝﴾، فمعنى ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: فهو: جعل فيها، ورد ما يكون به حياتها من أرواحها، التي يردها الله عند بعثها في أبدانها، ﴿نَفْخَةٌ﴾ فمعناها: ردت الأرواح إلى الأبدان، ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: ردة واحدة، أي: سريعة واجزة [1]، فترجع الأرواح بقدرة الله إلى الأبدان التي كانت أولا فيها، ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ فمعنى حملها فهو: أخذهما، ومعنى أخذهما فهو: نفاذ أمر الله فيهما، وإنفاذ إرادته في دكهما، ودكهما فهو: إذهابهما، ومواقعة الفناء بهما، وزوال أمرهما، وانحلال تجسمهما، وردهما إلى ما كانتا عليه أولا من قبل خلقهما.

قوله: ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ فهو: إخبار من الله عز وجل عن سرعة مضي إرادة الله فيهما، ونفاذ مشيئته في إذهابهما، وإنما معنى قوله: ﴿وَٰحِدَةً﴾ فهو: إخبار منه سبحانه عن نفاذ قدرته، وسرعة كينونة مراده، فَمَثَّلَ سرعة انقضاء ذلك كله بضرب الإنسان بالشيء الذي يكون في يده على الأرض واحدة، ودكه بالشيء الذي يدكه دكة واحدة، فأخبر سبحانه أن إذهابه للأرضين والسموات ونفخه في جميع صور الآدميين، ورده لأرواحهم في أبدانهم، في السرعة مثل ضربة الضارب بالشيء الذي يكون في يده على الأرض ضربة واحدة، ليس معها لبث، ولا ضربة ثانية، وذلك اليوم الذي يكون فيه ما ذكر الله، فهو: يوم الحشر والحساب، وملاقاة الثواب

---

(١) واجزة: سريعة. يقال: رجل وجز: سريع الحركة فيما أخذ فيه. لسان العرب. مادة وجز.

والعقاب. ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝﴾، ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: يوم يكون ما ذكرنا من النفخ في الصور، ودك الأرض والجبال، ومعنى ﴿وَقَعَتِ﴾ فهو: نزلت وحلت، وكانت وأتت، فالواقعة هي: الساعة الواقعة بالناس، والساعة فهي: القيامة التي يواقع الخلق أمرها، ويلقى كلهم فيها عمله، ويقع به جزاء فعله، وبوقوع الجزاء فيها، وقع اسم الواقعة عليها.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾، فمعنى انشقاقها فهو: انفطارها، وانفطارها فهو: تقطعها لما يريد الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم من فواتها وتبديلها.

﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝﴾ والواهية فهي: المتمزقة المتقطعة، التي قد صارت أبوابها فُرُجا، كما قال الله سبحانه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝﴾ [النبأ:١٩].

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾، فمعنى ﴿ٱلْمَلَكُ﴾ فهو: الملائكة، فخرج اللفظ كأنه لملك واحد وهو لجميع الملائكة، كما قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝﴾ [الانفطار:٦]، فخرج الاسم كأنه لواحد وهو لجميع الناس، وأرجاؤها فهو: نواحيها وأطرافها وجوانبها، يريد سبحانه: أن الملائكة عند تقطع السماء يكونون واقفين على أرجائها، منتظرين لأمر الله فيها وفي غيرها.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝﴾، معنى ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ هو: يقوم به، ويأمر فيه، وينهى بنهي الله تبارك وتعالى، والعرش فهو: الملك، و الملك فهو: جميع ما خلق الله وبرأ في الآخرة والدنيا، ومعنى ﴿فَوْقَهُمْ﴾ فهو: منهم، فقد خلفت فوق مِن؛ لأنها من حروف الصفات، يخلف بعضها بعضا، ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: يوم القيامة عند وقوع الواقعة، وانشقاق السماء، وكينونة الحساب

والجزاء، ومعنى ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ فقد يمكن - والله أعلم - أن يكونوا ثمانية آلاف، أو ثمانية أصناف من الملائكة المقربين، ينفذون أمر رب العالمين في ذلك اليوم، الذي تحمل الملائكة عرشه فيه، وتكون قائمة به فيه وعليه، فأراد الله سبحانه بقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ إخبارا منه أن له سبحانه ثمانية أصناف من الملائكة أو آلاف، يحملون في ذلك اليوم عرشه، وعرشه فهو: ملكه، وحملهم لملكه في ذلك اليوم العظيم، فهو: قيامهم فيه بأمر الرحمن الرحيم، وإنفاذهم لحكمه، ومجازاتهم بأمره لخلقه، وإيصال أهل الثواب إلى الثواب، وعتل أهل العقاب وإنفاذهم لحكمه إلى العقاب، ومحاسبة المحاسبين، وتوقيف الموقوفين، على ما كان من أعمالهم، في مبتدأ ما كان من حياتهم، فهذا من أفعال الثمانية وشبهه، وما يكون من غير ذلك ومثله، فهو: حمل منهم للملكه الذي هو عرشه، فهذا معنى حملها له لا غيره.

وقد تقول العرب في ذلك، وما كان من الحال كذلك، لوزير الملك العظيم الشأن، ذي القوة والمقدرة والأعوان: حمل وزير فلان عنه الأمر، تريد: كفاه إياه وقام به، وأنفذ فيه كل أمره، واحتذى فيه كله مراده ونحذوه، وتقول العرب: لا تحمل على نفسك ما لا تطيق، تريد بذلك أي: لا تعمل بما لا تطيق، لا أنه شيء يحمله على ظهره، ولا وزر يقله على متنه، وكذلك تقول العرب: حمل فلان رعيته ما لا يطيقون، ليس تريد بذلك: أنه وضع على ظهورهم حملا منه يعجزون، وإنما تريد: كلفهم وأمرهم بأمر لا يطيقونه، وألزمهم شيئا لا يستطيعونه، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب:

حملت أمر جليلا فاضطلعت به   وقمت فيه بأمر الله يا رجل[1]

---

(١) البيت لجرير من قصيدة يرثي بها عمر بن عبد العزيز، بلفظ:

حملت أمرا عظيما فاصطبرت له   وقمت فيه بأمر الله يا عمرا

فقال: حُملت، يريد: كُلفت يا رجل، ولم يرد حملت على ظهرك ثقلا به يثقلك، ولا وزرا يفدحك، وإنها أراد كلفت أمرا جسيما فاضطلعت به، أي: قمت به وقويت عليه، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [النحل:٢٥]، فقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: ليحملوا ثقل الوزر، وثقل الوزر فهو: الإثم، ويتقلدون وزرهم ووزر غيرهم، بالأمر الذي يأتونه من معاصي ربهم، وما هم يتقلبون فيه من الجرأة على خالقهم، ولم يرد أنه وزر محمول، ولاشيء ثقيل يوضع على الظهر معمول، فعلى هذا ومثله، وما كان من اللغة على شكله، يخرج حمل الملائكة لعرش ربهم، لا على ما يقول أهل الجهل بربهم، من أنه عرش تحمله الملائكة، مدبر معمول، مَرَبَّعٌ فوق أكتافها محمول، وأن الله سبحانه فوق العرش، تعالى عن ذلك الواحد العلي الكريم !! وتقدس أن يكون كذلك العزيز العظيم !!

ثم قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾، معنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: يوم قيام الملائكة بعرش ربها، وما يكون فيه من قبضها بأمره وبسطها، ﴿تُعْرَضُونَ﴾ فمعناها: يبرزون ويحاسبون، وتعرض عليكم أعمالكم، وتبين لكم أفعالكم، وتوقفون عليها، وتعاينون ما يجب عليكم ولكم فيها، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ يقول: لا يخفى من أعمالكم شيء، ولا يغيب منكم في ذلك اليوم أحد، ومعنى قوله: ﴿خَافِيَةٌ﴾ يقول فهي: مستترة وغائبة، فيقول: إنه لا يخفى من أعمالكم صغير ولا كبير، وأن ما كان يخفى من صغير وكبير، ظاهر عليكم في ذلك اليوم كبيرا كان أو صغيرا.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، فالكتاب فهو: الحساب، وما أحصاه عليه ملكاه من جميع الأسباب، فقوله: ﴿أُوتِيَ﴾ فهو: وقف وبيّن له أمره، وأظهر عليه فيه سره، حتى يعلمه علما حقا، ويعلم أنه لم يحص عليه كاتباه إلا صدقا، ومعنى

﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ فهو: اليُمن والبركة، وما يلقى به الملائكة أهل الدين والتطهرة، من البشارة من ربهم، والتبشير والتطمين لهم عند توقيفهم ومحاسبتهم، فهذا معنى قوله: ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾. وكذلك قال ذو العزة والجلال، في أصحاب الميمنة، حين يقول: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۞﴾ [الواقعة:٨]، فأراد بقوله: ﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: باليُمن والبركة، والفضل والمغفرة، لا أن ثم ميمنة قصدها الله ولا ميسرة.

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۞﴾ ومعنى ﴿يَقُولُ﴾ أي: هو قول من المؤمن المحاسَب عند تبشير الملائكة بالرحمة، والرضى من الله والمغفرة، فيقول عند ذلك لمن يحاسبه من الملائكة: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، ومعنى ﴿هَآؤُمُ﴾ فهي: هاكم، فهو حض على أن يقرأوا، وهي تخرج على معنى: هلموا اقرأوا كتابيه، ومعنى ﴿ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ فهو: فسروا حسابيه، واشرحوا أعماليه، وبينوا أفعاليه[1]، استبشارا منه بجزاء عمله، وثقة منه بعدل ربه.

﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۞﴾، فمعنى ﴿ظَنَنتُ﴾ أي: أيقنت في الدنيا أني ملاق حسابيه في هذا اليوم، فأخذت له أهبته، وعملت له عمله في دار الدنيا، فلقيت السرور في الآخرة التي تبقى، ومعنى ﴿مُلَٰقٍ﴾ فهو: معاين مواقع مدان، ﴿حِسَابِيَهْ﴾ فهو: مناقشتي على فعلي، ومحاسبتي على ما تقدم مني، صغيرا قدمته، أو كبيرا عظيما فعلته.

ثم أخبر سبحانه بمكان من كان كذلك، ممن أخذ أهبته لذلك، فهمل على حذر من أمره، وتيقظ في دار دنياه لنفسه، فقال في من كان كذلك من المؤمنين، المستعدين

---

(١) في (ج): عمله وبينوا فعليه. وفي (ب): عمليه وبينوا فعليه.

في الدنيا لمحاسبة يوم الدين: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝﴾، معنى قوله: ﴿فَهُوَ﴾ يريد أي: من أوتي كتابه بيمينه فهو في عيشة راضية، والعيشة فهي: المعيشة، والمعيشة فهي: الحياة الرضية، والحياة الرضية فهي: الحياة الهنية، وهي المعيشة الرضية، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ والجنة فهي: دار الثواب، والعالية فهي: العظيمة الأمر، الرفيعة القدر، الجليلة الخطر، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ فالقطوف فهي: الثمار من فواكه الأشجار التي جعلها الله سبحانه معيشة للمؤمنين، ومتفكها للمثابين، ومعنى ﴿دَانِيَةٌ﴾ فهي: قريبة من المتناول لها، متهيئة على أحسن حالاتها.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝﴾، هذا أمر من الله سبحانه لهم بأكل ما رزقهم، وشرب ما سقاهم، إباحة منه لهم ما تفضل به عليهم، ﴿هَنِيئًا﴾ فمعناها: سليما من كل آفة، لا أذى فيه ولا مخافة، في أكله على آكله، لا تخالف طباع آكله، ولا تخالف إرادة متناوله، ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ يقول هو: جزاء لكم على ما قدمتم من العمل في الدنيا، فاستوجبتم هذا أجرا لكم في الآخرة التي تبقى، والأيام الخالية فهي: الأيام الفانية، أيام الدنيا التي انقضت، وفنيت فمضت.

ثم رجع سبحانه إلى صفة أهل الشمال، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝﴾، فمعنى ﴿أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ فهو: حُوسِبَ ووقف على ما أُحصي عليه من فعله، وعرف من عمله، ومعنى ﴿بِشِمَالِهِ﴾ فهو: مثل من الله عز وجل مثله لعباده ضربه لهم بالشمال، العسرة والشدة في كل حال، يقول سبحانه: حوسب حسابا شديدا، ووقف توقيف عنيفا، ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ هذا قول من استحق الوعيد من ربه، عند معاينة جزاء فعله وسعيه، فحينئذ يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾، ومعنى

﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ هو: وددت أني لم أوت كتابيه، ومعنى ﴿أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ فهو: ألقى سيئ عملي، وأعرف ما أحصي علي من فعلي، ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ يقول: يا ليتني كنت ميتا على حالتي، وباليا في الأرض فانيا، لا أدري ما الحساب، ولا أرى ما كنت أوعده من العقاب، وأكون ترابا في القبر، ولم أعاين ما عاينت من شدة الأمر، ألا ترى كيف يقول: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝﴾، والقاضية التي تمناها الفاسق في ذلك اليوم، فهي: القاضية التي عرف في الدنيا عند موته، فقضت عليه فأماتته، وإلى القبر صيرته، فيتمنى أن قاضية الموت تنزل به في يوم الدين، فتريحه من العذاب المهين، فيكون في الآخرة التي تبقى، ميتا فانيا كما كان في الدنيا. ثم قال - خزي وردي، وقد أخزي لعمري إذ غوي -: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ۝﴾، يقول: لم يغن عني ما كنت أجمع من المال، ومعنى يغني [1] عني فهو: يدفع عني شيئا مما نالني، فأقر في يوم الدين بأن الذي كان فيه في الدنيا غرور وتزيين، وأنه اليوم قد صار إلى الحق اليقين.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝﴾، يقول: ضل عني تجبري في الدنيا وتسلطني، ومعنى ضل عني أي: ذهب فلم ينفعني، وبقيت اليوم خاليا فردا وحدي، ومن سلطان الحجة فردا، يقول: ضلت حجتي إذ لم تكن لي حجة ولا قول يقبل مني في الآخرة، وقد روي وقيل: إن ذلك أبو جهل بن هشام لعنه الله [2].

ثم أخبر سبحانه بما يكون من أمره لحملة عرشه فيه، وفي إيصال الوعيد إليه،

---

(١) في (ج): أغنى.

(٢) أخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ قال: اخبرت أنه أبو جهل. الدر المنثور ٨/ ٢٧٣.

فقال: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝﴾، معنى ﴿خُذُوهُ﴾ فهو: أمر من الله للزبانية بأخذه، والأخذ له فهو: البطش به والقبض عليه، ﴿فَغُلُّوهُ﴾ معناها: أوثقوا يده إلى رقبته، ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ فالجحيم هي: النار، و﴿صَلُّوهُ﴾ فمعناها: اصلوه، ومعنى اصلوه فهو: حرقوه وأنضجوه، وعذبوه وأحرقوه، ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ والسلسلة فهي: سلسلة من حديد، ﴿ذَرۡعُهَا﴾ يعني: طولها، ﴿سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ فهو: الذراع المعروف، بالطول الموصوف، ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ معناها: في السلسلة فاجعلوه، ومعنى جعله في السلسلة فهو: معنى جعل السلسلة في رقبته، وقد قيل: إنها تنفذ من ظهورهم إلى صدورهم حتى يُنظموا فيها نظماً نظماً [1]، وقد قيل بغير ذلك، وأصح ذلك عندنا جعلها في أعناقهم؛ لأن الله سبحانه قد ذكر ذلك فقال: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ۝﴾[غافر:٧١].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝﴾، يقول: إنه كان لا يصدق بأمر الله، ولا يقر بوحدانية الله، ولا يتعبد الله بما أمره، ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ فهو: الجليل النافذ الإرادة، ماضي المشيئة، الذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝﴾ [الشورى:١١].

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي، في البعث والنشور، عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَٱسۡلُكُوهُ﴾ قال: تسلك في دبره حتى تخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه.
وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿ فَٱسۡلُكُوهُ﴾ قال: قال ابن عباس: السلسلة تدخل في أسته ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم يشوى.
وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج، عن مجاهد قال: بلغني أن السلسلة تدخل من مقعده حتى تخرج من فيه، يوثق بها بعد أو من فيه حتى تخرج من معدته. الدر المنثور ٨/ ٢٧٤.

وقوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝﴾، يقول: لا يأمر بإطعام المستطعمين من المساكين، بل كان ينهى عن ذلك جميع المطعمين، وقد يخرج معنى ذلك على أنه: لم يكن يحض على أداء الزكاة التي جعلها الله عونا للمساكين، وتقوية على إقامة الدين، فلم يكن يؤديها ولا يحض - لعنه الله - عليها.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ۝﴾، يريد: أنه ليس له في يوم الدين حميم، ومعناها أي: عندنا في دار آخرتنا حميم، والحميم فهو: ما كان يغتر به من البنين، والعصبة والأقربين، فأخبر الله سبحانه أنه كان انقطع عنه في ذلك اليوم الذي كان يغتر به في الدنيا من عشائره وأقربيه، وأهل طاعته وبنيه، ففارقه أصحابه وأعوانه، وضل عنه في ذلك اليوم سلطانه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ۝﴾، فأخبر أنه لا طعام له في ذلك اليوم ولا معيشة ولا حياة، ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ والطعام فهو: المأكول، والغسلين فهو: صنف من طعام أهل النار يدعا: الغسلين، وهو شيء يزيد آكله بلاء، وجوعا وشقاء، لا يهنأ آكله، ولا ينتفع صاحبه، جعله الله عذابا لأهل معصيته، ألا تسمع كيف يقول: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ﴾، فأخبر سبحانه أن أهل الخطاء على أنفسهم، بالمعصية لربهم، يأكلون الغسلين، ويعذبون بأكله في يوم الدين.

ثم أقسم سبحانه عن صدق قول رسوله صلى الله عليه وعلى آله بما جاء به من الرسالة عن ربه، فقال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝﴾، معنى ﴿فَلَا﴾ هو: أفلا أقسم، ومعنى ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ يريد: بما تبصرون من الأشياء مما

فيه أثر قدرتنا، وعجائب تدبيرنا، من لطيف صنعنا، الشاهد بالربوبية لنا، الناطق بصدق رسولنا، من الآيات الباهرات، التي جاء بها النيرات، اللواتي هن دلالات وعلامات على أنه من المرسلين، بما جاء به من الأمر المبين ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ يقول: وبما لا ترون، مما قد علمناه، فأقسمنا به وذكرناه، من عجائب خلقنا، ودلائل فطرتنا، في الجن والملائكة، وغير ذلك من الأشياء المغيبة، التي لا ترونها بأعينكم، ولا تفهمونها لعجزكم، وقلة استطاعتكم، واستدراك ما غاب عنكم.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يقول: إن هذا الذي ذكره لكم رسولنا مما بعثناه به، وأيدناه بذكره، والإعذار فيه، والإنذار، لأحق ما يكون من القصص والأخبار، من ذكر الحآقة والواقعة، وشقق السماء إذ هي واهية، ووقوف الملك على أرجائها، عند وقت تغيرنا لها وتبديلها، وظهور خافيات صدوركم، حين تعرضون على ربكم، واستبشار من أوتي كتابه بيمينه، وحلوله فيما وعدناه من جنتنا، وتمني من أوتي كتابه بشماله عند وقت معاينته، لما كان يوعد به في حياته، القاضية المفنية، و الجائحة المهلكة، وإقراره بقلة غناء ماله عنه، وهلاك سلطانه منه، وما ذكر صلى الله عليه وآله لهم مما أمر بذكره، ووصفه لما أمر بوصفه، وشرحه لما أمر بشرحه، من الجحيم وإصلائها لأهلها، والسلسلة وذرعها، وغل أهلها في يوم الدين بها، وما أمر بذكره فذكره، والتحذير له فحذره، من أكل الغسلين، الذي جُعل طعاما للخاطئين، فأقسم سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، أن لهذا القول كله من قول رسوله، لأحق مَن بعثه به إلى خلقه، وأمره بشرحه لجميع بريته، وأنه لقول رسول كريم، وما هو كما يقولون، ولا كما يذكرون في كذبهم وما يسطرون، فيزعمون أن رسول الله صلَّى الله عليه وآله شاعر، ومرة كاهن، ومرة ساحر، ومرة مجنون، فأخبر سبحانه أنه لقول رسول كريم، وهو صادق عليم.

ثم أقسم ما هذا القول بقول شاعر،[﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾]، ثم قال سبحانه: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾، يريد: أن إيمانكم وتصديقكم بالحق الذي جاء به رسولنا من عندنا، على ما ترون من البراهين التي لا تكون إلا منا، قليل لكفركم وعنادكم، وتكذيبكم وحسدكم.

ثم رد على القسم بالواو فقال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، فنفى سبحانه أن يكون هذا القول قول الكاهن، ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾، فأخبر أن تذكرهم قليل، ومعنى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فهو: تتدبرون الأمور، وتتفكرون فيها، فأعلمهم سبحانه أن تذكرهم وتدبرهم قليل، وأنهم لو تذكروا، أو تدبروا وتفهموا وأنصفوا، لعلموا أن هذا قول رسول كريم، وأنه ليس بقول شاعر ولا كاهن رجيم.

ثم اخبر تبارك وتعالى أن كلما أتى به صلى الله عليه وعلى آله من ذلك، فهو: من الله حقا، وقولا صدقا، فقال سبحانه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾، فأخبر أن محمدا صلى الله عليه وآله لم يبلغهم إلا ما أُمر به إليهم، وأنه لم يزد ولم ينقص في شيء تلاه عليهم.

ثم قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾، يقول: لو كان في شيء مما يقولون، حتى تقوّل علينا باطلا كما تذكرون، في بعض أقاويله، أوفي شيء من أخباره وأحاديثه، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾، معنى اليمين فهو: الأمر القوي المتين، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب:

إذا ما راية رفعت لمجد تناولها عرابة باليمين [1]

(١) البيت للشماخ بن ضرير من قصيدة يمدح فيها عرابة بن أوس الحارثي، ديوانه / ١١٢.

ومعنى ﴿أَخَذْنَا مِنْه﴾ فهو: انتقمنا منه انتقاما شديدا، فهذا معنى ﴿أَخَذْنَا مِنْه بِٱلْيَمِين﴾.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾، يقول: لأنزلنا عليه نقمة تقطع وتينه، والوتين فهو: نياط القلب وعلائقه، التي تكون بقطعها مفارقته للحياة، ومصيره إلى الوفاة.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾، يخبر سبحانه أنه لو أراده بسبب، ما كان له عنه حاجز منهم، ولا عنه له مدافع فيهم، فصحح سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله أداء الأمانة، وتبليغ الرسالة، بما ذكر من قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾، لأنه لما أن قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ لفعلنا به ما ذكرنا، ثم لم يكن منه سبحانه فيه شيء مما ذكر أنه يفعله به لو تقول علينا باطلا، صح له صلى الله عليه وآله بأحق حقائق التحقيق أداء الأمانة، وتبليغ حقيقة الرسالة، بصحة نصيحة وصدق، وثبتت له الحجة بذلك على الخلق، والحاجز فهو: المانع، والمانع فهو: القائم دونه والمدافع.

ثم أخبر جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، أن هذا القول الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وآله من الإعذار والإنذار، والتحذير والأخبار، تذكرة للمتقين فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾، فمعنى ﴿إِنَّهُۥ﴾ يقول: إن هذا القرآن، والقول، ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والتذكرة فهي: التنبيه والزجر والتحذير للمتقين، والمتقون فهم: المؤمنون المتقون لربهم، والتقي فهو: الخائف لذنبه، المشفق من عذاب ربه، فأخبر سبحانه أن هذا كله لا ينتفع به، ولا يكون تذكرة، إلا لأهل الدين والتبصرة، والذين يتفكرون فيه

ويذكرونه، ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ فأخبر سبحانه أنه يعلم ممن نزل عليه هذا القرآن مكذبا به، غير مؤمن بغيبه، معاندا للرسول عليه السلام في قوله، مخالفا له سبحانه في حكمه.

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝﴾، يقول سبحانه: حسرة في يوم الدين على الكافرين، متحسرون عليه ألا يكونوا قبلوه، وألا يكونوا آمنوا به واتبعوه، والحسرة فهي: الندامة والحرقة، والتأسف على فوات ما فاتهم، إذ كان ممكنا لهم في حياتهم، فتركوه في وقت إمكانه، فتحسروا عليه بعد فواته، والكافرون فهم: العاصون المكذبون.

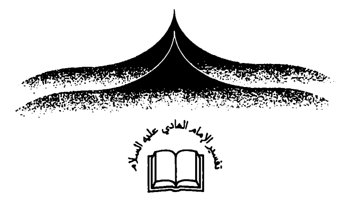
ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، يريد بقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يقول: إن هذا القول الذي قلنا، والذكر الذي ذكرنا، والشرح الذي شرحنا، لحق يقين، صادق القول مبين، وآت كائن قريب من أهله واقع بهم، نازل عن قليل عليهم.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾، معنى ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: كَبِّر وقدِّر، وقدِّس ونزِّه ربك إذا ذكرته بشيء من أساميه، ونسبت إليه في شيء مما يرضيه، ﴿رَبِّكَ﴾ معناها: خالقك ومالكك، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ فهو: الواحد الجليل، الفعال لما يريد، الغالب غير مغلوب، الذي ما شاء من الأشياء أن يكون كان، بلا كلفة ولا أعوان، النافذ المشيئة، العظيم القدرة، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾، الذي ﴿لَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝﴾ [الإسراء:١١١].

٣٥١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝﴾ [الحاقة:١٧]؟

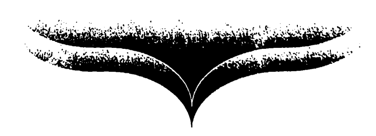
فقال: أما العرش فهو: الملك، وأما ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: يوم القيامة، وأما الثمانية الذين ذكرهم الله فقد يمكن أن يكونوا: ثمانية آلاف، أو ثمانية أصناف، أو ثمانية أملاك، والله أعلم وأحكم. وأما حملهم فهو: تأدية ما أمرهم الله بأدائه إلى من أمرهم به الله من عباده، من الكرامة والنعيم والإحسان، وفوائد الخير وما يأتيهم من الرحمة والغفران، وهذا جائز معروف في العربية والبيان، من ذلك ما يقول العرب كثيرا، فهذا معنى الحمل الذي ذكره الله، وهذا الجواب ونفس المعنى وقصده، الذي يحتاج إليه منه، فلك فيه كفاية إن شاء الله.





تفسير

سورة المعارج





تفسير سورة (المعارج)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قول الله عز وجل: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾، فمعنى ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ فهو: إخبار من الله بها سأل من العذاب، ومعنى يسيل فهو: يأتي وينهال، ويكر في كل الأحوال، والسائل هاهنا فهو: الآتي من أمر الله وحكمه بالعذاب على أعدائه، يريد بـ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ أي: أتى آت نازل من عذاب الله الواقع بالكافرين، ومعنى ﴿وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، فهو: واقع بالكافرين، فقامت اللام مقام الباء؛ لأنها من حروف الصفات، وحروف الصفات يخلف بعضها بعضا.

﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝﴾، يريد: ليس لهذا العذاب النازل بالكافرين دافع، ومعنى ﴿دَافِعٌ﴾ أي: مانع ولا حاجز له عنهم، ولا صارف عن الوقوع.

ثم أخبر سبحانه أنه من الله فقال: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝﴾، يريد: أن هذا العذاب الواقع بالكافرين فهو: من الله ذي المعارج، والمعارج فهي: المصاعد، والمصاعد فهي: المسالك، والمسالك هي: الطرق التي تسلكها الملائكة من السماء إلى الأرض، ومن السموات بعضهن إلى بعض.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝﴾، ومعنى ﴿تَعْرُجُ﴾ فهو: تسلك وتمضي، وتذهب وتأتي، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فهم: ملائكة الله المطهرون، و﴿ٱلرُّوحُ﴾ فهو: جبريل الأمين، عليه صلوات رب العالمين، ومعنى ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يقول: الملائكة تعرج

في يوم واحد وتسير وتقطع بقدرة الله ما لو كان غيرها من الناس، لم تسر ما سارته الملائكة في يوم واحد في خمسين ألف سنة، فأخبر سبحانه بعظيم قدرته في ذلك، وجليل فعله فيما جعل من سرعة سير الملائكة وقطعها بعروجها لما تقطع من معارجها، وتقضيه في سيرها في مسالكها، دلالة منه بذلك لخلقه عليه، ودعاء منه لهم بما أظهر في ذلك إليه.

ثم قال سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وآله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝﴾، معنى ﴿صَبۡرٗا﴾ أي: انتظر ولا تجزع واحتمل، ﴿صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ يقول: احتمالا جميلا، ومعنى ﴿جَمِيلًا﴾ أي: دائما وثيقا جيدا، لا يدخله إفك ولا هلع، ولا خور ولا جزع، ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾، معنى ﴿بَعِيدٗا يَرَوۡنَهُۥ﴾ أي: يرونه باطلا ولا يوقنون به إيقانا، فلما لم يوقنوا به ولم يؤمنوا، جاز أن يقول: ﴿يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾، لأن كل ما لم يوقن به الموقن فقد يراه بعيدا، وذلك أن العرب تقول لما لم يصح عندها، وكان غير آت ولا ممكن في عقولها: هذا أمر بعيد منا، من ذلك ما تقول العرب: زعم فلان أنه يقتل فلانا، وهذا أمر بعيد منه، تريد: أن هذا شيء لا يقدر عليه، ولا يكون منه أبدا إليه، فعلى هذا المعنى يخرج قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾، يقول سبحانه: يرون ما يعدهم من وقوع هذا العذاب بهم محالا لا يصح في عقولهم عندهم، ولا يقع أبدا بهم، ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ يقول عز وجل: نعلم أنه حق آت، والعرب تسمي كلما أيقنت بمجيئه: قريبا، تقول: ما أقرب الموت، وتقول: ما أقرب فرج الله، إيقانا بمجيئه، فقرنته بإيقانها بكينونته، وتقول العرب: ما أقرب الليل، فقرنته حين علمت أنه آت لا محالة.

ثم ذكر سبحانه الوقت الذي يكون فيه العذاب للكافرين، وتنكيل أهل الوعيد من المكذبين، فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝﴾، فأخبر سبحانه أنه إذا كان ما ذكر من أمر السماء والجبال، كان وقوع العذاب بالكافرين، ومعنى ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ فهي: تذوب بعد تجسمها، وتنحل بعد عظمها، حتى تعود إلى ما كانت عليه أولا، من الدخان الذي خلقت منه في الإبتداء، فشبهها سبحانه عند كينونتها دخانا بالمهل الجاري، والمهل فهو: صفو القطران، فأخبر سبحانه أنها تكون في الفناء والذهاب والإنحلال، كالمهل حذو المثال بالمثال، ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ فشبهها أيضا بانحلالها وذهابها وتمزقها بالعهن، والعهن فهو: ضرب من خالص الصوف، فأخبر سبحانه أنها تعود من بعد تجسمها ويبسها وصلابتها وثباتها، كالعهن إذا نفش فاضمحل، ولم يَستُر بعد نفشه ما يكون خلفه ولا فوقه ولا تحته، لضعف أمره بعد نفشه، فأخبر أن الجبال بعدما هي عليه اليوم من كثافتها وصلابتها وجليل أمرها، تعود إلى الكينونة كالعهن المنفوش.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، يقول: لا يسأل نسيب نسيبا، ومعنى ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ﴾ فهو: يستخبر ولا يكلم، ولا يقبل عليه ولا يسلم.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، معناها: يرونهم ويعرفونهم حتى يعرف القريب قريبه، والنسيب نسيبه، فيشغله هول ما هو فيه من أمره عن مسائلة قريبه، والسلام على حميمه.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾، معنى ﴿يَوَدُّ﴾ فهو: يحب ويتمنى، ويريد ويشاء، ﴿ٱلْمُجْرِمُ﴾ فهو: المسيء الظالم، ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ يقول: لو

يفدي نفسه، ومعنى يفديها: أن يجعل بدلها في العذاب، ويفديها بمن ذكر الله وسمى من أقربائها، ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ يريد: من عذاب يوم الدين، ويومئذ فهو: يوم القيامة.

﴿بِبَنِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝﴾، يقول سبحانه: يود لو أنه أمكنه أن يفدي نفسه من عذاب يوم الدين بهؤلاء المذكورين، وبنيه فهم: ولده الذكور، ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ فهي: زوجته الحبيبة إليه، التي كان يحبها ويفديها في الدنيا بنفسه، ويحامي دونها بماله ومهجته، ﴿وَأَخِيهِ﴾ فهو: ابن أمه وأبيه، ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ فهي: والدته ورابته التي تربيه، وتطعمه وتسقيه لبنها في صغره، حتى فصلته عن ثديها عند كبره، و﴿تُـْٔوِيهِ﴾ فمعناها: تحضنه وتربيه، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يقول: أهل الأرض كلهم لو كانوا له وفي يده عبيدًا وخولا وأقرباء ونسبا، ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ يقول: يود أنه فدى بكل ما ذكرنا وجميع ما فسرنا[1] نفسه من العذاب المهين، ونجا وجعله مكانه في يوم الدين، فداء يفدي بهم نفسه، ووقاء يقي بهم من العذاب بدنه، ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ يقول: ثم يقبل منه الله ذلك ويخليه، فأخبر الله سبحانه أن المجرم يود أنه نجا وسلم وافتدى، بكل ما ذكر الله وسمى.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝﴾، معنى ﴿كَلَّآ﴾ فهو: نفي أن يكون تقبل من المجرم فداء، أو يكون له يوم القيامة من العذاب نجآء، يقول: لا نجاة له ولو افتدى، وقوله: ﴿لَظَىٰ﴾ فهي: جهنم، وإنما سميت: لظى

(١) في (ج): فسرناه.

لتلظيها، والتلظي فهو: التلهب والتقلب، وأكل ما يقع فيها بأسرع سرعة، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ يقول: أكالة للشوى محرقة له ولغيره من بدن صاحبه، والشواء فهو: الجلد، وقد قيل: غير الجلد، وأحسن ما سمعناه فيه أنه الجلد.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾، يريد بـ﴿تَدْعُواْ﴾ أي: تأخذ من أدبر عن الله سبحانه، وإنما مَثَّلَ الله أخذها بالدعاء منها لمن تأخذ؛ لأن كل من حاز شيئا فقد استدعاه إليه، ومن استدعى شيئا إليه فقد دعاه وآواه وصار منه وإليه، فقال: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ تؤويه وتحرقه وتخزيه، والمدبر فهو: المدبر عن الله، وعن حقه المتعلق بما هو فيه من باطله وفسقه، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ فهو: عَدَلَ عن الحق وأبى.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾، يقول: جمع الذنوب فأوعاها، ومعنى أوعاها فهو: جمعها كلها فأحصاها.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾، الإنسان فهو: الناس كلهم، ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ يقول: طبع وفطر على الضعف، وضعف البنية والجزع مما يعظم عليه، ويشد أمره لديه.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾، فالشر هو: كل أمر يشتد عليه من النوازل النازلات، والأمور الفادحات، والمصائب الحالات، و﴿جَزُوعًا﴾ فهو: فزعا هلوعا، يقول: إذا أصابه ذلك جزع منه، وضعف لضعف بنيته عنه.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، يعني ﴿مَسَّهُ﴾ فهو: أصابه وواقعه، و﴿ٱلْخَيْرُ﴾ فهو: الرخاء والنعمة، والسرور والغبطة، و﴿مَنُوعًا﴾ يقول: فهو: مانع لخيره بخيل بما عنده، قليل الإنفاق في مرضاة ربه، في ما يقرب من خالقه.

ثم استثنى سبحانه من الناس الذين نسب إليهم هذا الخير أهل الإيمان والتقوى، والدين والهدى، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝... إلى قوله: فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝﴾، معنى ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ فهو: لصلاتهم لازمون لا يتركون منها شيئا، ولا يفرطون في المثابرة عليها واللزوم لها.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝﴾، يقول: يؤدون من أموالهم الحق الذي جعله الله من الزكاة عليهم، المعلوم فهو: المعروف بكيله ووزنه للسائل والمحروم، والسائل هو: الطالب المواجه بالطلب والسؤال، والمحروم فهو: المتعفف اللازم لمنزله الذي يتوهم الناس أنه مستغن لتعففه وقلة طلبه، فيحرمونه لذلك ما يعطون غيره ممن يمد يده للسؤال ويطلب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾، فيوم الدين هو: يوم القيامة، فهو: الجزاء بما تقدم من أعمال العباد، و﴿يُصَدِّقُونَ﴾ معناها: يوقنون به ويؤمنون.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝﴾، هو: خائفون وَجِلُون، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝﴾، ومعنى ﴿مَأْمُونٍ﴾ فهو: غير مندفع ولا منصرف عن أهله بل هو يقينا مواقع لهم، لا يطمعون في انصرافه عنهم، ولا يشكون في هجومه عليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝﴾، والفروج فهي: المذاكير التي جعلها الله سبحانه لهم لينالوا بها لذة الجماع، فأخبر عز وجل أنهم لها حافظون، وحفظهم لها فهو: ألا يجعلوها إلا في المواضع التي أحلها الله لهم من النساء، ألا تسمع كيف يقول عز وجل: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾، يقول سبحانه: إلا على نسائهم، ﴿أَوْ مَا

مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، فملك اليمين فهو: السراري من الإماء، ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝﴾ يقول: غير معاقبين في مداناة النساء وملك الإماء؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أطلق لهم ذلك فيما تسمع من القرآن.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝﴾، يقول: من ابتغى لفرجه موضعا غير نسائه، أو ملك يمينه من إمائه، فهم عادون، والعادون فهم: المعتدون لما جعل الله لهم، إلى ما حرم عليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝﴾، والأمانات فهو: صنوف، فمنها: أمانة الله عندهم فيما استرعاهم من حقه، وقلدهم من فرضه، ومنها: ما استأمنهم الله عليه من أداء ما جعل في قلوب العلماء من علمه، إلى من هو دونهم من خلقه، ومنها: ما استأمنهم عليه من أمواله التي قسمها بين من سمى في كتابه، فواجب على من استؤمن على شيء من أموال الله أن يؤديه إلى غاية الأمانة، ويوفره على غاية الوفارة، ومنها: ما يستأمن الناس عليه بعضهم بعضا من ودائعهم وأموالهم، فيجب عليهم في ذلك دفعها إلى أربابها، وتسليمها إلى أصحابها، ومن ذلك أمانة السر الذي يسره المؤمن إلى المؤمن، فواجب عليه أن يحفظ عليه سره، ولا يفشي عنه إلى غيره. وقوله: ﴿وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ وعهودهم فهي: ما أخذ الله على الخلق من الميثاق، والعهد بالتصديق بأنبيائه وكتبه، وما أخذ عليهم من العهود في القيام مع أوليائه، و النصر لمن نصره، وما أخذ عليهم من العهود في التعاون على البر والتقوى، وترك التعاون على الإثم والعدوان، الذي أنزل إليهم علمهما في القرآن، حين يقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]، ومعنى ﴿رَٰعُونَ﴾ فهو: حافظون مؤدون.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾، والشهادة فهو: كل حق عَلِمَه إنسان، من حق يجب لله على الخلق التكلم به والقول، أو حق لمسلم يعلمه مسلم من شهادة أشهده عليها، أو أمور احتاج إلى أن نطق له بالحق فيها، ومعنى ﴿قَآئِمُونَ﴾ فهم: ثابتون على الشهادة التي يعلمونها، لا يزولون عنها ولا يكتمونها، ولا ينقصون منها، ولا يزيدون فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾، ومعنى ﴿يُحَافِظُونَ﴾ فهم: عليها يداومون، ويحفظون أوقاتها التي جعلها الله لها، فهم على ذلك محافظون [1]، وله غير تاركين، ولا في شيء منه مفرطين.

ثم أخبر سبحانه بما أعد لمن كان على هذه الحالات، وكان من أهل هذه الصفات، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾، والجنات فهي: الجنان المذكورات عند الله سبحانه المعدودات لأهل الطاعات، و﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ فمعناه: مكرَّمون، ومعنى ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ فهو: مقربون مدنون معظمون، مثابون منعمون.

ثم أخبر سبحانه بحال الكافرين، وما هم عليه من الإعراض عن الله ورسوله، فقال: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾، يريد بقوله: ﴿فَمَالِ﴾ أي: فما بال. ﴿قِبَلَكَ﴾ عندك، ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ والمهطع فهو: المطأطئ الرأس، يقول: ما بالهم عندك مطأطئين رؤوسهم لا ينظرون إليك ، ولا يستمعون منك، ولا يقبلون بوجوههم عليك.

---

(١) في (ج): يحافظون.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝﴾، يريد: عن يمينك وعن شمالك، ﴿عِزِينَ﴾ أي: جماعات قليلات عن يمينك جماعات، وعن يسارك جماعات، كل مهطع برأسه، معرض بوجهه، لا يستمع إليك، ولا يقبل عليك.

ثم قال سبحانه: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝﴾، يريد بقوله: ﴿أَيَطْمَعُ﴾ أي: أيرجو ويأمل، ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾ والمرء فهو: الإنسان، ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾، وجنة النعيم فهي: جنة الفردوس، يقول سبحانه: إعراضهم عن الحق، واستغناؤهم عن الصدق، إعتراض من قد أمن العذاب، وأيقن بالثواب، وصح عنده أنه يدخل جنة نعيم، فهو: واثق بذلك، طامع أن يكون كذلك، فهو: معرض عما يُدعا إليه، لإيقانه بما يصير من الخير إليه.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّآ﴾ يريد: بـ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا تدخلونها أبدا، ولا يرونها بأعيانهم أصلا، إلا أن يتوبوا وينيبوا، ويصدقوك ويطيعوك فيؤمنوا.

ثم أخبر سبحانه بما خلقهم منه احتجاجا منه بذلك عليهم، وتقريرا منه على الحق به لهم، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝﴾، يريد بقوله: ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من الطين الذين خلقنا منه آدم عليه السلام، ومن الماء المهين الذي خلقنا منه بني آدم أجمعين.

ثم أقسم سبحانه بنفسه إنه لقادر على أن يبدل خيرا منهم، فقال عز وجل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝﴾، قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ يريد: أفلا أقسم، فطرح الألف وهو يريدها، ورب المشارق فهو: الله رب العالمين، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ

وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]، والمشارق فهو: مشارق الفلك المحيط بالأرض، وكذلك المغارب فهي: مغارب الفلك المحيط بالأرض، ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ يقول: إنا لمقتدرون مستطيعون، على أن نذهب هؤلاء الذين يكذبون، ونأتي بخلق خيرا منهم يصدقون بقولنا، ويؤمنون بغيبنا، فهذا معنى قوله: ﴿نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، يخبر سبحانه أنه لا يُسبق، ومعنى يسبق فهو: يفات وعنه يهرب، حتى يسبق بهربه الهارب الذي يهرب، فأخبر سبحانه أنه ليس منه مهرب، ولا للخلق كلهم عنه مذهب، وأنهم كلهم في قبضته، فأخبر سبحانه أن أحدا لن يسبقه، يريد يسبقه أي: يفوته ويذهب عنه، حتى يعجزه فلا يناله أمره، ولا يدركه حكمه، وحاش لله أن يكون كذلك، أو على شيء من ذلك، بل خلقه كلهم في يده، لا يفوته منهم فائت ولا يسبقه منهم سابق، وهو سبحانه لكلهم مدرك لاحق.

ثم قال سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾، معنى ﴿ذَرْهُمْ﴾، أي: دعهم وأمهلهم، ومعنى ﴿يَخُوضُوا۟﴾ فهو: يكذبوا ويتحيروا ويترددوا في الضلال، بما يصفون من الخوض مع الجهال، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ أي فهو: ليغتروا ويلهوا، فشبه الله تبارك وتعالى ما هم فيه من الباطل الذي لا أصل له، باللعب الذي لا ثبات له، واللعب فهو: ما لم يكن على حقيقة، ولم يأت منه شيء على وثيقة، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، فهو: يوم القيامة الذي فيه يجازون، ألا تسمع كيف بينه سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾، والأجداث فهي: القبور، ﴿سِرَاعًا﴾ فهو: سراعا مبتدرين، غير مبطين ولا متلبثين، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، والنصب فهو: شيء من الشَّعر تقوله

العرب تطرب فيه أصواتها، وترفع به كلامها، وتمد حروفه، وتطرب قوله، فإذا سمع السامع من قائله أقبل نحوه يستمعه موفضا، و الموفض فهو: المسرع، فضرب الله سرعة خروجهم من قبورهم، ونشرهم إلى موضع حشرهم، عند وقت نفخ الله في صورهم، بما يعرفون من سرعة الموفضين إلى النصب إذا سمعوه من ناصبه، واستطرفوه من قائله.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝﴾، معنى ﴿خَٰشِعَةً﴾ أي: منكسرة، غير مسرورة ولا منفتحة، قد خشعت أبصارهم، لهول ما رأت عيونهم، وخشوع البصر فهو: شيء ينزل بالبصر عند انحلال القوى، وضعف النفس، وذهاب القوة، والإيقان بالبلية، فأخبر الله سبحانه أن أبصارهم لإيقانهم بالعذاب منكسرة، خاشعة هالكة دامرة. ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ﴾، معنى ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾ فهو: تغشاهم، والذلة فهي: الخزي والمذلة، والمذلة فهي: تغشى وترهق، من أيقن بالنكال من الخلق.

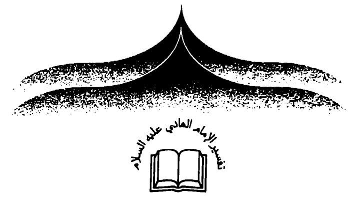
ثم قال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾، فأخبر جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، أن هذه الأشياء من خروجهم من الأجداث، وخشوع أبصارهم، ووقوع الذلة عليهم، يكون في اليوم الذي كانوا يوعدون، وهو يوم القيامة الذي كانوا به يكذبون، ولم يكونوا بشيء مما يذكر لهم فيه يصدقون.

٣٥٢) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝﴾ [المعارج: ٤١]؟

وأجل الله لهم هاهنا فهو: الأجل الذي أجله للعالمين، وجعله مدة لآجالهم

وعمرا لها، وهو المؤقت فإذا جاء الوقت الذي جعل الله إليه حياتهم، وبحلوله حلول وفاتهم، لم يؤخروا بعده، ولم يتأخر الأجل بعد حلوله طرفة، وكذلك قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤، النحل:٦١]، وكذلك معنى ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.





تفسير
سورة نوح





ومن سورة نوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطيبين وسلم تسليما، قال يحيى بن الحسين:)[1].

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، أي: نحن أرسلنا نوحا، وهو إخبار من الله عز وجل بأنه أرسل نوحا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ وقومه فهم: عشيرته وأهل بلده.

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾، معنى ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ فهو: إخبار من الله أيضا عما أمر به نبيه صلى الله عليه وآله من إنذار قومه، والإنذار فهو: التحذير والإخبار، والتخويف بوعيد الله والإنذار، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ يقول: أنذرهم وقوع العذاب قبل إتيانه لهم، وهجومه عليهم، فأخبرهم أنهم إن تابوا صرف عنهم، وإن أقاموا على المعاصي واقعهم، والأليم فهو: الشديد الذي نزل بهم من الغرق، وشدة العذاب والرهق.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾، فهذا قول نوح صلى الله عليه لقومه، فأخبر الله سبحانه بتبليغ نوح عليه السلام ما أُمر به من الرسالة من الإعذار إليهم والإنذار، والنذير فهو: المبلغ المحذر لأمر قبل أن يقع، فكان نوح صلى الله عليه نذيرا من الله لقومه محذرا لهم ما واقع من كان قبلهم من القرون الماضين من عذاب

---

(١) سقط من (ج): ما بين القوسين.

الله المهين، وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ فهو: المظهر لأمره المنير القول، المبين لهم حقيقة ما أنذرهم، الصادق في قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾، معنى ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: جئتكم نذيرا مبينا لأن تعبدوا الله، فطرح اللام فبقيت أن اعبدوا الله، والعرب تستعمل ذلك تقول: جئنا أن ترفدنا، تريد لأن ترفدنا، تطرح اللام وهي تريدها، فخرج الكلام كأنه خبر وهو إيجاب.

ومعنى ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هو: أطيعوا الله، وأقيموا ما افترض عليكم من فروضه، وأمركم به من أموره، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ معناها: خافوه ولا تعصوه، وصدقوا وعيده ولا تكذبوه، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ يقول: وأطيعوني ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾، فطرح الياء، فقامت الياء التي في ﴿يَغْفِرْ﴾ مقامها، ومعنى أطيعوني فهو: اقبلوا قولي، واستنصحوا أمري، ولا تستغشوني، وتعصوني فيما آمركم من طاعة ربي، فتمادوا في معاصيه، والفعل بما لا يرضيه، فتهلكوا بذلك وتُدَمَّرُوا.

ثم قال صلى الله عليه: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: إن أطعتموني فاتبعتم رضى الله، وتركتم معصيته، غفر لكم بذلك من ذنوبكم، ومعنى قوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ هو: يغفر لكم من ذنوبكم ما كان مهلكا من كبائرها، ومحققا عليكم الوعيد منها، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ يقول: يدفع عنكم العذاب الذي نزل بكم عند معاصيكم، حتى تبلغوا الأجل الذي سماه لكم، وجعله سبحانه غاية على السلامة [1] لحياتكم؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل للعباد أجلا على الطاعة، ثم هو سبحانه المتولي في ذلك للعقوبة، فإن شاء عاجلهم بالعقوبة فقطع آجالهم

---

(١) في (ج): السلام.

بالمعصية التي كانت منهم، فلم يبلغوا ما أَجَّلَ الله لهم من الأجل على الطاعة إذ لم يكن منهم الطاعة، فنزل بهم العقاب فقطع مدتهم عما وَقَّتَ لهم من الآجال على الطاعة لهم، وقوله: ﴿مُّسَمًّى﴾ فمعناه أي: معروف مجعول.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، معنى قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ يريد صلى الله عليه: إن عقوبة الله التي تقطع آجالكم إذا نزلت بكم لا تؤخر عنكم إلى الغاية التي جعلت لكم على الطاعة، ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يقول: لو كنتم تعقلون وتفهمون ذلك، وتدرونه على حقيقة المعرفة، فأخبرهم بذلك أن الأجل عند الله أجل أجَّله لهم على التوبة والإنابة ولزوم الطاعة، فأخبرهم أنهم إن كانوا كذلك استوفوه، وإن عَنَدُوا عن الطاعة وارتكبوا المعصية نزل بهم العذاب القاطع لهم عن بلوغ ذلك الأجل المؤجل لهم، الذي ذكرنا على الطاعة منهم، وهذا الأمر الذي ذكرناه أنه ينزل من الله تبارك وتعالى بأعدائه فيهلكهم عند نسيانهم له وإيسافهم، وإقدامهم على معاصيه، واقترابهم من العذاب المهلك المستأصل، فهو: قول نوح صلى الله عليه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أراد صلى الله عليه: إن عقوبته التي تقطع آجالكم إذا حقت عليكم بفعلكم لم تؤخر عنكم، ولم يردَّ أجل السلامة الذي جعله أمدا لمن سلم من عقوبته، وهذا من فعل الله سبحانه، وقتله بعذابه لمن قتل من أعدائه المستحقين لعقوبته، كقتل بعض الناس بعضا، فكأن الله عز وجل بما أنزل من الفاسقين من العقوبة والتهلكة، قاطعا لآجالهم التي أجلها على السلامة؛ لأن الله تبارك وتعالى قد جعل في الخلق استطاعة، يقدرون بها على المعصية والطاعة، وينالون بها قتل المقتولين، وغير ذلك من ظلم المظلومين، والإحسان إلى من أحبوا الإحسان إليه، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ

وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢].

ثم أخبر سبحانه بقول نوح عليه السلام من بعد الإعذار والإنذار إلى قومه، وما كان من الصد منهم عن تذكيره، وقلة الإلتفات إلى شيء مما جاء به من ربه، فقال: ﴿إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝﴾، ومعنى ﴿إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي﴾ هو: إني ناديت قومي إلى ربي، ودعوتهم إلى طاعة خالقي، ﴿لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ يقول: دعوتهم في الليل والنهار إليك، ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝﴾، يقول: لم يزدادوا بدعائي ربي [1] وإنذاري ودعائي واحتجاجي عليهم ﴿إِلَّا فِرَارٗا﴾، يقول: إعراضا وصدودا واجتراء علي، واستهزاء بي.

ثم قال صلى الله عليه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝﴾، يريد بقوله: ﴿كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ﴾: ليعملوا عملا صالحا تغفر به ذنوبهم، وتتجاوز عن سيئاتهم، ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ يقول: سدوها بأصابعهم فأدخلوها في آذانهم، لكيلا يسمعوا قولي ودعائي إعراضا منهم عنك، وكفرا منهم سبحانك بك، وبغضا لما أدعوهم إليه، واستثقالا لما أناديهم به ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ يريد: غطوا رؤوسهم بثيابهم وولوا مدبرين، وهذا فعال يفعله كل من استثقل شيئا وكرهه، ولم يحب أن يسمعه ولا يعاينه، فكانوا يغطون رؤوسهم ووجوههم لئلا يعرفهم، فيدعوهم إلى ما كان يدعوهم إليه، ويحضهم من طاعة الله على ما كان يحضهم عليه، ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ يريد: أضمروا المعصية وأقاموا على التكذيب، والإصرار على الشيء فهو:

---

(١) في (أ): بدعاء ربي.

الإقامة عليه، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ معناها: تجبروا تجبرا، وخالفوا وعتوا تكبرا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝﴾، يريد صلى الله عليه: دعوتهم مباينة مكاشفة، وناديتهم بالدعوة مناداة ظاهرة، لا أسترها على أحد منهم، ولا أخفيها عنهم، فهذا معنى ﴿جِهَارٗا﴾.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝﴾، يريد بقوله: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ﴾ أي: أخبرتهم بما ينزل عليهم من العذاب إن عصوا، أو داموا على ما هم عليه وعتوا، ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ﴾ يريد: كلمتهم في السر بذلك والعلانية؛ لأن الإسرار هو الإخفاء، فيقول: أخفيت دعائي وإعذاري وإنذاري، وأعلنت به، وأتيت من تأكيد الحجة عليهم في ذلك على كل معنى، وأتيت من إكمال الحجة عليهم على الأقصى.

ثم ابتدأ بعد ما أخبر به من اجتهاده في الدعاء لهم سرا وعلانية الخبر عن قوله لهم قوله: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝﴾، معنى ﴿فَقُلۡتُ﴾ فهو: أمرت، ومعنى ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ أي: توبوا وارجعوا، يقول: أمرتهم بالتوبة إلى ربهم، والرجوع إلى خالقهم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ يقول: إنه كان للتائبين غفارا، ﴿غَفَّارٗا﴾ فهو: غفور، والغفور فهو: العافي عما تقدم، تقول العرب: غفرت لك ذنبك، أي: صفحت عنه وتركته ولم أعاقبك عليه، ولم آخذك بالجزاء فيه.

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝﴾، أي: أنكم إن تبتم ورجعتم إلى الله سبحانه وأخلصتم، أرسل السماء عليكم مدرارا، وإرسال السماء فهو: إرسال ما فيها من المطر لا إرسالها في نفسها، والسماء هاهنا فهي: السحاب الذي يكون فيها[1]

---

(١) في (ج): لي. مصحفة.

المطر لا السماء الخضراء، التي هي السماء العليا، والعرب تسمي السحاب سماء، تقول: كانت على بلد كذا وكذا سماء حسنة، تريد: سحابا حسنا، فقال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، فقال: القرية والعير، وإنما أراد أهل القرية وأهل العير، لا القرية بعينها ولا العير، وكذلك تقول العرب كلهم، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣]، فقال: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ والعجل لا تشربه القلوب، وإنما أراد شربوا في قلوبهم حب العجل، فطرح حب، وأقام العجل مقامه، والعرب تفعل هذا بالشيء الذي من جنس الشيء المنسوب إليه، المعروف الكائن منه وفيه، وفي ذلك ما قال شاعر من العرب:

ألا إنني أسقيت أسود حالكا الأبجلي من ذا الشراب الأبجل[1]

يريد: سقيت سما أسود حالكا، والأسود فهو: الحية فقال: سقيت أسود، وليس الأسود يسقاه الناس، وإنما يسقون سمه، فأقام الأسود مقام السم؛ لأنه منه وإليه، يعرف به ويستدل به عليه، ومعنى قوله: ﴿مِّدْرَارًا﴾، أي: كثيرا درّارا، والدرّارّ فهو: التابع المتوالي الذي لا ينقطع بعضه من بعض.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾، فمعنى ﴿وَيُمْدِدْكُم﴾ أي: يعطيكم، ويزيدكم ويقويكم، والأموال فهي: ما كان من الذهب والفضة، والحرث والأشجار والأنهار، وكل شيء يجلب به المال، والبنون فهم: الذكران من الأولاد.

﴿وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ معنى ﴿وَيَجْعَل﴾ فهو:

---

(١) سبق تخريجه.

يرزق ويفعل، والجنات فهي: البساتين ذوات الأنهار، والأشجار والثمار، والأنهار فهي: المياه الجارية المتفجرة الكثيرة، الحاملة الغزيرة.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾، ومعنى ﴿تَرْجُونَ﴾ فهو: تفعلون، ومعنى تفعلون فهو: تصنعون، ومعنى ﴿وَقَارًا﴾ فهو: إعزازا وإكبارا وإجلالا وإعظاما، يريد عليه السلام: ما لكم لا توقرون الله وتجلونه وتقدسونه وتنزهونه عما تقولون فيه، وتنسبون من الكذب إليه.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾، والأطوار فهي: الحالات المختلفة، أو الأصناف المفترقة، والشعوب المؤتلفة وغير المؤتلفة، في الألوان والألسنة والخلق والهيئة، وقد يمكن أن تكون الأطوار هي: تنقيل الله لمن يخلقه في الرحم من حال إلى حال، من النطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة، ومن المضغة إلى العظام، ثم من حال إلى حال، حتى يكمل ما أراد من خلقه، ويظهر ما شاء من فطرته، والمعنى الأول فأحسنهما عندي، وكلاهما فيجوز ولا يمتنع في المعنى.

ثم احتج عليهم صلى الله عليه بما فيه الشواهد لله على قدرته، و تصديق ما بعث به نبيه عليه السلام من وعيده ووعده، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾، يقول: ألم تبصروا وتعاينوا أثر قدرته فيما خلق من سمواته السبع الطباق، فتستدلوا بذلك على أنه الله الواحد الخلاق، و الطباق فهي: الطبقات طبقة مجعولة فوقها مركبة، بين كل سماء وسماء ما شاء الله سبحانه من البعد والهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾، فمعنى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ﴾ أي: خلقه وصوره، وجعله فيهن نورا وقدره، فلما كان القمر في

بعضهن، وهي السماء الدنيا، جاز أن يقال: فيهن إذ كان في بعضهن، وكذلك يقول القائل من العرب: نزلت في العراق، وإنما نزل في بعضه ولم ينزل في كله، ويقول: خضت البحر، وإنما خاض طرفه وبعضه، فقال: خضت البحر ولم يخض منه إلا اليسير، وقد بقي منه الكثير، وكذلك يقول القائل: رميت في عسكرهم بسهم، وإنما رمى في جانب منه، ولم يرم في كله، فعلى هذا المعنى يخرج قول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، وإنما هو في واحدة.

معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ والسراج فهو: النور المتوقد الذي يضيء به ما بين السماء والأرض، فلما أن أضاء بالشمس ما بينهما، كانت كما قال الله: ﴿سِرَاجًا﴾ فيهما.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝﴾، فمعنى ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ فهو: خلقكم، والمخلوق من الأرض فهو: أبو الخلق آدم عليه السلام، فلما أن كان خَلقُه من التراب وابتداؤه، وجعله واقتضاؤه، جاز أن يقول لمن كان منه: أنبتكم من التراب، إذ أصلهم منه كان، وعنه بقدرة الله بان. و﴿نَبَاتًا﴾ فهو: خلقا من التراب وتصويرا، وجعلا[1] منه وتقديرا.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝﴾، فمعنى ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ أي: يردكم فيها من بعد موتكم، ومعنى ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ فهو: يحييكم بعد الموت ويخرجكم من الأرض بعد الفناء والبلى، والمصير إلى الرفات في الثرى، في يوم

---

(١) في (أ) و (ج): وجعله. مصحفة.

الدين، وحشر العالمين، ﴿إِخْرَاجًا﴾ فهو: خروجا حقا، وقولا صدقا، لا يخامره باطل ولا محال، ولا فساد في قول ولا فعال.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾، فمعنى ﴿جَعَلَ﴾ أي: فعل وسوى، وبسط ودحا، و﴿بِسَاطًا﴾ فهو: فراشا مبسوطا يرقد عليه، ويوافي في كل الحالات إليه، فشبه الأرض في انبساطها للخلق بالبساط المبسوط لهم، الذي يجلسون عليه، إذ كانت لهم مضجعا ومفترشا، ومأوى ومنبسطا. ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾، يقول سبحانه: جعلناها لكم بساطا منبسطا طويلا عريضا ذا بعد ومدى، ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا﴾: لتسيروا فيها ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ والسبل فهي: الطرق، وفجاجا فهو: جوانبا وشعابا؛ لأن الفج هو: الشعب العظيم من الأرض، والجانب الواسع الذي يكون بين الجبال، فسمى ذلك فجاجا.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾، معنى ﴿عَصَوْنِي﴾ أي: خالفوني ولم يطيعوني، وجنبوا عن أمري، واستخفوا بدعوتي ﴿وَٱتَّبَعُوا﴾ فهو: أطاعوا وأحبوا وأرادوا ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ يقول: لم يزده ما رزقته من المال والولد إلا خسارا، أي: كفرانا وعصيانا حتى خسر بماله وولده ما ربح المؤمن بهما، من الشكر لربه سبحانه عليهما، فصار لنعم الله خاسرا؛ إذ كان له في ذلك غير شاكر، وبما أعطاه منه غير ذاكر.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾، يعني نوح صلى الله عليه: قومه، ومعنى ﴿وَمَكَرُوا﴾ فهو: تخبثوا وتحيلوا عليَّ، وأداروا دوائر السوء فيَّ، و﴿كُبَّارًا﴾ فهو: مكرا كبيرا عظيما كثيرا، والمكر فهو: ما ذكرنا من البغي والخدائع.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾، وهذا قول من قوم نوح صلى الله عليه حين دعاهم إلى الله، وأمرهم بترك ما يعبدون من دون الله، فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وهو قول من بعضهم [١] لبعض، وآلهتهم فهي: الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، ومعنى ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾ فهو: لا تتركنَّ ولا تخلنَّ، ولا تفارقوا ولا تَدَعُنَّ.

﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾، فهؤلاء الأصنام كلها أصنام كانت تُعبد من دون الله، فأما سواع ويغوث ويعوق ونسرا فكانت باليمن، وأما ود فكان بدومة الجندل، وأما سواع فكان بجوف همدان، وأما يعوق فكان بخيوان، وأما يغوث فكان في حمير، وأما نسر فكان في مراد مذحج، وكان قوم نوح يجلونها ويعظمونها وإن لم تكن عندهم، فتعلقوا بعبادتها، وتآمروا بأن لا يخلوا عنها ولا يتركوها، وأن يثبتوا عليها، ويخالفوا نوحا صلى الله عليه وما يدعو إليه، ثم قال عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ ومعنى ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ يخرج على معنيين:

فأما أحدهما: فعلى مجاز الكلام فيكون عنى صلى الله عليه الأصنام، فجاز أن يقال: أضلوا لما أن كان الضلال عن غيرها بأسبابها، جاز أن يقال: أضلوا.

والمعنى الآخر: أن يكون عنى بالإضلال من يدعو إلى عبادة الأصنام من الناس من قومهم وغيرهم، وهذا عندي أشبه المعنيين [٢] وأحسنهما.

---

(١) في (ج): بعض.

(٢) في (ج): بالمعنيين.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝﴾، فهي: دعوة من نوح عليه السلام على الظالمين أن لا يزيدهم الله إلا ضلالا، والضلال فهو: الخذلان، فسأل الله سبحانه نوح صلى الله عليه أن يزيد مَن عصاه خذلانا وشقاء، حتى يكون ذلك مستوجبا للعذاب والبلاء.

ثم أخبر سبحانه بما نزل عليهم من العذاب الذي حل بهم، فأغرق كل من كان منهم فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾، فمعنى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ فهو: بخطيئاتهم أغرقوا، ومعنى ﴿مِّنْ﴾ معنى الباء، أراد: بخطيئاتهم أغرقوا، فأقام مِن مقام الباء؛ لأنها من حروف الصفات يخلف بعضها بعضا، وقد تقدم شرحنا في ذلك، وذهبت النون من لأنها أدغمت في الميم فبقي مما خطيئاتهم، وما هاهنا فهي صلة، المعنى فيها: من خطيئاتهم، ومعنى من خطيئاتهم فهو: بخطيئاتهم، فقامت مِن مقام الباء، أراد بخطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا من بعد الإغراق، وخطيئاتهم فهي: ذنوبهم وعصيانهم لربهم الذي به هلكوا، وبسببه أغرقوا.

﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي: صُيِّروا إلى النار، وجعلت لهم موضعا وقرارا، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝﴾ يقول: لم يكن لهم مدافع لله عنهم، ولا ناصر منه لهم يدفع عنهم ما نزل بهم من عذابه، ولا يحجز عنهم ما حكم به من إغراقهم، على ما كان من عصيانهم، و ﴿أَنصَارًا﴾، والأنصار فهم: المدافعون عنهم من الأعوان.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝﴾، فهذا دعاء من نوح صلى الله عليه على الكافرين، ومعنى ﴿لَا تَذَرْ﴾ أي: لا تترك ولا تدع،

ومعنى ﴿عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو: في الأرض، والكافرون فهم: العاصون الفجرة المكذبون، ﴿دَيَّارًا﴾ فهو: أحد يدور؛ لأن ديارا مشتقة من يدور، ومعنى يدور فهو: يجول في الأرض ويجوب، وسواء قيل: ديارا، أو دوارا؛ لأن العرب تقيم الياء مقام الواو، والواو مقام الياء، في كلامها وأشعارها.

قوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ۝﴾، هذا قول من نوح عليه السلام يقول: إنك يا رب إن تذرهم ولا تأخذهم، يضلوا عبادك الذين يقدرون عليهم، وينالون إضلالهم، ومعنى ﴿يُضِلُّواْ﴾ أي: يهلكوا ويغووا ويفسدوا ويكفروا من قدروا عليه من جهلة العباد، حتى يُفسدوا بذلك البلاد، ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ﴾ يقول: لا يخرج من أصلابهم إلا ولد يتبعهم في كفرهم، ويساعفهم [1] في تكذيبهم، ويتبعهم في دينهم، فيكون بفعله ذلك فاجرا، كفارا فاسقا غادرا.

ثم دعا صلى الله عليه لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ، ومعنى ﴿دَخَلَ بَيۡتِيَ﴾ فهو: دخل إلى بيتي، ودخل في ديني مؤمنا مصححا، فكان بذلك مني ومن أهل ملتي، ألا تسمع كيف يقول: ﴿مُؤۡمِنٗا﴾ يريد أي: دخل إلي بقلب مؤمن، ونية صادقة، والمؤمنون فهم: المطيعون الذين قد أمنوا أنفسهم بطاعة ربهم، من وقوع عذابه عليهم، وكذلك معنى ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

ثم قال صلى الله عليه تكريرا للدعاء على الفاسقين، وتقربا بذلك إلى رب

---

(١) ويساعفهم. قال في لسان العرب: والاسعاف والمساعفة: المساعدة، والمواتاة، والقرب في حسن مصافاة ومعاونة.

العالمين، فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ والظالمون فمعناها: الذين ظلموا أنفسهم بإدخالها في معاصي ربهم، حتى استوجبوا منه بذلك الفعل ما استوجبوا من العقاب، ومن ظلمهم لأنفسهم وظلمهم لعباد ربهم، وغير ذلك من سائر أفعالهم، المحرمة في دين الله عليهم، قوله: ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ فمعنى التبار فهو: البوار، ومعنى البوار فهو: الذهاب، والفناء والنقصان في كل الأسباب.

٣٥٣) وإن سأل فقال: خبِّرونا عن قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح:١٥-١٦]، فقال: ما معنى قوله: ترون ونحن لم نر؟

قيل له: إن القرآن عربي، وإنها خاطب الله العرب بلغاتها، وهذا عند العرب أحسن لغاتها، وأتم قالاتها، تقيم ترى مقام أخبرك، ومقام اعلم، يقول العربي لصاحبه إذا أراد أن يعلمه شيئا: أما رأيت إلى فلان عمل كذا وكذا !!

فإن قال: كيف يكون القمر والشمس في السماوات وإنها هو دون الأولى منهن، وقد ترون إلى [أن بين] [1] كل سماء وبين التي فوقها مثل ما بين الأرض وسماء الدنيا، فكيف يكون فيهن [2] أو ينالهن كلهن، وأنتم لو سترتم دونه ثوبا لم تروه، ولو دخلتم بيتا لم تعاينوه؟!

قيل له: هذا أحسن ما تكلم به العرب، مثل ذلك وأوضحه، وأبينه وأوجزه، ألا ترى أن العرب تقول للجماعة إذا كان فيها عالم، أو لأهل البيت الكبير: في بني

---

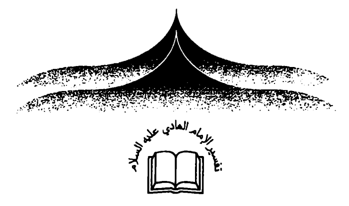
(١) في (أ): إلى تميز كل... لعلها مصحفة.

(٢) في (أ): فيهم. وما أثبت اجتهاد.

فلان علم وخير، وعدد بني فلان كثير، ولذلك تقول العرب: بالعراق فسق كثير، وبالحجاز جور شديد، وليس الفجور في جميعه [١] كله، سهله ولا جبله، ولعل ذلك إنها هو جانب من قُراها [٢]، أو في قرية واحدة منه، فنسب ذلك إذ [٣] كانت القرية فيه، فعلى ذلك ينسب الله القمر إلى السماوات، وإن كانت واحدة لأنها منها، وفي ذلك ما تقول العرب: إن في بني فلان لجمالا بارعا، وليس في كلهم جمال، وإنما هو [٤] في بعضهم [٥].



(١) في (أ): جميع.
(٢) في (أ): قرايها. لعلها مصحفة.
(٣) في (أ): إذا.
(٤) في (أ): هي. لعلها مصحفة.
(٥) سقط من (ب): هذا السؤال والجواب.



تفسير

سورة الجن





تفسير سورة الجن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ معنى ﴿قُلْ﴾ أي: خَبِّر واذكر، ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أي: أنْزل عليَّ وأخبرت، ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، أي: حضر واستمع قولي وقراءتي ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فهي: جماعة من الجن، والجن فهم: الشياطين، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾، معنى ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: ذكروا وأخبروا، ومعنى ﴿إِنَّا﴾ هو: إخبار عما كانوا معهم، ومعنى ﴿سَمِعْنَا﴾ أي: وقع في آذاننا كلام وسمعناه، ﴿قُرْءَانًا﴾ فهو: كتاب الله الذي سمعت الجن من رسول الله، ﴿عَجَبًا﴾ أي: جيدا، محكما بيِّن الهدى.

﴿ ٱلرُّشْدِ إِلَى يَهْدِىٓ﴾ يقول: يدل بها على الرشد ويوضحه، ويبينه ويشرحه، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، يقول: صدقنا به أنه من عند ربنا، وأن الذي جاء به نبينا، ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ أي: لا نكفر بربنا، ولا نشركه معه في طاعته، ولا العمل إلا له خالصا، ومعنى ﴿أَحَدًا﴾ أي: يقول خلقا صغيرا ولا كبيرا.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ فمعنى ﴿تَعَٰلَىٰ ﴾ هو: تقدس وعلا، وعظم عن مشابهة شيء من الأشياء، ومعنى ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: أمر ربنا وفعله، يقول تعالى أمره، وعظم شأنه، ومعنى ﴿رَبِّنَا﴾ هو: مالكنا وخالقنا.

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ فهو: إقرار من الجن بتوحيد الله سبحانه،

وشهادة منهم أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا[1]، ومعنى ﴿ٱتَّخَذَ﴾ فهو: جعل وأعد، ومعنى ﴿صَٰحِبَةً﴾ فهو: الزوجة التي يسكن الزوج إليها، وينتفع في كل الحالات بها، والولد فهو: الذي يخرج من الأب ومن الزوجة معا، فأخبر الله سبحانه عن مؤمني الجن بما شهدوا به من شهادة الحق، وما قالوا به في الله من قول الصدق، ومن أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وكيف يتخذ جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، وتعالى عن قول المبطلين شأنه، صاحبة أو ولدا، وإنما يحتاج إلى الصاحبة المجعول المؤلف المتولد الذي كان من الصاحبة والوالد، فأما من لم يكن من صاحبة ولا والد، فلن يكون له صاحبة ولا ولد، بل هو الواحد الدائم الأحد، الفرد القدوس القديم الصمد، الذي لا يشبهه أحد، ولا يغيره الأبد، فذلك الله الواحد الفرد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، وهذا القول كان من الجن لما أن سمعوا رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله يقرأ القرآن في صلاة الصبح يوما من

---

(١) أخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن عباس قال: انطلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: أحيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك الذين ذهبوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقال: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾، فأنزل الله على نبيه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، وإنما أوحى إليه قول الجن. الدر المنثور ٨/ ٢٩٦ – ٢٩٧.

الأيام، وذلك أن الله سبحانه صرف إليه نفرا من الجن استمعوا ما يتلو فيؤدوه إلى جميع الجن، ليكون ذلك دعوة منه لهم، واحتجاجا منه عليهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف:٢٩]، فأتوا إلى رسول الله صلَّى الله عليه وآله، فلما أن سمعوا ما يتلو من كتاب الله قالوا ما ذكر الله من هذا القول، والإيمان به والتصديق له، والإقرار برسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلم، فقبلوا ذلك بأحسن قبول يكون من القابلين، ثم تولوا إلى قومهم منذرين، ثم كان من إقرارهم على سفهائهم الجاحدين به، بحجج نبيئهم بالكفران، والشطط والعصيان، وذلك قولهم:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾، ومعنى ﴿كَانَ يَقُولُ﴾ أي: لم يزل يقول ﴿سَفِيهُنَا﴾ أي: كافرنا ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ فهو: كذبا وزورا وباطلا، وأمرا جسيما جليلا؛ لأن الشطط في كل معنى هو الأمر الصعب العظيم.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾، ومعنى ﴿ظَنَنَّآ﴾: أيقنا، ومعنى ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: أن شرار الإنس والجن يقولون على الله الكذب، ولن هاهنا حشو وتزيين للكلام.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾، فهذا إخبار من الله عز وجل عمن كان من الإنس يعوذون بالجن، ومعنى ﴿يَعُوذُونَ﴾ فهو: يلوذون ويستجيرون، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: فزادوهم إثما وبلاء، ولم ينفعوهم في شيء من الأشياء، التي طلبوا منفعتهم فيها، ليزدادوا بفعلهم رهقا، والرهق فهو: ما ذكرنا من الإثم عند الله والضرر، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا نزلوا واديا أو فضاء من الأرض في مجمعة أو سفر، قالوا عند وقت

نزولهم، وحطهم لرحالهم: إنا نعوذ بكبراء أهل هذا الوادي وسكانه من الجن، من شر شرارهم، فكانوا كذلك، فيعوذون بالجن ويتركون التعوذ بالله، فأخبر الله سبحانه أن ذلك يزيدهم إثما، وبلاء، وجرما، ولا يرون به منفعة ولا رخاء، ومعنى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: زادوهم بتعوذهم إثما وبلاء.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝﴾، معنى ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ فهم: سفهاء الجن كانوا يظنون كما يظن أهل الجاهلية من الإنس، ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: أن لن يبعث الله رسولا إليهم، فكانوا في الإنكار للرسل هم وسفهة الإنس سواء، حتى جاءهم من الله البيان، ووضح لهم الحق بأوضح البرهان، ومعنى ﴿يَبْعَثَ﴾ فهو: يرسل رسولا يحتج بحجته، ويدعو الثقلين إلى طاعته.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝﴾، فمعنى ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: حسسناها واستخبرنا خبرها، ودانيناها لنعلم أمرها، وما هذا[1] الذي حدث فيها؟ ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ أي: وجدنا من أمرها وخبرها أنها ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا﴾، ومعنى ﴿مُلِئَتْ﴾ أي: جعل فيها كلها حتى أحصيت، والحرس فهم: الملائكة صلوات الله عليهم، الذين يحرسون مقاعد السماء وأقطارها، من مردة الجن وشياطينهم لكي لا يأخذوا شيئا من أخبارها، ومعنى ﴿شَدِيدًا﴾ فهو: قويا حافظا، ﴿شُهُبًا﴾ فمعناها: نجوما متوقدة، جعلت لهم رجوما، وإنما سميت شهبا لتوقدها وتلهبها، فشبهت بالمنار في توقدها، وهذه النجوم فلم يكن يرمى بها[2] من قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فلما بعث رسول الله صلَّى الله عليه وآله

---

(١) في (ب): لنعلم أمرها هذا. وفي (ج): لنعلم خبر أمرها.

(٢) سقط من (ج): بها.

وتنبأ ونزل عليه من الله الوحي، حرست السماء ممن كان يقعد من مردة الشياطين في مقاعدها، وتسمع أخبار ملائكتها، فتنزل به إلى إخوانهم من كهنة الأرض، فأراد الله تبارك وتعالى أن يبطل أخبار الكهنة، حتى لا يعلم أحد من أهل الأرض شيئا من أخبار السماء، فمنع سبحانه الشياطين من استراق السمع بهذه الشهب التي تقذفهم الملائكة بها، التي حرسها سبحانه عليهم وأمرها بهم، كرامة منه لنبيئه صلّى الله عليه وعلى آله، وحياطة لوحيه، لئلا ينزل إلى الأرض من علم السماء شيء إلا على لسان نبيئه صلى الله عليه وعلى آله، وقد كانت الشياطين تسترق من أخبار الملائكة وتخابرها بينها بما يأتيها من الله ربها من أمره لها، بما يكون من سقي البلاد وغيره، من أخبار ما يأمر الله به ملائكته، تتخابر به الملائكة بينها في السماء الدنيا، فتسترقه مردة الشياطين، وتنزل به إلى كهنة الأرض، فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله نبيئه صلى الله عليه وعلى آله، فحجبت الشياطين عما كانت عليه بهذه النجوم التي تقذفها بها عند طلبها ما كانت عليه من استماعها، ألا تسمع كيف قالت الجن عند ذلك: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾، فأخبر أنها كانت تقعد من السماء مقاعد، والمقاعد فهي: المواضع التي يصعد فيها من يقعد فيها للإستماع، ثم قال: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ يريد: فمن يقعد الآن للإستماع يجد له شهابا رصدا، يقول: يجد له نجما منها رصدا، أي: مستعدا، فيقذف به عندما يكون من مداناته.

ثم قالوا عندما عاينوا من تلك الشهب المستعدة لهم، الراصدة لمن طمع بالإستماع بعد مبعث محمد صلى الله عليه وعلى آله منهم، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾، يقولون: لا ندري أهذا الذي حدث من أمر الله أَلِشَرٍّ يريد أن يجعله في الأرض يهلك به أهلها، أم لرشدٍ

ينزله فيها فيتفضل به على سكانها، والشر فهو: العذاب والبلاء، والرشد فهو: الخير والرحمة والهدى، ولعمري لقد جعل الله عز وجل بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلم في الأرض كل هدى وكل خير ورخاء.

ثم رجع الخبر إلى قول النفر الذين صُرفوا من الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فاستمعوا منه وذهبوا إلى قومهم منذرين، فحكى قولهم وهو قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝﴾، فأخبروا أن منهم الصالحون، والصالحون فهم: المؤمنون، وأن منهم دون ذلك، بقول: دون المؤمنين، ومن كان دون المؤمنين فهو: من الكافرين.

ثم أخبر سبحانه عن أنفسهم أنهم في الاختلاف ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، والطرائق فهي: الألوان المختلفة، والأشياء التي هي غير مؤتلفة، فأخبروا أنهم مختلفون في المعرفة بالله والطاعة له، فمنهم المؤمن التقي، ومنهم المنافق الردي، ومنهم الكافر الغوي، و﴿قِدَدًا﴾ فمعناها: بددا، ومعنى بددا أي: شعوبا فرقا.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾، فمعنى ﴿ظَنَنَّا﴾ أي: أيقنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ﴾، ثبتت هاهنا (لن)، ولم تثبت في قوله: ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝﴾ [الجن:٥]، أرادوا: أنهم موقنون أنهم لن يعجزوا الله في الأرض إن استتروا بها، وكانوا تحتها وفي أكنافها، وأنهم لن يعجزوه هربا إن ذهبوا في الأرض هاربين، ومن مخافته طائرين، فأقروا بقولهم ما قالوا من ذلك بقدرة الله عليهم، وأنه لا مهرب منه إلا إليه، وأنه لن يعجز الله أحد ممن في الأرض ولا ممن في السماء، لا من مقيم ولا ممن ذهب على وجهه هربا.

ثم أخبر بما كان منهم من القبول للهدى، فقال: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ

ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، والهدى الذي أخبروا أنهم سمعوه، فهو: كتاب الله الذي قبلوه، ومعنى ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فهو: صدقنا به، ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ يقول: يصدق بقول ربه ووعده ووعيده، فقد آمن به حق إيمانه.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ يقول: لا يخاف مع إيمانه بخسا، والبخس فهو: نقصان الثواب، ونقص ما جعل الله للمحسنين على إحسانهم، وقوله: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ يريد: ولا يخاف من الله إرهاقا بعذاب، ولا حكما عليه بإثم في شيء من الأسباب.

ثم قال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾، فأخبر مؤمنوا الجن أن منهم المسلمون [1] في دينهم، ومنهم القاسطون في فعلهم، فأما المسلمون فهم: المستسلمون لأمر الله القابلون له، وأما القاسطون فمعناها: العادلون بالله غيره، والعادلون فمعناها: العابدون معه سواه، والمطيعون غيره، والعاصون له، ومن العادلين المشبهون له، ومن العادلين: المجورون له، الذين عدلوه [2] بغيره، ومعنى عدلوه أي: شبهوه ومثلوه بخلقه.

ثم أخبر مؤمنوا الجن بما أخبرهم الله تصديقا لوعده ووعيده، فقال: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ يريد أي: فعلوا صوابا وقبلوا هدى.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾، يقول: صاروا بفعلهم وقودا لجهنم وحطبا لها، أي: تحرقهم وتوقد بهم، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

---

(١) كذا في جميع المخطوطات برفع (المسلمون).

(٢) في (ج): عدلوا.

ثم انقضى قول مؤمني الجن، ورجع القول والخبر إلى الله ذي القدرة والطول، ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾، يعني بالاستقامة: بني آدم، يقول سبحانه: لو استقاموا على الطاعة لنا، والطريقة هي: الأمر الذي افترضه الله عليهم، والطريق التي عليها أوقفهم من طاعته وعبادته، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ يقول: أنزلنا عليهم من السماء ﴿مَّآءً غَدَقًا﴾ والغدق فهو: الكثير.

ثم قال: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ وبه، فننظر شكرهم لنا عليه، أو كفرهم لنعمنا فيه، فأخبر أنهم لو كانوا على الحق ولزموه، لرأوا من نعم الله ما لن يحصوه [١]، وأنزل عليهم من الماء ما يحيي به بلادهم، وتكثر به ثمارهم، ويزيد في أموالهم، ويوسع عليهم نعمهم، ويشبع بطونهم، كما قال سبحانه في غير هذه السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦]، فأخبر سبحانه أنه ليس بين عباده وبين كراماته إلا ما هم عليه من معاصيه، والأثرة لما لا يرضيه.

ثم قال: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ ومعنى ﴿يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ هو: يترك ذكر ربه، ومعنى ﴿ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ فهو: خوف ربه وطاعته، ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا﴾ أي: يدخله فيه، وكذلك تقول العرب: اسلك موضع كذا وكذا، أي: ادخل فيه وامضه، وتقول: اسلك الخيط في الإبرة، وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى لموسى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ

---

(١) في (ج): يحصون.

سُوٓءٍ ﴿٣٢﴾ [القصص:٣٢]، يريد: ادخلها جيبك ثم أخرجها، ومعنى ﴿صَعَدًا﴾ فهو: التعب الشديد، فشبه الله سبحانه هذا العذاب مع غيره من العذاب بالصعد مع السهل على من سلكها، والصعد فهو: التصعيد في الجبل الشامخ الصعب المنتصب.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، فأخبر عز وجل أن بيوت الله ومساجده لله تبنى، وعلى طاعته تبتدى، ثم نهاهم أن يدعوا فيها غيره، ومعنى ﴿تَدْعُواْ﴾ فهو: تذكر وتعبد، فأمره الله بتوحيده وإخلاص العبادة له، وأمره له صلَّى الله عليه وآله فهو: أمر لجميع الأمة، أمرهم الله أن يكونوا له في العبادة كذلك، وأن لا يفعلوا كما يفعل أهل الكفر والمهالك، من اليهود والنصارى الذين يشركون مع الله غيره عند اجتماعهم في كنائسهم وَبِيَعِهم وأعيادهم وعبادتهم - بزعمهم لعنهم الله - لربهم، ويُدخلون في تلك الكنائس والبِيَع عبادة غير الله، وذكرهم المسيح والعزير وغير ذلك مما يأتون به ويذكرونه، في مواضعهم هذه من كفرهم.

ثم ذكر ما يكون من الكفرة الفاسقين، المحاربين لله ولرسوله عليه السلام المعاندين، عند قيام رسول الله صلَّى الله عليه وآله في مسجد الله يدعو الله ويوحده، وينفي عنه كل ظلم وينزهه، من الإجماع عليه بالقبيح من فعلهم، وما كادوه به من كيدهم، حتى صرف الله ذلك عنه، وسلمه برحمته صلَّى الله عليه وآله منه، فقال عز وجل مخبرا بمنته على عبده[1]: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾، يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لما قام يدعو الله ويوحده، كاد مشركوا قريش أن يكونوا عليه لبدا، ومعنى ﴿كَادُواْ﴾ فهو: أرادوا وهموا ولم

---

(١) في جميع المخطوطات: عبده فقال. لعلها زيادة سهو.

يفعلوا إذ لم يقدروا، و﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: فهم يَغْشَونه جميعا معا حتى يقعوا بأنفسهم عليه، ويبلغوا ما أملوا فيه، من الهلكة التي صرف الله سبحانه عن نبيئه تلفها، ومنعهم بعزته بلوغها، وذلك من قريش وغيرهم ممن تبهم كفرا بالله وحسدا لرسول الله صلى الله عليه وآله، فأرادوا أن يرموه بأنفسهم معا؛ لأن يجتثوه من الأرض اجتثاثا، فيستأصلوا شأفته صلى الله عليه وعلى آله استئصالا، غضبا عليه في طاعة الله، ومشاقة وكفرا منهم بالله.

وقد قال غيرنا: إن الذين كادوا يكونون عليه لبدا، هم مؤمنوا الجن، الذين استمعوا القرآن فكادوا يغشونه ويطؤونه، محبة منهم له، وليس ذلك يصح في البيان، وليس هم إلا من ذكرنا من مشركي الإنسان، ألا تسمع كيف قال لهم إنكارا منه لفعلهم، الذي كادوا أن يكون منهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝﴾، فدل هذا من قوله، على أنه جواب واحتجاج على كل منكر عليه في فعله، زارٍ عليه في دعاء ربه، فاحتج عليهم بما تسمع، وليس هذا جواب يصلح أن يكون لمن صَدَّقه وآمن به واتبعه، وهذا فلا يغبى عند قراءة الآية، على ذي معرفة، وعقل وتبصرة، وتمييز بين الأمور، ووقوف على الخير والشرور.

وقوله: ﴿أَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي: أسأله، وأخلص الديانة له، وقوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يريد: لا أشرك معه[1] في دعائي وتعبدي له أحدا، ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ معناها: لا أقدر لكم أيها المنكرون عليَّ في عبادة ربي ﴿ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، يقول: لو كنت

---

(١) في (ج): به.

أملك لكم ضرا لضررتكم، ولكن الضآر المرشد الذي هو ربي وربكم، ثم قال: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ يقول: لو عَنَدْتُ عن دينه وأطعت غيره، لم أجد من دونه من يجيرني منه، فكيف أعدل عنه كما عدلتم؟! إذاً لهلكت كما هلكتم!! ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ يقول: إذاً لم أكن أجد من دونه ملجأ ولا مفرا ولا ملتحدا ألتحد فيه، ومعنى ﴿مُلْتَحَدًا﴾ فهو: موضعا ومستندا ومكانا يلجأ إليه مَن عَنَدَ. من ذلك ما تقول العرب: ألحد اللحد للميت، أي: اجعل له موضعا يلجأ إليه، وينحاز عن متراكم[1] التراب فيه، أي: ينحاز عن التراب إليه، ويهرب منه فيه، ويتحجر به عنه، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:١٠٣]، فقال: ﴿يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ يريد: يسندون إليه، ويزعمون أن محمدا مسند إليه متعلم منه، ملتجئ إليه في أمره.

ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، يريد سبحانه: أنك لا تجد ملتحدا ولا ملجأ من الله ولا مخلصا يخلصك من عذابه، ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ يريد بقوله: ﴿بَلَٰغًا﴾ إلا تبليغك عن الله رسالاته، وصبرا على أمره، ومضيا على طاعته، واصطبارا على حكمه، فإن هذه الأشياء هي البلاغ من الله، إذا فعلته فهو: المجير لك من عذاب الله، والملتحد: الذي يلتحد إليه ويلجأ من أمر الله وينجي من عذابه، ولن ينجيك غير طاعة الله من عذابه.

الا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ فأخبر سبحانه أن من يعص الله ورسوله فإن الله قد جعل مأواه جهنم، ومعنى ﴿لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: أنها له قرار ومنزل، ومعنى ﴿خَٰلِدِينَ

---

(١) سقط من (ب): متراكم.

﴿فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: فهم مقيمون فيها أبدا، ومعنى ﴿أَبَدًا﴾ فهو: دائم سرمد، لا غاية له ولا أمد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾، يقول: حتى إذا عاينوا وأبصروا ما كانوا يوعدون، من الوعيد الذي كانوا به يكذبون، وهو العقاب والحساب الذي به يجزون.

ثم قال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾، يقول سبحانه: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ أي: فسيرون ويبصرون ويوقنون ويعرفون، ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ أهم أم محمد صلى الله عليه وعلى آله؟! لأن ناصرهم الشيطان، وناصر محمد الرحمن، فهذا تقريع من الله لهم، وتبكيت بضعفهم وضعف ناصرهم، وإعلام منه أنهم إنما يعبدون من ينفعهم، ويطيعون من يضرهم إن أراد ضررهم، وأنهم إنما يعبدون من هو أضعف منهم ممن يعبدون من دون ربهم، ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ يقول: أقل عاضدا له، وقائما معه، وكارها لما كره وساخطا لما سخط، أمحمد صلى الله عليه وعلى آله أقل مواليا أم أنتم؟! ومحمد صلى الله عليه وآله فالموالون له الملائكة المقربون، وجميع المؤمنين من الثقلين.

وقد يحتمل أن يكون معنى الآية مثلا ضربه الله لهم، يخبرهم فيه أنه تبارك وتعالى أقوى على نصر أوليائه منهم على نصر أوليائهم، وقوله: ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ يريد: أقل جندا وأولياء، وطاعة وخدما، وأنفذ أمرا، في كل ما أراد وشاء تبارك وتعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ ، فأمره سبحانه أن يقول لهم: إنه لا يدري متى يوم القيامة، ولا كم بقي من الدهر إليها، ولا متى يكون ذلك اليوم الذي يوعدون فيه ما يوعدون من العذاب الأليم، والخلود في الهوان المقيم، أراد بذلك إعلامهم أن العلم لله وعنده، وأنه لا

يعرف أمد ذلك اليوم ولا وقته، ومعنى قوله: ﴿إِنْ أَدْرِيٓ﴾ أي: أعلم، ومعنى ﴿أَقَرِيبٌ﴾ أي: أدَانٍ ما توعدون؟ ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ يقول: أم يطول ربي أمده، ويبعد كينونته ومجيئه؟ علم ذلك كله عند الله، لا يعلمه سواه، ومعنى ﴿أَمَدًا﴾ فهو: طولا وإنساء وتأخيرا، إلى أي الأوقات شاء.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، والغيب هو: ما غاب واستتر، واستجن فلم يظهر، ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يقول: لا يطلع على ما عنده من العلم أحدا، ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، يقول: إلا من اختار لوعده وغيبه، وتبليغ رسالاته، فإنه يطلع ذلك الذي يختاره على ما يشاء من علم غيبه، وما يعلمه من أسباب خلقه.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ يقول سبحانه: يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظون أمره، وهم الذين قال الله سبحانه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]، فليس رسول مرسل ولا عامل يعمل، إلا وعن يمينه وعن يساره من يحفظ عليه من بين يديه ومن خلفه ما عمل، ويحصي عليه ما فعل، وكذلك أخبر الله سبحانه أنه يجعل من بين يدي من ارتضى من خلقه حفظة يحفظون عليه، ويشهدون له بالفلاح والنجاح، والأداء والنصيحة، ومعنى ﴿رَصَدًا﴾ أي: فهم يحفظون حفظا، وينتظرون ما يكون من فعله، ويترقبون ما يأتي منه من التبليغ والصبر والإجتهاد، ليشهدوا له بذلك في يوم المعاد.

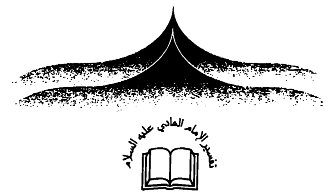
وقد يمكن ويكون - والله أعلم وأحكم - أن يكون معنى قوله: ﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ فهو: جَعلٌ من الله مع من ارتضى من التوفيق والتسديد، والمعونة والتأييد، ما يحفظه الله به من الزلل والخطأ، وغير ذلك من الأعداء، فيكون شبه ما جعل معهم من التوفيق والتسديد، بالراصد لمن يرصد من

حفظة العبيد، بل يكون ذلك من الله حفظا هو أحوط من الراصد المتحفظ، وضرب لهم هذا مثلا بينا ليعلموا ما حفظ الله لمن اختار من خلقه وتنبأ.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، يقول سبحانه: ليكون منهم في التبليغ أمر وصبر وحزم وفعل، يعلم الله أنهم قد فعلوا وصبروا عليه، وصمموا فيه، من تبليغ رسالات ربهم إلى خلقه، فيقع علمه بأنهم قد فعلوا، ويكون فعلهم نافذا بما أمروا، فهذا معنى ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: فإخبار منه سبحانه أنه محيط بها لديهم، ومعنى أحاط فهو: علم وأحصى، ومعنى ﴿لَدَيْهِمْ﴾ فهو: عندهم، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ فمعنى ﴿أَحْصَىٰ﴾، هو: أحاط وحفظ كل شيء يكون من الأشياء التي لايؤوده حفظها، ومعنى ﴿عَدَدًا﴾ فهو: أحصى لكل شيء وأحاط به على وجهه، حتى يكون كل شيء مثبتا عنده حرفا حرفا، كما ثبت العدد في يد العاد تثبيتا، ويعقده بيده واحدا واحدا، فأخبر سبحانه أنه محيط بها عند رسله، عالم به، وعند غير رسله، وأنه محص لكل شيء يدركه من الأشياء، وإحاطته بها كما يكون إحاطة من حسب شيئا لما يحسبه، ويبينه، ويعقده في يده ويعرفه، فَمَثَّلَ لهم سبحانه حفظه بعدد الأشياء ومعانيها، بها يعرفون من حفظ ما عُقد باليد وحُسب؛ لأن احفظ ما يحفظون، وأبينُ ما به يعرفون، حساب كل شيء ومبلغه هو بالعدد والإحصاء، والحساب والإستقصاء.





تفسير

سورة المزمل





تفسير سورة المزمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝﴾، والمزمل فهو: الملتحف بلحافه، المتدثر في مضجعه، والمزمل معناها ومعنى المدثر سواء، وهذا أمر من الله سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وآله هو الذي كان في ذلك[1] مزملا.

ثم قال سبحانه: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝﴾، ومعنى ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أي: قم لصلواتك المفروضة عليك في الليل، ومعنى ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهو: دليل على وقت الصلاة، يقول سبحانه: صل إن كنت في أمر يعوقك عن صلاة العتمة إلى أن تدخل في الثلث الآخر صلاة فرضك، فإن ذلك وقت لها مع ما يكون من شاغل شغلك، الذي يعوقك عن صلواتك.

ثم قال: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ يقول: أو دون النصف في أول الليل، ثم قال: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ يقول: أو زد على النصف إن لم يمكنك أن تصلي قبل انتصاف الليل، فصلها بعد انتصافه، وهذا فرجة من الله سبحانه لعباده، ورخصة لمن شغله شاغل لا يجد منه بدا ولا مخلصا ولا مندفعا، فأخبر سبحانه أن آخر الليل وبعد نصفه وقبل نصفه، وقت لما افترض من صلاة أوله، إذا كان المؤخر لها عن أول الليل أَخَّرها لعذر بيّن صحيح، من مرض فادح، أو عرض شاغل، أو خوف أو هرب، أو مصآفة عدو، ولا يقدر على الصلاة مع مقارنته، وخشية فتكه وغائلته، فأخبر سبحانه أن هذه الأوقات من الليل كلها وقت لصلاة الليل المفروضة فيه،

---

(١) سقط من (ج): في ذلك.

وسيأتي ذكر من رُخص له في ذلك في آخر هذه السورة إن شاء الله.

ثم قال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝﴾ يقول: تبينه تبيينا.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾، معنى ﴿إِنَّا﴾ فهو: نحن، ومعنى ﴿نلْقِى عَلَيْكَ﴾ أي: نُصَيِّرُ إليك، ونفرض عليك، ومعنى ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هو: وحيا ثقيلا، والوحي فهو: القرآن، ومعنى ﴿ثَقِيلًا﴾ أي: ثقيل الحكم، ومعنى ثقيل الحكم أي: صعب المفترض، وكيف لا يكون فرضه صعبا؟! وحكمه على من حكم به مستصعبا؟! وفيه ترك الشهوات، ومفارقة اللذات! والصبر على النازلات! مع ما فيه من ثقل الصلاة والصيام على أهله، ومشقة الحج على قاصده، ومفارقة كفرة الأجداد والآباء الجاهلية الجهلاء، وغير ذلك من مثقلات الأشياء، المحكوم بهن في هذا القول، الذي نزله الواحد ذو الطول، على خاتم النبيئين صلى الله عليه وعلى آله.

ثم أمره سبحانه أن يفرض ذلك كله على جميع المخلوقين، ثم أخبره أن أداء فريضة الليل في أوله فهي أول أوقاته، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝﴾، ومعنى ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ فهو: أشد تمكنا لك عند ربك وأجرا، ومعنى ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ فهي: أعدل طريقا، وأفضل فضلا، فحضه [1] سبحانه على إقامة فرض صلاة الليل في أول وقتها، وجعل له العذر بما ذكر من سائر الأوقات التي فسرنا، إن عاقه أمر لم يجد عنه مدفعا كما شرحنا.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝﴾ يريد بذلك سبحانه بقوله: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: فراغا كبيرا، ووقتا يصلح لما تريد أن تشتغل به عن

---

(١) في (أ): يحضه. وفي (ج): فخصه. مصحفة.

فرض صلاة ليلك في أوله، حتى لا تؤخرها إلى آخره، فنهاه صلى الله عليه وعلى آله بذلك عن تخليف صلاة العتمة إلى آخر الليل، لشغل من أشغاله، أو أمر من حوائجه، التي يمكنه أن يفعلهن في النهار، ولا يشتغل بهن عن الصلاة في أول الليل، فلم يجعل له عذرا في تأخير العشاء والعتمة عن ناشئة الليل، وهي أوله بشيء من أشغال الدنيا، وأجاز له ذلك إذا كان مريضا، أو مصآفا للعدو أو مسافرا، أو غير واجد للماء، وجعل سبحانه لمن [1] نزل به شيء من ذلك ما ذكر وحدد، من تبعيض الليل وقسمه وتمييزه وقتا، فوجب على المؤمنين أن يميزوا بين الحالين، ويقفوا على كلتا المنزلتين، فيعملوا بهما في أوقاتهما، ولا يجعلوا الحالتين حالة واحدة سواء، فإن الله سبحانه قد ميزهما، ودل عليهما أهل علمه، وفهمهما أهل المعرفة، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال:٤٢].

ثم أمره بذكر ربه فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾، ومعنى ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ فهو: اذكر ربك، ومعنى اذكر ربك فهو: قَدِّس وكَبِّر وعَظِّم، ومعنى ﴿تَبَتَّلْ﴾ فهو: تفرغ له وانقطع إليه، واستسلم بكليتك في يديه، وتفرغ لعبادته، ونفاذ أمره، وفي ذلك ما تقول العرب: فلان متبتل لله، تريد أي: متفرغ [2] لعبادة الله، لا يشرك في خدمته مع الله أحدا، لا نفسا ولا والدا ولا ولدا، ﴿تَبْتِيلًا﴾ فمعناها: انقطع إليه بكليتك انقطاعا بآتا ثابتا.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ فهو: مالك المشرق ومدبره، ومالك المغرب

---

(١) في (ج): لما.

(٢) في (ج): تريد متفرغ.

ومقدره، ومصرف آياته ومُغَيِّره، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، يخبر سبحانه أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنه الواحد الذي ليس كمثله شيء، وأنه الخالق لكل شيء، وأن كل شيء مما يعبد مِن دونه العابدون، فباطل لا ثبات له، وأنه المعبود لا غيره، ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝﴾ يقول: اجعله كافيا؛ لأن الوكيل في لسان العرب هو: الكافي، فقال سبحانه: اجعل ربك لك كافيا، واتكل عليه معينا وعاضدا.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ معنى ﴿ٱصْبِرْ﴾ هو: احتمل ولا تجزع، واثبت عند الأذى، ولا تهلع، ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ معناها: على ما يفترون ويكذبون، ويقذفون ويصنعون.

﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝﴾ يقول: اعتزلهم اعتزالا حسنا، أي: لا تقل كما يقولون، ولا تفحش كما يفحشون، واعتزلهم وما يعبدون، فامض لما أنت فيه من حكم ربك وأعرض عن الجاهلين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ومعنى ﴿ذَرْنِي﴾ أي: دعني وإياهم، وخلني وعقوبتهم، وأفردني والإنتقام من المكذبين، والمكذبون فهم: المعطلون الكافرون، المنكرون لكل ما جاء من رب العالمين.

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ فمعنى ﴿أُوْلِي﴾ أي: هم أصحاب النعمة، والنعمة فهي: الملك والراحة والكفاية والتفكه، يقول: هي النعمة التي أظهرتها عليهم، وجعلتها حجة لي فيهم.

ثم قال: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝﴾ يقول سبحانه: أنظرهم قليلا، حتى تثبت [1]

(١) في (ج): ثبتت.

لك الحجة عليهم، بما أريتك من الحجج البواهر فيهم، وأريتهم من آياتي، ثم من بعد ذلك آذن لك في السيف المسلول، وأويدك من عبادي بأهل المعرفة والطول، فتضع على المكذبين سيفك بأمرنا، وتقتل من خالفك بتأييد ذكرنا، وكذلك فعل سبحانه به وبهم في عاجل الدنيا.

ثم أخبر عز وجل بما أعد لهم من بعد ذلك في الآخرة التي تبقى، فقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝﴾، ومعنى ﴿لَدَيْنَآ﴾ فهو: عندنا، ومعنى ﴿أَنكَالًا﴾ فهو: التنكيل، بالأغلال والعذاب الوبيل، ﴿وَجَحِيمًا﴾ فهي: النار، ومعنى جحيم فهي: المجحمة لمن قاربها، ومعنى مجحمة فهي: الغالبة المهلكة، من ذلك ما تقول العرب: أحجم فلان من فلان، أي: هرب منه، وعجز عنه، وتقول العرب: أحجم فلانا إذا غلبه وقهره، فسمى الله سبحانه النار جحيما، يلقى أهلها منها من الإجحام لهم، والأمر العظيم النازل بهم.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ فهو: الزقوم، الذي ذكر الله أمره، والغصة فهي: الواقفة في الحلق، يقول: لا ينزل ولا يخرج بل يغص به صاحبه، ويقف في حلق آكله، وهو أشد ما يكون على الآكلين، إذا وقف طعامهم في حلوقهم، فلا ينحدر مستسفلا نازلا، ولا يرتفع صعدا خارجا، بل يكون غصة في الحلق ثابتة، وبلية فيه نابتة، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾، يقول: عذابا شديدا، دائما عتيدا.

ثم قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾، وذلك اليوم فهو: يوم القيامة، فأخبر سبحانه أن هذا الطعام والعذاب يكون بأهله في يوم ترجف الأرض والجبال، وذلك اليوم فهو: يوم القيامة، وحين الحسرة والندامة، ورجوف الأرض والجبال فهو: زعزعتها وحركتها، لما يريد الله سبحانه من إهلاكهما بذهابهما.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝﴾ يقول: صارت الجبال بعد ما هي عليه من انعقادها، ويبس صخرها وحجارتها كثيبا مهيلا، والكثيب فهو: الرمل، والمهيل فهو: المنهال الذي لا يمسك بعضه بعضا، فذكر سبحانه أن الجبال تصير بعد ما هي عليه منهالا رملا، ثم تصير من بعد ذلك كالعهن المنفوش، فناء وذهابا.

ثم احتج على هؤلاء المكذبين أصحاب القصة والعذاب الأليم، بما أرسل إليهم من الرسل المكرمين، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝﴾، يريد سبحانه: إنا أرسلنا إليكم رسولا لتؤمنوا به وتتبعوه، فكفرتم ولم تسلموا، فكان شاهدا عليكم بفعله، قائلا بالحق غدا عليكم بحجته. ثم أخبر أنه صلى الله عليه وعلى آله في التبليغ إليهم والأداء، كموسى صلى الله عليه الذي هم به مقرون، أنه كان رسولا إلى فرعون، فأخبره أن سبيله عليه السلام كسبيل موسى عليه السلام في فرعون، وأنه [1] ينزل بهم من العذاب على العصيان لمحمد صلى الله عليه وآله ما نزل بفرعون في عصيانه لموسى عليه السلام، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝﴾، يقول: عذبناه عذابا وبيلا، والوبيل فهو: الشديد الثقيل.

ثم قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝﴾، يقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف تعتذرون وتخافون وتتقون ربكم غدا في هذا اليوم الذي يشيب فيه الولدان؟! فهو: يوم القيامة، ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ اليوم في دنياكم التي هي دار عمل وبلاء، والآخرة دار ثواب وجزاء، يريد سبحانه بهذا القول: أن من كفر في هذه الدنيا لم يكن ليؤمن في الآخرة، ولا يجد إلى ذلك سبيلا،

---

(١) في (أ) و (ج): أنه.

فدلهم جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، على أن العمل في الدنيا دون الآخرة، وأن الآخرة دار الجزاء دون الدنيا، فإنه لا عمل إلا في الدنيا، وأنه من كفر في الدنيا لم يؤمن ويتق في الآخرة، وهو اليوم الذي يجعل الولدان شيبا، ومعنى ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ لما ينزل بهم من هوله، وعظيم ما يعاينون من أمره، فتشيب رؤوسهم من فزعه، وتشمط [١] من مدلهات عجائبه.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، يقول سبحانه: إن السماء تنفطر فيه، فقامت ﴿بِهِۦ﴾ مقام (فيه)؛ لأنها من حروف الصفات، وبعضها يخلف بعضا، فأراد سبحانه أن السماء منفطر في ذلك اليوم الذي جعل الولدان شيبا، وهو يوم القيامة، وانفطارها فهو: ذهابها وتقطعها وانقضاؤها، وقوله: ﴿مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ فهي: لغة لبعض العرب تطرح الهاء من المؤنث، فخرج الاسم مذكرا، تدعو كل مؤنث مذكرا، وهي في طي خاصة، ثم لغيرهم عامة، ألا تسمع كيف يقول: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾، يريد: أن كل وعد وعد الله، أو وعيد كفلق الصبح، وكائن غير مخلف من انفطار السماء وعذاب المعذبين.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ يريد: أن هذه الأقاويل التي نقولها، والوعد والوعيد الذي نشرحه، هو تذكرة للعالمين، وتنبيه لجميع المخلوقين، ﴿فَمَن شَآءَ﴾ قَبِلَ ذلك وخافه، فـ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ قبل وقوعه أي: قبل وقوع ذلك اليوم، ﴿سَبِيلًا﴾ والسبيل فهي: الوسيلة والطريق بما يكون منه، من طاعة لربه، في أيام حياته، وقبل مواقعة وفاته.

---

(١) في (أ): تشتمط. والشمط: الخلط. وكل لونين اختلطا فهما شميط. والشمط في الشعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض. والشمط: الشيب. لسان العرب، مادة شمط.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر أوقات الصلاة المذكورة، التي ذكرها في أول السورة، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، فأخبر سبحانه أنه يعلم أوقات قيامه عند وقت ضرورته، وعندما يكون منه ومن المؤمنين من الأمور التي تمنعهم من أداء الفرض في أول الليل، من ذلك ما ذكر عنه صلَّى الله عليه وآله من صلاة العشاء والعتمة بمكة، وقد غربت الشمس بسرف من بر الظهران [1]، وذلك لما فيه من شغل السفر، ومعنى ﴿طَآئِفَةٌ﴾ فهي: جماعة ممن معك، وقوله: ﴿طَآئِفَةٌ﴾ فهي: تدل على ما قلنا به من أوقات الصلاة، لأهل العلات؛ لأنه قال: ﴿طَآئِفَةٌ﴾ ولم يقل كل من معك، فدل على أن من كان ذا مرض أو خوف، أو ذا سفر أو حرب، معذور في تأخير صلاة أول الليل إلى بعضه.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يريد ﴿تُحْصُوهُ﴾ أي: تثبتوه [2] على وقت واحد، وتحيطوا به دون سائر الأوقات، فعلم سبحانه أنهم كلهم لن يقدروا على أداء الفرض في وقت واحد، مع ما فيهم من العلات التي ذكرنا ووصفنا، فمنهم عليل، ومنهم مسافر، ومنهم خائف، ومنهم آمن، فالآمن يصلي في أول الليل، وطالب الماء يصلي إذا وجد الماء في أي أجزاء الليل وجده، وخائف يصلي عند انقضاء خوفه في نصف الليل أو آخره، ومريض يؤدي ما

---

(١) قال في جامع الأحكام للقرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ...﴾. من سورة الإسراء: أخرج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قريبا من غروب الشمس فلم يصل المغرب حتى أتى رف، وذلك تسعة أميال.

(٢) في (ب): أي: تثبتوا. وسقط من (ج): أي.

فرض الله عليه في وقت إفاقته في آخر ليله، وفي نصفه أو في أوله أو في ثلثه، فهذا معنى قوله: ﴿أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، يقول سبحانه: علم أنكم كلكم لن تقدروا على إحصاء وقت واحد والثبوت عليه، لما فيكم من هذه الأسباب العارضة لكم فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: هَوَّنَ عليكم وَرَخَّصَ لكم ولم يجعل في ذلك عليكم حرجا، ولم يلجئكم فيه إلى شدة من الملجأ، فيكلفكم فوق طاقتكم، في أن يجعل الوقت واحدا لصلاتكم، فيكون في ذلك شدة واستقصاء، على من كان في حالة واحدة مما ذكرنا من الشدة والبلاء.

ثم أمرهم سبحانه أن يقرأوا في صلاتهم ما تيسر من القرآن، من قليل أو كثير على قدر طاقتهم، وتصرف أحوالهم، [﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾] فجعل قليل القرآن مجزيا، لمن كان لصلاته مؤديا، ولم يشدد عليهم في شيء من أمورهم، ولم يحرجهم في حدود منه، ألا تسمع كيف يقول سبحانه فيما ذكرنا من حالات المصلين وألوان عللهم، حين يقول سبحانه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، فذكر ما ذكرنا من المرضى، ثم قال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ فذكر الذين شرحنا من المسافرين، والضاربين في أرض الله المتوجهين، ثم قال: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فذكر الذين ذكرناهم، ووصفت بالقتال الذين وصفناهم، بالمصافة لعدو الرحمن، والمحاربة لمن حارب الدين والقرآن، فدل بذلك على أنه سبحانه لم يحمل أهل هذه الصفات على وقت واحد، ولم يضيق عليهم في ذلك الواحد الماجد، لما علم من عجزهم، مع ما هم فيه من شغلهم، عن مثابرتهم عن وقت واحد دون غيره، من أوقات الليل الموقتات، اللواتي في هذه السورة مذكورات موصوفات.

وإنما موضع ذكر ما ذكر الله من قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ

وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مقدم غير أنه أخره إلى هاهنا، وموضعه في أول السورة، معناه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ ... عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فهاهنا موضع ذكر الأحرف؛ لأنه سبحانه جعل ما جعل من الرخصة في هذه الأوقات لصلاة فريضة الليل من العشاء والعتمة، فسمى هذه الأوقات من الليل لمن كان من المرضى والمسافر والمجاهدين، وكذلك من لم يجد ماء إلى بعض هذه الأوقات، وكذلك المغمى عليه والخائف والمشغول بأمر عظيم من أمر الله، يخشى من تركه بعض الفساد على الإسلام، ويرجو تنفيذه وأثرته نجاحا في صلاح الإسلام، ولا ينبغي لصحيح سويٍّ [1] سالم مما ذكرنا أن يخلف صلاة العشاء والعتمة عن ناشئة الليل التي ذكر الله فضلها وجعلها وقتا لصلاة أهل السلامة من هذه الأشياء.

ثم رجع إلى ذكر التيسير عليهم، وترك التعسير في شيء من فروضهم، فقال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فأمرهم بأن يقرأوا ما تيسر من القرآن لهم، وأن يقيموا ما افترض من صلاتهم عليهم، ومعنى ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فهو: أقيموا حدودها وأوقاتها، وأتموا ركوعها وسجودها وما أمر الله سبحانه فيها، من قراءة القرآن، وذكر الرحمن، من تسبيح وتكبير، وتهليل وتوقير، فمن أدى هذه الشروط في الصلوات، فقد أقام ما أمر الله به من حدودها المفروضات، ومعنى ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهو: أدوا الزكاة،

---

(١) سقط من (ج): سوي.

وادفعوها إلى أهلها وسلموها، ومعنى ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهو: ما جعل الله من أداء عفو أموالهم، فسمى الله ذلك وإخراجه منهم تزكية وتطهرة لهم، فجعل من أدى ذلك زاكيا، وسماه لماله مزكيا، وإنما سمي ذلك زكاة؛ لأنه يزكي الأبدان، وتزكية الأبدان فهو: تطهرتها من الغلول والعصيان، وما نهى الله من حبسها جميع كل إنسان، فكان تسليمها لله طاعة، وكانت طاعة الله في ذلك تزكية لمن فعله وتطهرة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾، ومعنى قوله: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ فهو: أسلِفُوا الله، أي: افعلوا لله ما تثابون عليه، وتعطون من الثواب الجزيل فيه، وإنما سماه الله قرضا وسلفا؛ لما أن كان سبحانه لمن فعل ذلك مجازيا [مضعفا]، فجاز أن يسميه سلفا وقرضا؛ إذ كان منه الجزاء لفاعله حكما وفرضا، فشبهه بالسلف الذي لابد من قضائه، وتسليم مثله إلى صاحبه وإعطائه، فعلى هذا جاز أن يسمى ما تقرب به إليه سلفا؛ إذ كان بالمجازاة لهم عليه مرصدا ومضاعفا، وكان حكمه بالمكافأة لهم في ذلك ماضيا.

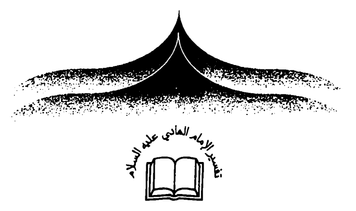
ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقول سبحانه: ما تعطوا وتخرجوا، وتنفقوا في سبيل الله وتسلفوا، تجدوا عند الله ثوابه والمكافأة عليه، والمجازاة منه سبحانه فيه، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾، فأخبر عز وجل أن جزاء ذلك أن لا يكون لغيرهم، وأن منفعة ما ينفقون في أمر الله لا يكون إلا لهم، وأنهم سيجدون ثواب ذلك وأجره عند الله موفرا لهم.

والخير الذي قال الله: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ﴾، يعني بقوله: ﴿خَيْرًا﴾ أي: تقدمته لأنفسكم إلى الله، خير من إمساكه عن الإنفاق في طاعة الله، ﴿وَأَعْظَمَ

﴿أَجْرًا﴾ يقول: أحسن ثوابا في عاقبته لكم، وأجزل حظا فيما ترجون من عائدته عليكم.

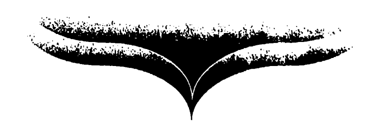
ثم قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾، فأمر الخلق بالإستغفار لله، ومعنى ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾ فهو: توبوا وارجعوا، وهو أمر من الله الغفار، بإخلاص التوبة إلى ذي الجلال والإكرام، بالقول والعمل، لا بالقول دون العمل، فبين لهم سبحانه أن الإستغفار لا يكون بالقول المقول، دون العمل المعمول، وأنه بالعمل والقول، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ يقول: إن الله تواب على من تاب، غفور لمن أناب، رحيم لمن راجع وأجاب، ثم رجع، وعن المعاصي لله سبحانه نزع، وأمره سبحانه في كل حال اتبع، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٢].





تفسير

سورة المدثر





تفسير سورة المدثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ ﴾، المنادى هاهنا والمناجى: محمد صلى الله عليه وعلى آله، والمناجاة فهي: النداء، والمدثر فهو: الملتحف، والإلتحاف فهو: طرح الثياب على الإنسان عند اضطجاعه.

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ ﴾، فالمأمور بالقيام فهو: رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى ﴿أَنذِر﴾ أي: بَلِّغ وأخبر، وتقدم إليهم وأَدِّ الحجة التي أُمِرَت بأدائها، وبسبب تَدَثُّر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أن الوليد بن المغيرة المخزومي لعنه الله جمع قريشا إلى دار الندوة، ثم قال: يا معشر قريش إن هذا الإنسان قد ادعا ما ادعا، والعرب تفد عليكم، وتأتي بلدكم، فلا يزال السائل يسأل عنه بعضكم فيقول شيئا، ويسأل آخر فيقول له شيئا آخر، فاشتوِرُوا وأَجمِعُوا له أمركم وكلمتكم، حتى يكون قولكم فيه قولا واحدا، فما تقولون إنه؟ فقال بعضهم: مجنون، فعبس في وجهه، ثم قال: ليس هذا بقول، وليس هو وأبيكم بمجنون، فقال بعضهم: شاعر، فقطب في وجهه أيضا، وقال: ليس هذا بشاعر، قد صغنا الشعر وقلناه، فليس هذا على مجراه، فقالوا: [كاهن، قال:] ولا بكاهن، ليس يغبى على العرب الكاهن، فقال بعضهم: ساحر، فقال لهم: وما الساحر؟ وما يعمل؟ فقالوا: يفعل فعلا يفرق به بين المرء وزوجته، ويحبب المبغض، ويبغض الحبيب، فقال: هذا إذاً قد والله يفعل محمد ذلك، فأجمعوا كلمتكم على أنه ساحر، فخرجت قريش من دار الندوة فلم يلق أحد منهم رسول الله عليه السلام إلا قال: يا ساحر، فاشتد ذلك عليه صلى الله عليه وعلى آله، فخرج حتى أتى منزله فطرح نفسه، وتَدَثَّر بلحافه من شدة الغم، وما

نـزل به لقولهم من الهم، فأنـزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾.

معنى ﴿رَبَّكَ﴾ أي: إلهك وخالقك ومالكك الذي لا خالق لك غيره، ولا مالك لك سواه، ومعنى ﴿كَبِّرْ﴾ فهو: عَظِّم بالطاعة، وأجِلَّ وقَدِّس، وقل ما هو أهله، وما هو يستحقه سبحانه ويستأهله. ﴿وَثِيَابَكَ﴾ فهي: هذه الثياب الملبوسة المعروفة باسمها، المفهو: مة بذكرها، ومعنى تطهيرها فهو: غسلها من رجس المشركين ولمسهم ومداناتهم.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝﴾، والرجز هو: كل نجس معلوم، من وثن أو صنم أو شيء محرم مفهو: م، ومما كانوا يستجيزون، ويأتون ويفعلون، من أكل الميتة وغيرها، التي هي في التحريم مثلها، ومعنى ﴿ٱهْجُرْ﴾ أي: اعتزل ولا تقرب ولا تتبع.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾، معناه: لا تمن بشيء تفعله، ولا بجميل تصنعه، إلى أحد من العالمين، لا من المسلمين ولا من المشركين، ومعنى ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ فهو: تكثر قول ذلك وذكره وتعريفهم به، وقوله هذا فأدب من الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله، وهداية منه له إلى أعظم الأمور وأجسمها، وأشرفها في الأحدوثة وأفخرها، من ترك المن لما يولي، والإعراض عن ذكر ما يعطي.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝﴾، يقول: فاصبر على ما تلقى في الله من البلاء، وتقاسي من الكفرة من الأذى، فاصبر عليهم واجعل صبرك لله في مقاساتك منهم بحكمه، واعترافا له سبحانه بأمره.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝﴾، فالناقور فهو: علامة من الله يجعلها في يوم الدين، تكون ظاهرة في موضع حشر العالمين، تظهر علامتها، وتسطع عالية آياتها، يستدل

الخلق أجمعون بها على الموضع الذي يقصدون، من موضع الحشر الذي إليه يساقون، فيكون قصدهم، إلى تلك العلامة التي جعلت لهم.

وقد يمكن أن تكون هذه العلامة التي سماها الله الناقور، نورا يسطع في ذلك الموضع ويلمع، فيكون ذلك علامة لموضع الجمع.

ويمكن أن تكون تلك العلامة أصواتا من دعاة من الملائكة، يدعون الناس إلى ذلك المكان فينتقر الناس موضع الحشر بذلك الدعاء فيقصدونهَ معا.

ويمكن أن يكون علامة بالتهليل والتكبير، والتقديس لله والتوقير، يسمعه الخلق أجمعون، فيؤمونه كلهم أكتعون.

فأما قول من يقول: إن الناقور بوق أو شبه البوق، وينفخ فيه ليجتمع الناس كلهم إليه، فليس ذلك عندنا بشيء تصححه عقولنا، وليس الناقور - والله أعلم وأحكم - إلا علامة عظيمة، يجعلها الله العلي الأعظم في ذلك اليوم، ولن تكون هذه العلامة إلا بأمر عظيم من صنف ما ذكرنا من بعض ما شرحنا من النور الساطع العظيم اللامع، أو الصوت بالدعاء والتكبير والتهليل والتحميد والتقديس والتمجيد الذي يسمعه كل سامع.

ثم ذكر سبحانه ذلك اليوم الذي ينقر فيه الناقور، ومعنى ينقر فهو: ينتقر، ومعنى ينتقر فهو: يستدل عليه ويخبر، ألا تسمع كيف تقول العرب لمن استدل على شيء وعرفه، ووقع عليه وعلمه: انتقر فلان كذا وكذا، أي: عَرَفه واهتدى إليه، ووقع بالفطنة منه عليه، فقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾، ومعنى ﴿ذَٰلِكَ﴾ فهو: كذلك، ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: اليوم الذي يكون فيه الناقور، ومعنى ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ فالعسير هو: الشديد الذي لا فرح فيه، ولا راحة لديه.

﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾، والكافرون هم: الكافرون بنعم الله المكذبون، ومعنى كفرهم لنعم الله فهو: قلة شكرهم لله على ما أعطاهم، من بعثة البشير النذير إليهم، وهم أهل المعاصي لله من المشركين، الذين دعاهم رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلم ومن الثقلين، ومعنى ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ فمعنى ﴿غَيْرُ﴾ هو: ليس، ومعنى ﴿ يَسِيرٍ﴾ أي: ليس بسهل ولا صغير، فأخبر سبحانه أن ذلك اليوم يوم شديد عسير، على أعدائه ليس بسهل ولا صغير.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ ﴾، معنى ﴿ذَرْنِي ﴾ أي: دعني وأخبرني، واعلم أني في ذلك كاف مغن، ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي: أوجدت وفطرت، ﴿وَحِيدًا ﴾ فهو: فردا فريدا، وقد قيل: إنه اسم للوليد بن المغيرة [1]، وكان يعرف به، فقال الله سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله: ذرني وهذا الذي اجترأ علي فكذب بي، فسأذيقه على ذلك أشد عذابي.

ثم أخبر سبحانه بما جعل له من المال الممدود، والممدود فهو: الكثير الواسع، وما جعل له من البنين، والبنون فهم: الذكران المعروفون، و ﴿شُهُودًا ﴾ فمعنى ﴿شُهُودًا ﴾ أي: حاضرين معه، شاهدين غير مفارقين لجماعته، بل هم شهود معه، والشهود فهم: الحضور الذين لم تَنْأَ بهم دار، ولا تبعد منهم الأخبار، فهم سكان معه في الدار.

---

(١) أخرج عبد بن حميد، عن قتادة ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾، قال: هو الوليد بن المغيرة... وأخرجه ابن مردويه، عن ابن عباس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد.الدر المنثور ٨/ ٣٢٩.

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝ ﴾، فمعنى ﴿تَمۡهِيدٗا﴾ هو: وطئت وجعلت له بالنعمة التي أعطيته إياها مهدا يمهد عليها، ويتقلب بفضلي عليه فيها، ومعنى ﴿تَمۡهِيدٗا﴾ فهو: عطاءاً منا له جزيلا.

ثم قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝ ﴾، يقول: أيطمع بعدما أعطيته أن أزيده على ما أوليته، وهو مقيم على كفر نعمتي، معتصم بالشرك بي.

﴿ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝ ﴾ يريد: بـ﴿ كَلَّآۖ ﴾ أي: أني لا أفعل ذلك أبدا، ولا أزيده في النعيم شيئا، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ﴾ معنى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ﴾ معناها: أنه لم يزل لآياتنا عنيدا، يقول: لأحكامنا وما يظهر من غائب آياتنا، وبواهر دلائلنا، ﴿عَنِيدٗا﴾ والعنيد فهو: المعاند، والمعاند فهو: المضآد المكابر، المعارض بباطله ما يظهر من حق خالقه.

ثم أوعده على ذلك بما ذكر من العذاب، فقال سبحانه:﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝ ﴾ ومعنى ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ﴾ أي: سأوقع به وأُنـزل، وأحل به وأجعل، ومعنى ﴿صَعُودًا ﴾ أي: أمرا شديدا، وعذابا مهلكا متعبا، فشبه سبحانه ما ينـزل به من العذاب الشديد لشدته، وهو ما أعد له من نقمته، بالصعود؛ لأن أشد [1] ما يعرف الإنسان في مسالكه، ومذاهبه وطرقه، ما كان مصعدا فيه من الجبال الشامخة، التي تكون الطرق فيها متعلقة مرتفعة، فذلك أشد مسالك الناس وأصعب ما يسلكونه من سبلهم، فأخبر الله أن عذاب هذا الذي يدعا بالوحيد مع عذاب غيره كالصعود مع السهل، وأن عذابه له فضل في النار على كل عذاب، كما للصعود في الشدة والتعب على السهل.

---

(١) في (ج): أشق.

ثم قال: إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾، يريد بـ ﴿فَكَّرَ﴾ أي: تفكر، ﴿وَقَدَّرَ﴾ فهو: لما كان من فكرته، فيما يجعل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من الكذب، ﴿وَقَدَّرَ﴾ فهو: ما كان يقدر عليه، ويهيئ له ويحتال به عليه، ويسوى حتى جعل عليه ما جعل من الأمر، ولطخه بها لطخه به من ذكر السحر، الذي قد برأه الله وطهره، ورفعه عنه سبحانه وكبره.

ثم قال: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾، ومعنى ﴿قُتِلَ﴾ فهو: لعن، ثم قال: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ يريد: على ما قدر، و ﴿قَدَّرَ﴾ فهو: ما ذكرنا من تفكيره وتقديره.

ثم كرر اللعن فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾، يريد: لُعن على ما كان قدر.

ثم قال سبحانه مخبرا بها كان من فعله في دار الندوة، وعبوسه في وجوه من كان يقول: مجنون وشاعر وكاهن، وبُسُوره لهم، فقال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ يريد: بـ﴿عَبَس﴾ أي: قَطَّب بين عينيه، وأنكر قول من قال بالجنون عليه، ﴿وَبَسَر﴾ فمعناه: دفعه وأقصاه، عن القول بما قال به عليه ورماه، من قوله: ليس هو بشاعر، ولا مجنون ولكنه ساحر، وحاشى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من ذلك، وقد نزهه الله أن يكون كذلك.

ثم قال: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ معنى ﴿أَدْبَرَ﴾ أي: تولى عن الحق، وتعلق بالكذب والفسق، ومعنى ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تجبر وتكبر، ثم قال لعنه الله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ أي: يتلى ويذكر، يقول: ما يأتي به محمد صلى الله عليه وعلى آله ويذكره، إلا سحر رواه وتَعَلَّمَه، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، ما هذا الذي مع محمد من قول الله، وما هو إلا قول البشر، والبشر فهم: الناس.

ثم قال سبحانه: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ فمعنى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ يريد: سأدنيه منها وأولجه فيها، حتى يصلى بدنه حرها، ويقع به حريقها وأكلها، ويباشره بحمومها وحرها، فلا يكون له فيها ستر يستره، ولا حجاب يحجزه، و ﴿سَقَرَ﴾ فهي: بعيدة القعر، العظيمة الأمر، البعيدة المهوى، الكثيرة الأذى والبلاء، وهو اسم من أسماء جهنم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾، يقول سبحانه: وما أعلمك ما سقر، وكيف هي؟ وما أمرها؟ وما هي على حقيقة العلم؟

ثم بيّن سبحانه بعض صفاتها، وما هي عليه من حالاتها، فقال: ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾، معنى ﴿لَا تُبْقِى ﴾ أي: لا تبقي في عذاب من صار إليها، ولا تنكيل من ولج فيها، ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ معناه: لا تذر أحدا من أهل الوعيد إلا ضمته وصيرته فيها، وأحرقته وحققت وعيد الله له فأهلكته.

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾، واللواحة فهي: المحرقة المُغَيِّرة التي قد غيرت أبدانهم ببلائها، وغيرت خلقهم بإحراقها، ولوحتهم بعذابها، وقوله: ﴿ لِّلْبَشَرِ﴾ فهم: من كان فيها من الفاسقين، وصار إليها من الفاجرين.

ثم ذكر سبحانه خزنتها وعددهم، ووصف بعض حالهم وأمرهم، فقال سبحانه: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾، فقد يمكن – والله أعلم – من أن يكون هؤلاء التسعة العشر هم الخزنة المأمورن بحفظها، وحفظ من فيها، الآمرون والناهون في أمرها.

ويمكن أن يكون تسعة عشر ألفا، أو تسعة عشر صنفا، من الملائكة المقربين، المؤتمرين بأمر الله المكرمين، الا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ﴾، فأخبر سبحانه أن هذه التسعة عشر ملائكة، وأن خزنتها من الملائكة المؤتمنين، البررة المكرمين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ يعني: عددهم ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والفتنة هاهنا فهي: الإختبار والبلوى، بما يكون منهم من الجحدان في ذلك والإفتراء، لأنهم كانوا بما أتاهم به رسول الله صلَّى الله عليه وآله من خبر النار وأهلها وخزنتها مكذبين، وبه صلى الله عليه وعلى آله في ذلك كله غير مصدقين، وكانوا يجحدون أمرها، ويكذبون خبرها، فلما جحدوا أمرها كانوا أشد جحدا لخزانها وعددهم، وأشد ملاَدة فيما ذكر الله عز وجل من أمرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾ و﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ هاهنا فهم: الذين أسلموا من أهل الكتاب، والكتاب فهو: التوراة، فأخبر أن من آمن بالله من أهل الكتاب وصدق برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وآمن بآياته، فهو: مستيقن بذلك، والإستيقان منهم فهو: تحقيق العلم والإقرار بما جاء من ذكر الخزنة وعددهم، ومعنى يستيقنوا فهو: يؤمنوا ويوقنوا، ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾معنى يزداد فهو: ازديادهم في الإيمان بتصديقهم، لما ذكر الله من عدد خزان النار لهم، فلما أن كانوا بكل ما ذكر الله وأخبر مصدقين، وبما قال غير مكذبين، كانوا في كل ما صدقوا به من أمر حادث من الله في الإيمان مزدادين بتصديقهم، بخبر الله وإقرارهم ومعرفتهم بصدقه وإيقانهم، فهذا معنى ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾.

ثم رجع في ذكر مؤمني أهل الكتاب ومؤمني العرب، فقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ يقول سبحانه: إنا إنما ذكرنا من عدة أهل النار التي شرحنا لكم، ليستيقن مؤمنوا أهل الكتاب من الإسرائيليين ومؤمنوا العرب أنه الحق، فيكون ذلك فضيلة لهم من ربهم، وجزاء على ما كان من إيقانهم، مما ذكر الله

في الكتاب المبين، من عدة خزان النار من الملائكة المقربين، ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ يقول: لا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في صدق قولنا، وكينونة وعدنا ووعيدنا.

ثم ذكر قول المنافقين في ذلك الذين في قلوبهم مرض من دينهم، والمرض فهو: الشك والإرتياب، وقلة الإخلاص لرب الأرباب، وكذلك حكى عز وجل في القول عن الكافرين، فقال سبحانه: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ ومعنى قولهم: ﴿مَا﴾ أي: فهو: الذي، لأن الذي يقوم مقام ما، وما يقوم مقام الذي، فأرادوا - عليهم لعنة الله - بقولهم هذا أن الذي أراد الله بذكر ما ذكر من عدة هذه الخزنة، وما شرع من أمرهم مثل مضروب، وأنه ليس بحق كائن، ولا أمر مجعول باين، يقول: إن الله تبارك وتعالى إن كان حقا ما يقول محمد من أنه أوحي إليه بذلك وحيا، ونزله عليك من عنده تنزيلا، فهو: مثل وليس بحق واقع.

ثم قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ يريد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: بذلك، ومعنى بذلك أي: بذلك القول منهم، الذي قالوا استوجبوا من الله الإضلال، والإضلال فهو: الخذلان، فلما أن قالوا ما قالوا من الباطل والمحال والكذب في كل قول أو فعال، على ذي الجلال والطول استوجبوا منه الخذلان فخذلهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فمعنى ﴿يَشَآءُ﴾، هو: يريد، والذي شاء الله أن يضله فهو: من عَنَدَ عن دينه، وطعن على رسوله، والذي شاء أن يهديه فهو: من آمن به، وصدق رسله بما جاؤا به عنه، ومن عنده سبحانه وبحمده.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر خزنة النار صلوات الله عليهم، فقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ يريد: ما يفهم عددهم وهم الملائكة، وهم جند الله إلا ربهم الذي خلقهم من خزنة النار، ومن غيرهم من الملائكة المقربين، صلوات الله عليهم أجمعين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ يريد: سقر، يقول: ما ذكرنا الذي ذكرنا منها إلا تذكرة للبشر، والبشر فهم: الخلق، ومعنى تذكرة فهو: تنبيها وتحذيرا وإهابة وتخويفا، ثم قال: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾، فأقسم سبحانه بالقمر والليل في إدباره.

وأما إقسام الله سبحانه بإدبار الليل، فهو: لما فيه من عجيب تدبيره، من تجلي ظلامه، وتصوب نجومه، ولطائف عظمته، في ذلك من أثر صنعه، ما يطول شرحها، ويكثر لو ذكرناه ذكرها، ومعنى ﴿أَدْبَرَ﴾ فهو: تولى، وتوليه فهو: ذهاب أكثره، ودنو انفجار فجره، وكذلك أقسم الله بـ﴿الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾، و ﴿الصُّبْحِ﴾ فهو: الصباح، وقوله: ﴿أَسْفَرَ﴾ فهو: أضاء وانتشر، وفي سطوع الصبح وفجره، غاية الدليل على صانعه وربه، لما فيه من ظهور ضوئه، في حندس الليل وظلمته، حتى ينكشف منه مدلهم الظلام، ويزيل عن الأرض منه ما كان عليها من الإدلهام، فوقع القسم من الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، على تحقيق ما أنكروا من سقر وخزانها، وعجيب ما ذكر الله سبحانه من أخبارها، فقال: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾، يقول سبحانه: إنها لإحدى عظائم ما فعلنا، وجليل ما أحدثنا، مما جعلناه عبرة وتبيانا ونعمة وترغيبا، ونكالا وترهيبا، والكُبَر فهي:

الأمور الكبار التي جعلها الله سبحانه وفطرها، ولعمري ما من شيء أكبر هولا، ولا أعظم أمرا، ولا أشد على الخلق خطرا، من سقر، التي لا تبقي ولا تذر، معنى ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ يقول: منبها ومخوِّفا، وقوله: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ والبشر هم: الناس أجمعون.

ثم قال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝﴾، يريد بقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ ۝﴾ أي: لمن أراد منكم، ومعنى ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ أي: أن يتقدم في أهبة أمره، والتخلص من عذاب ربه، والتنحي من هذه التي هي إحدى الكُبَر، التي هي بلا شك سقر، ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝﴾، يقول: يتأخر عن العمل بما ينجيه منها، ويُسَوِّف التوبة التي هي سبب النجاة من عذابها، حتى يأتيه أجله، فينقضي عمله، فيكون بتأخره عن التوبة من الهالكين، كما كان من تقدم بالتوبة والعمل الصالح من الناجين.

ثم قال سبحانه:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝﴾، فأخبر عز وجل أن المتقدم والمتأخر مأخوذ بعمله، مجازىً بفعله، وأن كل نفس رهينة بكسبها، وكسبها فهو: عملها، وبما قدمته في حياتها من برها ورشدها، أو غيها وفسقها وكفرها. قوله: ﴿رَهِينَةٌ﴾ فمعنى ﴿رَهِينَةٌ﴾ أي: مأخوذة مرتهنة، ومعنى مرتهنة أي: محبوسة محاسبة.

﴿إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝﴾، فذكر سبحانه أن كل مسيء وظالم عاص متعد مأخوذ بفعله، معاقب على صنعه، ثم ميز بينهم وبين عدوهم من أهل الإيمان، فقال: ﴿إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝﴾، فذكر أن أصحاب اليمين ناجون، ومن عذاب الله سالمون، وأصحاب اليمين فهم: أصحاب الدين والمعرفة واليقين، ومعنى

﴿ٱلْيَمِينِ﴾ فهو: اليُمن والبركة في التقديس من الله والنعمة، لا أن ثَمَّ يمينا وشمالا.

ثم قال: ﴿ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ ﴾، فالجنات فهي: ما ذكرنا من مواضع النعمات والسرور، والغبطة والملك والحبور، ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ ﴾، فأخبر أن المتقين أصحاب اليمين والخير، إذ صاروا إلى دار النعيم، ومحل المؤمنين يتساءلون [1] فيما بينهم عما كانوا يعرفونه من المجرمين، وتساؤلهم فهو: تذاكرهم لهم، ولما كان في الدنيا من تجبرهم وكفرهم، إيقانا منهم بما صاروا إليه من عذاب النار، وانقلبوا إليه من سوء الدار.

ثم رجع سبحانه فذكر مساءلة خزان النار لأهل النار وتقريعهم لهم، لما كان من فسقهم وكفرهم وإعراضهم عن ذكر ربهم، فقال: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ ﴾، حكى قول الخزنة من الملائكة البررة للفاسقين المعذبين، ومعنى ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ أي: ما أولجكم وأدخلكم في سقر، وهذا من الملائكة صلوات الله عليهم تقريع لأهل النار، وتبكيت للفجرة الكفار؛ لا أنهم جهلوا ما الذي سلكهم فيها! وصيرهم من حكم الله إليها!! وكيف يجهلون ذلك؟! وهم بحكم الله عارفون؟! وبعدله واثقون؟! وبما سلك عباده في جهنم عالمون؟!

ثم ذكر سبحانه ما يكون من جواب أهل النار لهم، فيما عنه سألوهم، فقال: ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ ﴾، أي: ندفع الزكاة، فأقروا على أنفسهم بأنهم لم يكونوا يؤدون فرض الصلاة الواجبة، وأنهم لم

---

(١) في (ج): تساءلوا.

يكونوا يطعمون المسكين، ومعنى ﴿نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: ندفع فرض الزكاة الواجبة، التي جعلها الله للعالمين نجاة، ثم قالوا: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ومعنى ﴿وَكُنَّا﴾ فهو: أي: لم نـزل، ومعنى ﴿نَخُوضُ﴾ فهو: ندخل فيما دخلوا فيه، ولم نـزل على ما كانوا عليه، والخائضون فهم: العاصون الداخلون في معاصي الله، الخائضون فيما لا يرضى الله، من قول أو فعل.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾، فأقروا بما كانوا فيه في الدنيا من التكذيب بيوم الدين، ومعنى ﴿نُكَذِّبُ﴾ فهو: نبطل ونجحد ولا نصدق ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾، والدين فهو: الجزاء على ما كان من أفعالهم، تقول العرب: فلان يدان بفعله، أي: يجزى بفعله، وكذلك روي أنه مكتوب في التوراة (يا ابن آدم كما تدين تدان) أي: كما تُعطي تعطى. و﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، فهو: وقت الدين، وهو اليوم الذي يجازى فيه العالمون، ويحشر فيه المربوبون.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ واليقين هاهنا فهو: الموت الذي وعدوا به، ومعنى ﴿أَتَىٰنَا﴾ فهو: واقعنا ونـزل بنا.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾، يقول جل جلاله: إنهم لو شُفع فيهم لم تكن الشفاعة تنفعهم ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾، وإنما هذا تمثيل من الله وإعلام لعباده بكفرهم، وعظيم جرمهم، وذلك أن الشفاعة تنفع في موضع الأمر اليسير، ولا تنفع في الموضع الذي فيه حكم من الله عليهم بالعقوبة، لا أن أحدا من الأنبياء المرسلين، ولا الملائكة المقربين، صلوات الله عليهم يشفع لأحد من أهل الوعيد، حاش لله أن يكونوا كذلك، أو يفعلوا شيئا من ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ يريد سبحانه: فما لهم كانوا في الدنيا عن التذكرة معرضين ومعنى ﴿ مَا لَهُمْ ﴾ فهو: ما بالهم، ومعنى ما بالهم فهو: أيّ شيء كانوا عن التذكرة معرضين، والتذكرة فهي: ما ذكر الله لهم وقص عليهم، وأخبرهم به على لسان نبيئه عليه السلام، مما يعاينونه في الحشر، ويوم النشر، مما كانوا به مكذبين، وعنه للعبهم معرضين، ومعرضون فهم: صادون تاركون.

ثم شبههم سبحانه بإعراضهم ونفرهم عن الحق الذي كان يتلى عليهم، بالحمر المستنفرة فقال: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾، والحمر فهي: هذه الحمر المعروفة، والمستنفرة فهي: الفزعة المرعوبة، ومعنى ﴿فَرَّتْ﴾ فهو: هربت، ومعنى ﴿قَسْوَرَةٍ ﴾ فهو: الأسد، فذكر الله سبحانه أن فرارهم عن الحق، ونفورهم عن الصدق، كنفور هذه الحمير من الأسد.

ثم قال سبحانه: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ ومعنى ﴿بَلْ﴾ فهو: قد، و ﴿يُرِيد ﴾ فهو: يحب، ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ ﴾ فالمرء هو: الرجل، يقول سبحانه، يريد كل رجل منهم ﴿ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾، و ﴿ يُؤْتَىٰ﴾ فهو: ينزل عليه ويعطى، والصحف فهي: الكتب المنشرة، والكتب المنشرة فهي: المثبتة المبينة، التي تنشر وتقرأ، ويعرف ما فيها ويتلى، فأخبر سبحانه أن جميع الفاسقين المكذبين إنما كذبوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله حسدا منهم له على ما آتاه ربه، فكلهم يطلب ويتمنى أن يكون نبيا مرسلا، وليس ذلك لهم ولا كرامة، بل لله الأمر والقدرة والعظمة، والعزة، يعطي من يشاء نعمته، ويؤتيه كرامته، ألا تسمع كيف يقول سبحانه:

﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ يريد بكلا: ليس تخافون، فأخبر سبحانه أنهم لم يكونوا يخافون في الدنيا معادا ولا آخرة، والآخرة هاهنا فهو: عذابها ونكالها.

ثم قال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾، يقول: ليس هو بباطل، ولكنه حق، ﴿تَذْكِرَة﴾، فالتذكرة هي التنبية والتبصرة.

ثم قال: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ يريد ﴿مَن شَآء ﴾، أي: من أراد، ومعنى ﴿ ذَكَرَهُۥ ﴾ يقول: تذكّره فخافه، وخشيه فحذره.

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾، يقول سبحانه: إنكم لم تكونوا تقدرون على التذكرة والتفكرة، والتمييز بين الحق والباطل، لو أن الله لم يشأ أن يجعل فيكم استطاعة تنالون بها الفكرة والتمييز، وعقولا تصلون بها إلى التذكرة، ولكنه شاء ذلك لكم، فركبه وجعله بَمِنِّه فيكم.

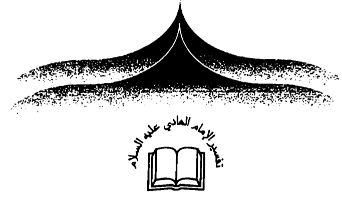
﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ معنى ﴿أَهْلُ﴾ أي: هو صاحب التقوى، ومعنى صاحب التقوى فهو: وليها والحقيق بها والمستحق لها، و ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فهي: المخافة من الخلق والإتقاء، و ﴿ٱلْمَغْفِرَة﴾ فهي: العيادة منه، والرحمة على عباده بالعفو بعد الغضب، وذلك ربنا الرحمن، أهل البر والتقوى والمغفرة والإحسان.

٣٥٤) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر:٣٨]؟

فمعنى قول الله سبحانه: ﴿رَهِينَةٌ ﴾ أي: مرتهنة، ومعنى مرتهنة: مأخوذة،

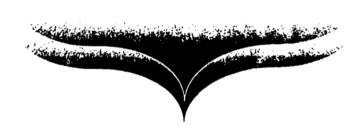
ومعنى مأخوذة هو: مجازاة بعملها، مكافأة على فعلها. فأخبر سبحانه أن كل نفس بكسبها مأخوذة وكسبها فهو عملها، وأخذه لها سبحانه بعملها، فهو إنفاذ وعده ووعيده لها، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [النمل:٨٩-٩٠]، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ ﴾ [الأنعام:١٦٠].





تفسير

سورة القيامة





تفسير سورة القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قول الله عز وجل: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ ﴾ معناها: ألا أقسم بيوم القيامة، فطرح الألف وهو يريدها، فخرج معنى نفي، وإنما معناه معنى إيجاب قسم، وقد تقدم شرحنا لطرح الألف وإثباتها في تفسير أول ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝﴾ [النبأ:١].

معنى ﴿أُقْسِمُ﴾ أي: أحلف وأذكر، يوم القيامة فهو: يوم الحشر للعالمين، والمناقشة للمربوبين، وإنما سمي قيامة: لما يقوم فيه من الأمر العظيم الهائل الجسيم، ومعنى يقوم فهو: يقع فيه، أي: يكون فيه.

﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ ﴾ فهو: أيضا: قسمٌ طرحت منه الألف، كأن معناها أولا: أقسم بالنفس اللوامة، والنفس اللوامة فهو: نفوس الثقلين، اللوامة فهي: النادمة المتحسرة التي تلوم صاحبها، ،ذلك أنه ليس من مؤمن ولا كافر إلا وسيلوم نفسه في يوم القيامة، فأما نفس المؤمن فتلومه أن لا يكون ازداد إيمانا وعملا؛ إذ رأت ما جعل لها على إيمانها من الجزاء والنعيم، والفوز الكريم، والملك العظيم، وأما نفس الكافر فتلومه على ما قدم من المعاصي والردى، عند معاينتها لما نـزل بها من العذاب الأليم والبلاء.

وإنما أقسم الله سبحانه بيوم القيامة لما فيه من عجيب الأمور، والفصل والقضاء بالحق والإستواء، ولما فيه من عظيم الثواب لأهله، وجليل العقاب لمستحقه، وأنه يوم عظيم الأمر، جليل الخطر، لما فيه من العدل والحق والفصل، بين جميع الخلق، فأراد سبحانه بالقسم به التنبيه على جليل ما فيه من آياته، وأخبر به من صفاته.

وكذلك أقسم باللوامة تنبيها على جليل ما قدر النفس عليه، وفطرها من الفطرة فيه، فجعلها بتقديره ساكنة في معامد الإنسان ومقاتله، يجري منها نَفَسُه، وتثبت بها حياته، ويكون بها طراوة [1] جسمه، ولين مفاصله، واستقامة جوارحه، فنبه الله عز وجل على هذا العجب من فعله العظيم، من صنعه في النفس بما أقسم به منها، وإنما يقسم الله تبارك وتعالى من الأشياء بكل أمر فيه تدبير، أو أثر صنع حسن أو تقدير، بكون ظاهر الشهادة بالحكمة لجاعله، قاطعا بالقدرة لفاعله، يقسم الله به تنبيها لعباده على التفكر والتذكر لما فيه من أثر صنعه، والشواهد له سبحانه بربوبيته.

وقد قال بعض من يتعاطى التفسير: إن معنى قَسَمِ الله بهذه الأشياء هو قسم بجاعلها، يزعمون أنه سبحانه أراد لا أقسم برب يوم القيامة، وكذلك لا أقسم برب النفس اللوامة، وهذا عندنا ليس بشيء، وليس يقول بهذا القول من الخلق إلا أعمى جاهل، لما يريد الله بقسمه لما يقسم به من الأشياء.

ثم قال سبحانه: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ ﴾، يقول: أيظن الإنسان، أي: يتوهم أنا لن نجمع عظامه، معنى ﴿نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أي: نردها بعد تمزقها وبلائها، ونحييها بعد ذهابها وفنائها، والإنسان هاهنا فهو: جميع الناس الذين شكوا في ذلك من فعل الله، وأنكروه من قول الله، ممن عَنَدَ عن دين الله، ولم يؤمن برسول الله من الجاهلية الجهلاء من قريش، ومن شاركهم من العرب وغيرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝ ﴾ يقول: بلى نحن على خلاف ما قالوا، ونحن قادرون على تسوية بنانه، والبنان فهو: الخلق والأسر والتأليف في الأعضاء والجعل، ونسوي فهو: نجعل ونحيي ونرد إلى القوة كل ما قد

---

(١) في (أ): طرءات. وفي (ب) و(ج): طرأة. ولعل الصواب ما أثبت.

بلى، من عظم أو لحم حتى نرد بنانه إلى الاستواء، بعد ما كان عليه من الخراب والفناء.

ثم قال: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ ﴾ الإنسان هو: الناس، والإرادة فيهم هي: المشيئة، ﴿لِيَفْجُرَ﴾ أي: ليعصي ربه، ويتبع شهوة نفسه، ويسعى في لذة قلبه، ومعنى ﴿أَمَامَهُۥ﴾ فهو: ما بقي من عمره وحياته، يريد: أن الفاسق يريد أن يجعل باقي حياته كلها فجورا وفسقا، وعصيانا لله سبحانه وعتيا.

﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝ ﴾ معنى ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى يوم القيامة؟ فأخبر سبحانه بأول أشراط يوم القيامة، فقال: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ ﴾، فأخبر أن القيامة إذا كانت هذه الشروط وعوينت، فهو: يوم القيامة، ومعنى ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ فهو: شَخَصَ وحَارَ لما يرى من هول ذلك اليوم، ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ فهو: سقط وذهب وانحل وانقضى، ومعنى ﴿ جُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ فهو: جمعا في نفاذ الإرادة فيهما، وإمضاء المشيئة في فنائهما وانقضائهما، فيقول: جمعا جميعا في حكم الذهاب والفناء، وزوالهما عن مراتبهما، وجمعا في المنع لهما عن الجولان والدوران في أفلاكهما، وصارا ممنوعين مما كانا عليه، منقولين مما كانا فيه، مجتمعين في الفناء، وفي التقطع والإنقضاء، فقد انتظمهما ذلك جميعا، ونـزل بهما أمر الله معا، فهذا معنى ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.

﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ ﴾، يريد: أين المذهب؟! عندما يرى من البلاء، ووقوع الوعيد عليه والجزاء، والإنسان الذي يقول ما ذكر الله من قول الإنسان، فهم: أهل الكبائر والعصيان.

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ ﴾، يريد بـ ﴿كَلَّا﴾: إنكارا عليه لطمعه في المفر، ومعناها: لا يكون وزر، والوزر فهو: الملجأ والمفر.

[﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يُعلم الإنسان ويُخبر ويُوقف على فعله، ويُذكر بما كان قد قدم وأخر، ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فهو: الناس كلهم، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: يوم القيامة، ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، فمعنى ﴿قَدَّمَ﴾ أي: ما سلف منه من العمل، ومعنى ﴿أَخَّرَ﴾، فهو: أخر النظر في عاقبته، يقول: قدم عملا فعمله، وأخر عن نفسه النظر والمخافة في عاقبته، ومعنى ﴿أَخَّرَ﴾ فهو: ترك ورفض الفكر، والخوف لمثل ما وقع فيه في يوم الدين، من العذاب المهين، على جزاء فعله المقدم، هذا معنى ﴿قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، ولا يخرج أبدا على غير هذا المعنى؛ لأن كل عمل عمله الإنسان قبل وفاته، فهو: متقدم لوفاته وللقاء ربه، ولا يجوز أن يقال لشيء فعله في حياته من فعله الماضي وصنعه الذي وجب عليه الوعيد به: إنه متأخر ولا إنه أخره، كيف يكون مؤخرا بعد وفاته، وقد وجب عليه الوعيد بفعله، وليس الذي ترك وأخر إلا ما ذكرنا من ترك المخافة للوعيد والفكرة فيه، والنظر في عاقبته، و ترك الإستعداد له.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾، يريد: بل هو على نفسه حجة، وشاهد عليها بما كان من فعلها، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]، يقول سبحانه: هو عالم في حياته بما يكون منه، وهو أعلم الخلق بما هو عليه من ضميره وعلانيته، فهو: أبصر وأعلم بما هو عليه في حياته لربه، وهو في الآخرة شاهد على نفسه بفعله في حياته، حجة لنا عليها، وقائل بالحق يوم الدين فيها.

﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾، والإلقاء هو: الطرح [(١)] والكلام للإعتذار، والمعاذير فهي: الكلام الذي لا يثبت ولا يصح لقائله صدق، فيقول سبحانه: هو عارف بنفسه، عالم بغامض أمره، وسر ضميره.

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾، يقول: لا تذكرن منه شيئا حتى تفهمه، ولا تعجل بإلقاء شيء منه إلى الناس حتى تحكمه ونثبت تنـزيله، ومعناه في قلبك، فتذكره من بعد ذلك، فإنك إن عجلت بذكر تنـزيل، قبل فهم تأويل، لم تأمن أن تُسأل عن التأويل فلا تعلم ما أردنا به، فاثبت وَتَأَنَّ حتى نعلمك المعنيين كليهما، فإنك لا تعلم الغيب ولا تعلم إلا ما عَلَّمناك، ولا تفهم إلا ما فَهَّمناك.

ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ يريد: جمع سوره في قلبه، وتمكين القرآن كله في صدره، والإيحاء به كله إليه، وتنـزيله شيئا شيئا عليه، حتى يكمل القرآن كله في صدره مجتمعا، وتضمه جوانحه بالحفظ له كله معا، حتى يكون بحفظه وتأويله فَهِما، وبتنـزيله ومعانيه عالما، فقد جمع الله ذلك كله، وثبت به سبحانه فؤاده، ومن الجمع جمع كل آية إلى سورتها، حتى تكمل السورة على حقيقتها، فتجتمع الآيات كلها إلى مواضعها، وذلك أن القرآن نـزل عليه صلى الله عليه وعلى آله خمسا خمسا [(٢)]، فذكر الله سبحانه أنه سيجمعه له، ومعنى ﴿جَمْعَهُۥ﴾ فهو: تأليفه، فذكر سبحانه أن عليه تأليف الآيات بعضها إلى بعض، حتى تكمل السورة سورة سورة، فهذا معنى ﴿جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، فمعنى

---

(١) الطرح. قال في لسان العرب: لفا إذا تكلم بالمِطْرَح.

(٢) أخرجه الحاكم ٢/٦٦٧(٤٢١٦)، والنسائي في الكبرى ٥/٧(٧٩٩١)، والطبراني في الكبير ١٢/٣٢(١٢٣٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر، وابن عساكر من طريق أبي نضرة. أفاده في الدر المنثور ٥/٣٤٦.

﴿قُرۡءَانَهُۥ﴾: تنـزيله إليك وتلاوته لديك، وقراءة جبريل له عليك، حرفا حرفا، ويُحَفِّظك إياه شيئا شيئا، فهذا معنى ﴿قُرۡءَانَهُۥ﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ يقول: إذا قرأه عليك جبريل يحفظك إياه، فاتبع قراءة جبريل وتعليمه إياك، ومعنى ﴿ٱتَّبِعۡ﴾، أي: اتبعه فيه، وقل كما يقول، واقرأ كما يقرأ، وخذ ما يعطيك، وتعلم ما يعلمك من القرآن، الذي أمرناه بتعليمك إياه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝﴾ يقول سبحانه: إن علينا تبيين ما نـزلناه إليك حرفا حرفا، وتفسير ما فرضنا عليك فيه شيئا شيئا، فاحفظ تنـزيل ما أوحينا إليك تحفظا جيدا، فإذا حفظت التنـزيل علمناك التأويل، وفهمناك تبيان ما فيه من الأمر الجليل، فأراد الله سبحانه يثبت قلبه بتعليمه القرآن شيئا فشيئا، فعلمه التنـزيل شيئا فشيئا، وعلمه التأويل شيئا فشيئا، فأراد سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: الإخبار له بأن عليه بيان كل شيء أنـزله عليه، من حرام وحلال، وتبيينه حتى يعلم بعد حفظ التنـزيل، وعلمه غوامض علم التأويل كله، فلا يضل عنه منه حرف واحد صغير، ولا يذهب منه قليل ولا كثير.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝﴾ فأخبر أن من لا دين له من الخلق يحبون العاجلة، والعاجلة ما تعجل له ودنى وحضر وقرب من كل الأشياء، ﴿وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝﴾، معنى ﴿تَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ هو: تتركون العمل لها، وترفضون العمل الذي تنالون به خيرها، فلما أن رفضوا العمل الذي ينالون به الآخرة، كانوا للآخرة تاركين، وللعاجلة التي عملوا لها مؤثرين، والعاجلة فهي: الدنيا الفانية، والآخرة فهي: المتأخرة الباقية.

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝﴾ فيومئذ هو: يوم القيامة،

والناضرة هي: المسرورة البهجة، المطمئنة الفرحة، التي عليها لقلة الخوف النضرة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يريد: إلى ما يكون منه ناظرة، ولثوابه ووعده منتظرة، ومعنى ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أي: راجية، ولثوابه منتظرة، كذلك تقول العرب: ما أنظر إلا إلى الله وإليك، وليست تريد بذلك النظر بالعين إليه، وإنما تريد فضله وعطاءه، وكذلك يقول القائل من العرب لمن يطلب رفده وبره: عيني مفتوحة إليك، وأنا ناظر إليك، ليس تريد أن يفتح عينيه لينظر بها إلى جسمه، فإنما تريد: أن عيني مفتوحة إلى ما أرجو النظر إليه من عطائك، ومواهبك وفعالك.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ فهو: وجوه الكفار، ومعنى ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: باسرة لأنفسها عن رحمة الله، بما كان من عصيانها لله، فلما أن عصت الله تلك الوجوه والأبدان، بسرت أنفسها عما أعده الله من الثواب والإحسان، لمن أطاعه من جميع الإنسان، فسماها باسرة، إذ كانت قد بسرت أنفسها عن رحمة الله وثوابه في الآخرة، بما قدمته من معصيته في العاجلة، ومعنى بسرت أي: مُنعت ودُفعت وحُرِّمت.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾، ومعنى الظن هاهنا: اليقين، يقول: توقن أنه سيفعل بها فاقرة، ويفعل أي: يعمل بها ويصنع، والفاقرة هي: الداهية النازلة القاتلة المهلكة، وإنما سميت فاقرة؛ لأنها تفقر الظهر، وتفقير الظهر: قطعه، تقول العرب: فقر ظهره، أي: دقه وقطعه وحفره ونقبه، من ذلك ما تقول العرب: افقروا في الشيء فقرا، أي: احفروا فيه حفرا، ومن ذلك ما سمي عدم الدينار والدرهم: فقرا، لأن عدمهما يثقب القلب ويفقر الظهر، فلما أن كان يعمل ذلك بصاحبه، قيل: نـزل به الفقر، أي نـزل به ما يثقل به الحال في كل الأمر.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾، فالبالغة للتراقي هي: النفس عند خروجها من الجسم وبلوغها تراقي صاحبها، والتراقي فهما: ترقوتا الإنسان المعروفتان، وهما

العظمان اللذان تحت اللحيين إلى أسفل الرقبة وفوق الصدر، يريد بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا ترجع النفس موضعها بعد بلوغ التراقي أبدا.

﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝﴾، أراد بذلك: الدليل على جهل الخلق بأمر الله، وقلة علمهم بانقضاء أجل صاحبهم، فهم يطلبون له من يرقيه، ويتوهمون أن به داء غير الموت الذي يفنيه، فهم يقولون: من يرقي، والراقي هو: الذي يعوذ ويرقي.

ثم قال: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝﴾، يريد بقوله: ﴿وَظَنَّ﴾ أي: أيقن صاحب النفس التي بلغت التراقي أن الذي هو به الموت، الذي يفرق بينه وبين حياته، وهو موقن بالموت لما قد رأى وعاين ووجد، وأهله وإخوانه لا يوقنون بما أيقن، فهم يطلبون له الرقاء و الدواء، وقد عاين الداهية الدهياء، وأيقن بالفراق والفناء.

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝﴾، والتفاف الساق بالساق فهو: صفهما لخروج الروح منهما، فإحداهما على الأخرى ساقطة، إن وضعت فوقها لم تتقلع عنها أبدا إلا أن تقلع، ولم تماز منها إلا أن تنزع، إن تركت فوقها لم تزل ملتفة أبدا بها، وإن نزعت عنها لم ترجع إليها، إلا أن يردها غير صاحبها.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝﴾، فهذا اليوم الذي قال الله: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ فليس هو باليوم الذي قال الله سبحانه: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝﴾، هذا اليوم هو يوم وفاة الخلق، وعند معاينتهم لنزول الحق، ومواقعة ما وعدهم الواحد الخلاق، من الموت اللاف للساق بالساق، فهذا اليوم الذي ذكر الله فيه أن فيه إليه المساق، وذلك اليوم فهو: يوم البعث والحق المساق، يقول: المضي به والتصيير له إليه سبحانه، ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى الموضع الذي جعله الله مقرا للأرواح إلى يوم مماتها، ويوم ممات الأرواح فهو: ممات الملائكة والجن، وهو يوم القيامة عند النفخة الأولة،

التي ذكر الله أنه يصعق بها من في السموات ومن في الأرض، ومعنى يصعق فهو: يموت ويذهب، ومعنى هذه النفخة الأولة التي ذكر الله فقال: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾، فهو: صُوَر الخلق وأبدانهم، ومعنى نفخ فيها فهو: وقع فيها وَوَاقَعَهَا من أمر الله ما أفناها، وحل بها من قضائه ما أزالها وأمضاها، فعند وقوع هذه النفخة تموت أرواح الخلق والجن والملائكة، ثم ينفخ فيها النفخة الثانية بالحياة كما قال الله: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر:٦٨]، يقول عز وجل: نفخ في الصور بالحياة مرة أخرى، كما نفخ فيه بالموت أولا، ومعنى ﴿ نُفِخَ ﴾: جعل، كما قال الله سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩، ص:٧٢][1]، يقول: جعلت فيه الروح، فنفخ الله تبارك و تعالى في الصور هو الحياة، كنفخته في صورة آدم بالحياة، وجعل الروح فيهم، كما جعله في صورة أبيهم.

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾، فطرح الألف، وهذا موضعها وهو يريدها، وقد تقدم شرح هذا المعنى منا في غير هذا المكان، يريد بهذا اللفظ سبحانه: فلو كان في حياته من المصدقين، بما جاء من رب العالمين، على لسان النبي الأمين، وكان من المصلين، لكان بذلك عند الله من الفائزين، ولكن لم يكن كذلك، فكان من الهالكين.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾، معنى ﴿وَلَٰكِن﴾ هو: بل، يقول: بل كذب وتولى، أي: كذب بالحق، أي: جحد ولم يقر ولم يصدق، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ يقول: التوى عن الحق، وانصرف عن الصدق.

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾، يقول: رجع من عند الرسول صلى الله

(١) في المخطوطات أثبت الآية هكذا: فإذا نفخت... ولا توجد آية بهذا اللفظ في القرءان، وإنما كما أثبت.

عليه وعلى آله إلى أهله مكذبا يتمطى، والتمطي: شيء يفعله الزاهد فيما يلقى إليه، ويؤمر به ويتلى عليه، وهو أمر يدل من فاعله على الإنكسار عما يتلى عليه، والملالة لما يؤمر به، فإذا مَلَّ وضجر من ذلك العمل كائنا ما كان، داخله الزهد فيه والضجر منه، يتمطى لما يداخله من الملالة له، والتمطي فهو: مد اليدين والتلوي، والتلفت بالمنكبين والتثني، ولا يقع هذا إلا بالمَالِّ لما هو فيه من الضجر منه، فأخبر الله سبحانه عن المعرضين عن الله وعن رسوله، الزاهدين فيما يتلى عليهم من كتابه، أنهم بضجرهم وملالتهم وكراهتهم، لما يلقي صلى الله عليه وعلى آله في آذانهم، ينقلبون إلى أهلهم يتمطون من استثقال ما سمعوا منه، من تلاوته كتاب الله وبغضهم له، فدل تمطيهم على ضجرهم وملالتهم وكراهيتهم لذلك من فعله.

ثم قال سبحانه: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾، يقول: كِدَ لك يا ضَجِراً يتمطى [1]، ويا زاهدا في الهدى كيد لك، ومعنى ﴿أَوْلَىٰ﴾ هو: كيد لك، ومعنى كيد لك أي: كاد أخذ ربك أن ينـزل بك عند فعلك، وكادت نقمته أن تحل بك عند تعنتك، وكادت بطشة ربك أن تنالك عند تمطيك، وحين إدبارك عن الحق وَتَوَلِّيك، وكذلك تقول العرب إذا رمت أغراضها فقاربت سهامها الغرض، قالت: كادت به، أي: قاربته وقصدته ودانته ولم تصبه بعد، وكذلك إذا طعن الفارس شيئا فداناه ولم يصبه، قالت العرب: كاد به، أي: قاربه وداناه.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ ﴾، يقول سبحانه: يتوهم الإنسان، ومعنى ﴿يُتْرَكَ﴾ أي: يخلى، ﴿سُدًى﴾ أي: مهملا، والمهمل فهو: الذي لا يرعى ولا يحفظ منه مقبل ولا مدبر ولا مذهب ولا مأتى، ولا يحصى عليه شيء من الأشياء،

---

(١) في (أ): فيا ضجرا تتمطى.

من ذلك ما تقول العرب لمن ضيع إبله وخلاها، أو غنمه أو دابته: خلى فلان دابته في الأرض هملا، أي: خلاها بلا راع ولا حافظ ولا متعاهد ولا عارف لأمرها، فهذا معنى الهمل، والسدى فمعناه: هملا.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝﴾، يقول: أليس قد كان نطفة في ظهر أبيه، والمني فهو: الماء الذي ينـزل من الظهر عند الجماع، ومعنى ﴿تُمْنَىٰ﴾[1] فهو: تخرج وتلقى، وكل شيء أمني، فقد أخرج وأظهر وألقي.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾، يخبر سبحانه أنه صار في الرحم بعد أن كان نطفة علقة، والعلقة فهي: الشيء الجامد من الدم، فأخبر الله سبحانه أن النطفة البيضاء تنقلب بقدرته في الرحم علقة حمراء، ثم تنقلب العلقة الحمراء مضغة، ثم يخلقها الله سبحانه ما يشاء، ويسوي منها ما أحب.

ثم قال سبحانه من بعد أن ذكر العلقة: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝﴾، يريد عز وجل: خلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم قال من بعد خلق الله فيه ما شاء من خلق الذكر أو خلق الأنثى، فهذا معنى قوله: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، يقول: خلق شيئا بعد شيء حتى سواه من هذا الماء، ما شاء من ذكر أو أنثى.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝﴾، يعني بقوله: ﴿جَعَلَ﴾ أي: خلق فصور، وفطر فقدر، ومعنى ﴿مِنْهُ﴾ أي: من ذلك المني الذي أمناه الزوجان، وهما الصنفان اللذان يتزاوجان، وهو الذكر والأنثى، فأراد سبحانه بذكر ما ذكر من فعله في الآدميين، وتنقيل خلق المخلوقين، أن

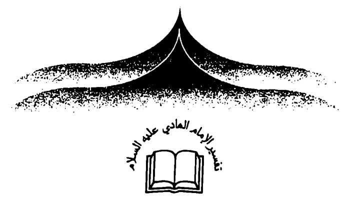
---

(١) الإمام الهادي عليه السلام يعتمد على قراءة نافع وهي قراءة أهل المدينة في جميع القرآن ومنها هذه.

يعلمهم أنه لم يفعل ذلك بهم لأن يخلقهم سدى، وإنما فعل ذلك بهم لأعظم ما يكون من المعنى، وهو ما أراد بهم من الإمتحان والإختبار والإبتلاء، بالعمل في دار الدنيا، والإيجاب عليهم في يوم الدين لما أوجب من الجزاء، فأعلمهم أن من كانت هذه إرادته من خلقه فقد بَعُدَ منه أن يجعلهم سدى، وبانت له بذلك الفعل القدرة فيهم وفي غيرهم على ما يشاء.

ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝ ﴾، معنى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ هو: أما ذلك؟ فيقول: أما الذي فعل ما فعل ودبر، من تقليب تدبير خلقكم ما دبر، حتى صار من الماء بتدبيره وقدرته إنسانا قويا ثابتا ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ معنى ﴿قَٰدِرٍ﴾ أي: مستطيع لذلك قوي عليه، نافذ أمره فيه، ومعنى ﴿ يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ هو: يردهم بعد المات أحياء، فأخبر سبحانه بذلك أن إحياءه لرميمهم أجساما كابتدائه لخلق أجسامهم أولا من الماء، فأخبرهم أن من ابتدأ شيئا من لا شيء، أي: جعل شيئا من غير شيء، فهو: على إزالته قادر، وأنه على رده إلى الهيئة الأولى التي قد فرغ من خلقها، وأحكم تدبيرها أقدر منه على ابتدائها، وأهون عليه في جعلها، كما قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ ۝ ﴾ [الروم:٢٧]، فضرب عز وجل ذلك لهم مثلا كما مثلنا نحن به أيضا، وليس قوله: ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾، ولا هو على ردها أقدر، يقتضي أن له سبحانه حالا متفاوت حالا، ولا أن شيئا يمتنع عليه جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، بل كل ما شاء أن يكون كان على ما يشاء ذو الجلال والإكرام والسلطان، ولا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، ولا يؤده حفظهما شيء وهو السميع العليم.





تفسير

سورة الإنسان





تفسير سورة الإنسان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ ﴾ فمعنى ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ أي: قد أتى، ومعنى ﴿حِينٌ﴾ فهو: الكثير الطويل من الدهر، ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ ﴾ يقول: لم يكن شيئا يذكر في هذا الدهر الذي غبر، حتى خلقناه من بعد طول الدهور وكوناه، والمعنيُّ بذلك فهو: جميع الناس الذين خلقوا من بعد أن لم يكونوا، فأراد الله تبارك وتعالى بذكر ذلك الإخبار لهم بأنه قد كون أولهم من بعد العدم، إذ لا شيء من الأشياء، ثم صور آخرهم فيما قدر من الماء المهين، فكلٌّ كان ووجد وخلق وقدر بعد العدم الطويل.

ثم قال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ومعنى ﴿إِنَّا﴾ هو: نحن، ومعنى ﴿خَلَقْنَا﴾ هو: أوجدنا وصورنا وجعلنا، وقدرنا الإنسان من نطفة، والنطفة فهو: المني، والمني: الماء الذي يخرج من الرجل عند جماعه فيقع في الرحم، ويخلقه الله ما يشاء من الذكر والأنثى.

﴿ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾والأمشاج فهي: الأوصال الموصلة، والأعضاء المفصلة، والقطع المتلائمة، المضموم بعضها إلى بعض، والمعلق كل شيء منها في شيء، تدبيرا من الرحمن، في تأليف ما ألف من الإنسان، قوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره ونمتحنه بما يرى من أثر تأليفنا وتقديرنا لخلقه، لننظر كيف يكون شكره على ذلك، لمن فطره وجعله كذلك.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ ﴾ يقول: خلقناه ذا سمع يسمع به، وذا بصر

يبصر به، ليكون أعظم في النعمة، وأكثر في الإبتلاء، وأثبت للحجة.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ معنى ﴿ هَدَيْنَٰهُ﴾ أي: إنا عَرَّفناه وبَصَّرناه وبينا له، والسبيل فهو: سبيل الله الذي هدى إليه عباده، وسبيل الله فهو: دين الله ومراده، من خلقه الذي أراده أن يعبدوه به.

﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾ يقول: فلا بد أن يكون شاكرا لذلك من جعلنا، أو كافرا لما أوليناه في ذلك من نعمنا، والشاكر فهو: العارف بفضل ما أولى، الذاكر له بلسانه وقلبه، والكفور فهو: المعرض عن حمد من أولاه الجميل، الذي ليس بشاكر لذلك ولا ذاكر.

ثم أخبر سبحانه بما عد لمن كفر نعمه، فقال: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝ ﴾، والسلاسل فهي: سلاسل من حديد يقرنون فيها، منها السلسلة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝ ﴾ [الحاقة:٣٢]، والأغلال فهي: الأغلال المفهو: مة من الحديد في الدنيا، التي يغل بها المغلولون، وهي عُمُدُ حديد تربط في الأيدي إلى الرقاب، طول كل عمود شبرا أو أقل، كذلك يغل الله أعداءه في النار، ليكون ذلك أنكى في العذاب، وأضيق للصدور، وأشد للبلاء. والسعير فهو: لهب النار، واستعارها فهو: توقدها وتلهبها.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الأبرار الشاكرين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ ﴾، والأبرار فهم: الذين برأوا أنفسهم بالصيانة لها عن النار، وإخراجها من العقاب، وإدخالها في النعيم والثواب، فصاروا بذلك من فعلهم أتقياء، وسموا به بررة أولياء، والكأس التي يشربون منها فهي: المشارب والآنية التي يشربون بها ما يُشرب من أنواع الأشربة والماء.

ومعنى ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾، فهو: إخبار من الله أن طعم ما يُشرب من تلك المياه يوجد كالمخلوط بالكافور، وهو أطيب ما يكون طعما ورائحة.

ثم قال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ والعين من الماء: السائح على وجه الأرض الكثير الجاري، ومعنى ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ أي: يشرب منها، ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي: يصرفونها حيث ماشاءوا، ويسيلونها أين ما أحبوا تسييلا.

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ فمعنى يوفون: يتمون، ويوفون ويؤدون ما عليهم من ذلك، والنذر فمعناه: الواجب من كل شيء، وكل ما وجب على الإنسان من شيء فهو: نذرٌ عليه، من ذلك أن يوجب على نفسه لله شيئا وينذره، ومعنى ينذره أي: يوجبه على نفسه من صيام أو صلاة، أو عتق أو صدقة، أو في شيء من أفعال البر، ومن النذر: أداء واجب الزكاة، ومن النذر: الصيام والصلاة وغيرهما من الفرائض الواجبات، وكل ما أوجب الله على العباد من فرائضه، أو أوجبوه على أنفسهم له، فهو: نذر عليهم؛ لأن العرب تسمي كل واجب نذرا، وتدعوه بذلك، من ذلك ما تقول العرب لمن تثق به وتعدله في تقدير جراحها: نَذْرُ جراح فلان، تريد: أوجب فيه من الدية والغرم والواجب ما يجب في مثلها، وتقول: نذر هذا الجرح كذا وكذا، تريد: الواجب فيه. فمدح الله سبحانه كل موفٍ بنذره، ومؤديا للواجب عليه في كل أمره.

﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ فهو: يتقون ويحاذرون، ﴿ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ ﴾، فهو: يوم القيامة، وشره فهو: بلاؤه وعذابه وحسراته وشقاؤه، ﴿مُسْتَطِيرًا ﴾ أي: ظاهرا عاليا مكشوفا مبينا.

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ فإطعامهم: اعطاؤه والجود به والبذل، والطعام فهو: المعيشة من كل ما جعله الله غذاء للبشر، وعيشا وقواما، ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾، يقول: على الحاجة إليه، والرغبة فيه، في ساعة العسرة والضيق والشدة، ﴿ مِسْكِينًا ﴾ فهو: الفقير المحتاج إلى الطعام، ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ فهو: الطفل الذي لا والد له، الذي قد ثكل والديه أوأحدهما، وعَدِمَ حسن نظرهما وقيامهما وعنايتهما وكفايتهما، ﴿وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ والأسير: كل مأسور قد أوثق أسره، واشتد بالأسر عليه حاله وأمره، مولا لا يقدر على ماله وأهله، من الأسارى الذي أسرهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من الكفرة الفاجرين، وكذلك مَن أَسَرَته الأئمة الهادون، من مأول فاجر، أو جاحد كافر، فواجب على من أسر أسيرا من الفاسقين والكافرين، إن لم يكن له مال، ولا سبيل إلى سعة حال، بوجه من الوجوه، أن ينفق عليه من بيت مال المسلمين بالمعروف، وإن كان له مال، أو كان في قرب أهله ومن يبلغه منافعه، وجب عليه أن يأمره بالإستنفاق من ماله، ولم ينبغ لنا أن ننفق عليه أموال المسلمين، إذا كان بالإنفاق على نفسه من الواجدين، وفقراء المسلمين أولى بتلك الفضلة، وبتلك التوسعة، فهذا يجب النظر فيه وتمييزه على الإمام، ومن أطعم غير هؤلاء الثلاثة من سائر أهل الإسلام، فهو: مأجور أيضا على ذلك محمود.

وقد ذكر أن هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعال، فأثنى الله سبحانه عليهم، هم: الخمسة محمد صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين رحمة الله عليهم، فعلوا ذلك في وقت عسرة وضيق شديد وحاجة إلى المعاش، فأثنى الله سبحانه كذلك عليهم، وذكر ما سيأتي ذكره مما أعد الله لهم من الثواب، وكان في قولهم في ذلك لمن أطعموه، فشكرهم الله ما ذكر الله من قولهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، معنى ﴿نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ هو: نطعمكم لله تقربا إليه، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً ﴾

أي: لا نريد منكم عطاء على ذلك ولا شكورا، أي: لا حمدا ولا ثناء ﴿وَلَا شُكُورًا ۝﴾ إنا إنما فعلنا ذلك لأنفسنا ولم نفعله لكم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝﴾ معنى ﴿إِنَّا﴾ أي: نحن، ﴿نَخَافُ﴾ أي: نتقي، ﴿يَوْمًا عَبُوسًا ۝﴾ والعبوس فهو: الشديد المعبس لوجوه الناس لشدته، والقمطرير فهو: المتضاعف الشدة، الصعب الأمر، الذي ليس بعد شدته شدة، المتراكبة شدته شيئا فوق شيء.

فأخبر الله أنه قد وقاهم شر ما يخافون من ذلك اليوم، فقال: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، ومعنى ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ فهو: صرف عنهم هوله، وكفاهم شره، والشر فهو: بلاؤه وعذابه، و ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ فهو: يوم الفصل والحشر، ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أي: أعطاهم وأنالهم ﴿نَضْرَةً﴾، ومعنى اعطائه إياهم لها فهو: إلقاؤها عليهم، وجعلها في وجوههم، والنضرة فهي: البهجة، وحسن الحال في الرؤية، وظهور النعمة، ﴿وَسُرُورًا ۝﴾ فهو: بالبشارة التي يلقيها إليهم، والسرور الذي يُنعم به سبحانه عليهم، حتى يتحكن السرور بذلك في صدورهم، كما يمكن النظرة في وجوههم، بما يأمنون من عقابه، وما يرجون من ثوابه.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ يقول سبحانه: أعطاهم ثوابا على صبرهم على محن ربهم، وما نالهم فيه من البلاء من أعدائه، ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝﴾، والجنة في مساكن الآخرة التي أعدها الله للمتقين، فيها لذة أنفسهم، وشهوات قلوبهم، ﴿وَحَرِيرًا﴾ فهو: الحرير الملبوس المعروف، غير أن لحرير الآخرة فضلا.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ والإتكاء فهو: ضرب من الإضطجاع، وهو ما كان من الإتكاء على جانب، والإتكاء فهو: الميلان يمينا ويسارا، ومعنى ﴿فِيهَا﴾

فهو: في الجنة التي ذكر الله على الأرائك، والأرائك فهي: الأرائك المعروفة التي تضرب في صدور البيوت، يرقد فيها ويتكأ عليها، ويرخى جوانبها على ما فيها من أهلها، وتذال جوانبها وأغشيتها [1]، وهي تكون كلها من الحرير.

ومعنى ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ فهو: في الأرائك، غير أنها حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض، وهي الثمانية والأربعون حرفا، قال الله سبحانه فيما حكى عن فرعون اللعين: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، فأراد: على جذوع النخل، فأقام ﴿فِي﴾ مقام (على)، وكذلك قال هاهنا: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، فأقام ﴿عَلَى﴾ مقام (في)، قال الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت لدى لجج خضر لهن نئيج [2]

فقال: ترفعت لدى لجج، يريد: على لجج، فأقام (لدى) مقام (على)؛ لأنها من حروف الصفات، وكذلك تقول العرب: رضي الله عليك، تريد: رضي الله عنك، وأكثر من يستعمل ذلك فأهل اليمن، وقد قال غيرنا: إن الأرائك هي الأسرة، وليس بمعروف في اللغة ولله الحمد.

ثم قال سبحانه لا: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝﴾ يعني سبحانه: في الجنة، ومعنى ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: لا يجدون فيها وهج شمس ولاحرها، والزمهرير فهو: البرد الشديد الذي ينتفض منه الإنسان، وتضطرب منه أعضاؤه، لشدته وألمه ومداخلته لجميع بدنه، فأخبر تبارك وتعالى أنهم لا يجدون في الجنة حَرًّا مؤذيا، ولابردا مؤلما، وأن هواها ألذ هواء، وحال أهلها أحسن حال، دائم نعمته، سرمد سروره.

---

(١) تذال: ترخى وترسل. قال ابن منظور: أذالت المرأة قناعها، أي: أرسلته. لسان العرب، مادة ذيل.
(٢) لم أقف عليه.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا ﴾ فدنو الظلال عليهم فهو: غشيانها لهم، وإظلالها عليهم وقربها منهم، ولا أحسب - والله أعلم- أن الله عنى بهذا الظلال في هذا الموضع إلا ظلال الأشجار، الدانية الثمار، المتهدلة، ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ والقطوف فهي: الثمار التي تقطف، ومعنى تقطع أي: تقطع للأكل وتجذ، والتذليل فهو: الإرخاء والإدناء حتى تدنو وتدلى وتقرب من آخذها، وتمكن لآكلها، فذلك معنى تذللها، ومعنى ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي: أدنيت إدناء، وقربت تقريبا.

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾والطوفان بها هو: الدوران بها عليهم والعرض لها، والآنية فهي: آنية المشارب والمطاعم، يطاف عليهم بما فيها من الأطعمة والأشربة، تعرض عليهم أكلها وشربها في كل ساعة وأوان، كرامة لهم من الله الواحد المنان، وهي الصحاف والأخونة والجفان، وغير ذلك مما يكون فيه الطعام، والأكواب فهي: الكيزان والأقداح، ذوات الحسن والهيئة والأرجل من فضة، والفضة فهي: هذه الفضة المعروفة البيضاء المخلصة.

﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ ﴾ يريد: - والله أعلم - التمثيل لها في ذكره القوارير بصفاء القوارير التي يُرى جميع ما فيها، فذكر أن هذه الآنية ﴿ مِن فِضَّةٍ ﴾، صافية منيرة رقيقة ومضيئة، يُرى ما فيها كما يُرى ما في القوارير من ورائها. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ يريد سبحانه: أنهم يقدرون أوقات الطوفان بها على الآكلين والشاربين تقديرا حسنا، فيأتونهم بها على أوقات حاجتهم إليها، ويكون ذلك من هؤلاء المقدرين من الخدم والطوافين بها عليهم تقديرا حسنا، ومعرفة بقدر الأوقات التي يحتاج أهل الجنة إلى تقريب هذه الآنية، التي فيها المآكل والمشارب، فهذا أحسن ما علمناه من التأويل في: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ والكأس التي يسقونها هي: الشراب الذي في الكأس، غير أن العرب تدعو ما كان في الكأس كأسا، تقول: اسقني كأسا وقدحا واحدا، تريد: اسقني ملأه ماء، فأراد الله عز وجل أنهم يسقون في الكأس ما يكون مزاجه زنجبيلا، ومعنى ذلك: أن توجد فيه رائحة الزنجبيل وطعمه، فهذا معنى مزاجها.

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ العين فيها فهي: الماء السائل الكثير الجاري النابع من الأرض، ﴿فِيهَا ﴾ يعني: الجنة، ﴿ تُسَمَّىٰ﴾ أي: تدعى، ﴿ سَلْسَبِيلًا﴾ وهو: اسم لتلك العين، ومعناه: العذب الطيب السلس الخروج، السلس المدخل، المريء الغذاء، والزنجبيل فهو: عود طيب المطعم، يتداوى به في كثير من الأشياء، ويكسب آكله المرى، ويخفف عنه ثقل الغذاء.

﴿ ۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: تدور الخدم عليهم، ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾، والولدان فهم: الوصفاء، ﴿مُّخَلَّدُونَ ﴾ فهم: المعمرون الذين لا يموتون ولا يفقدهم مَن جُعلوا له؛ لأن أهل الآخرة لا يموتون بعد مصيرهم إليها، فمدحهم الله عز وجل بالخلود، وهو أفضل ما أعطي العاملون.

﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ يقول: إذا أبصرتهم شبهتهم باللؤلؤ المنثور في صفاء ألوانهم، وحسن أبشارهم، ومعنى منثور فهو: المتفرق والمتبدد، وإنها عنى الله سبحانه من اللؤلؤ كباره ودره وحسانه.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴾ يقول: إذا عاينت ما ثم وأبصرته، رأيت النعيم العظيم، والنعيم فهو: كثرة الخير من الأطعمات والأشربات والآلات والأبيات، ومعنى ﴿ ثَمَّ﴾ يريد: هناك، ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾، والملك فهو: ما أعطاهم الله ثم،

وجعل لهم في تلك الدار من آنيات الذهب والفضة والثياب الكثيرة من كل لون، والخدم وقصور الدر والياقوت والذهب والفضة، وكل ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين، من منكح أو مطعم أو مشرب أو لباس أو ركوب، أو غير ذلك من الثمار والأشجار والعيون والأنهار، ثم مع ذلك أن كل ما هم فيه دائم أبد الأبد، لا يدخله تغيير ولا فناء، فهذا الملك غير الملك في الدنيا، ومعنى ﴿كَبِيرًا﴾ فهو: عظيم كثير ممدود غزير.

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ والسندس والإستبرق فهو: من الحرير والديباج، غير أن السندس أخضر والإستبرق أحمر والله أعلم وأحكم.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، يعني: هؤلاء الولدان الذين هم خدم أهل الجنة، فذكر لباسهم وحليتهم، والفضة فهي: الفضة المعروفة البيضاء النقية.

ثم رجع إلى صفة سادتهم من أهل الجنان، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾، يريد: مكافأة لكم على عملكم، وعطاء على سعيكم، ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝﴾ فالسعي هو: العمل، والمشكور هو: المقبول، فأراد الله سبحانه بقوله: ﴿سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي: عملكم عندنا مقبولا.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝﴾ معنى ﴿إِنَّا﴾ يريد: أي نحن إخبار عن فعله، ومعناه دلالة عليه سبحانه، ﴿نَزَّلْنَا﴾ معناها: أنزلنا وأوردنا، ﴿عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي: شيئا شيئا، حقا حقا.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يريد: فاصبر على ماحكم به ربك من معاشرتهم ومنافستهم، والإعذار والإنذار إليهم، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝﴾، يريد: لا تطع من كان آثما كافرا بربه، والآثم فهو: كل من يفعل ما يأثم فيه، والآثم

فهو: العنود عن الحق، والكفور فهو: الكافر بربه، الراكب لكبائر معاصي خالقه.

والطاعة التي نهى الله رسوله عنها في هذا الموضع فهو: الإتقاء والمخافة لوعيدهم، فقال سبحانه: لا تخف شيئا من وعيدهم وإبراقهم وإرعادهم عليك، فتقف بذلك عن شيء مما يكرهون من إقامة حدود دينك والإعلان بها، وقد ذُكر أن معنى هذه الآية نـزلت في أبي جهل بن هشام لعنه الله، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله كان يغدو كل يوم فيصلي عند الكعبة، فقال أبو جهل: والله لئن لم يدع محمد هذا الذي هو عليه من الصلوات بين أيدينا لأرضخن رأسه بصخرة إذا سجد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فأنـزل الله عليه ما يثبته به، فقال: ﴿ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ ﴾، أي: لا تهب وعيدهم فتترك ما فيه غمهم، فيكون ذلك شبه الطاعة، فلم يبال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله بوعيده، وغدا لصلاته كما كا ن يفعل، فأخذ أبو جهل صخرا كبيرا، ثم أتى به من وراء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يمشي حتى إذا قاربه رمى بالحجر من يده في الأرض ورجع هاربا مخلوعا، فقيل له في ذلك، فقال: إني لما دنوت منه حمل علي جمل لم أر أكبر منه من الجمال، ولا أعظم رقبة، ولا أكبر أنيابا، فاتحا فاه يريد أن يأكلني، فرميت بالحجر وهربت منه، وتالله لو وقفت لازدردني [(١)].

ثم أمره سبحانه بالمضي على ما كان عليه من ذكر ربه في صلاته، على رؤوسهم صاغرين داخرين، فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ والذكر لاسم

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه، أنه بلغه أن أبا جهل قال: لما فرضت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة، وهو يومئذ بمكة: لئن رأيت محمد يصلي لأطأن على عنقه. فأنـزل الله في ذلك: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾. الدر المنثور ٨/ ٣٧٨.

ربه فهو: ذكره، وهو القرآن ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فالبكرة أول الغداة، وهي صلاة الفجر، وأصيلا فهو: العشي، وهي صلاة الظهر والعصر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ فهو: صلاة المغرب والعتمة، فأمره سبحانه بالسجود في هذه الأوقات، وهي أوقات الصلاة، وأمره بالتسبيح ليلا طويلا، والطويل هاهنا الذي أمره به فهو: من حين يدخل في الصلاة حتى يفرغ منها، فهذا فرض التسبيح الذي ذكر الله سبحانه، وقد يدخل في ذلك كل ما كان من التسبيح في غير الصلاة، والتقرب بذلك إلى الله، فكان أمره له بالتسبيح في الصلاة فرضا، وما كان في غير الصلاة فهو: نافلة ووسيلة إلى الله وخير وفضيلة.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وهؤلاء فهم: الذين كانوا على عصر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، من أهل الشرك والكفر والمضارة له، يحبون ويؤثرون ويختارون العاجلة، والعاجلة فهي: الدنيا الأولة، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾، يقول سبحانه: يتركون ماوراءهم ويرفضون، ومعنى ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ فهو: قدامهم، غير أن وراء وقدام من حروف الصفات، وقد تقدم ذكر حروف الصفات أن بعضها يخلف بعضا في مكانه، وقال لبيد بن ربيعة العامري في ذلك:

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع
أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كأني كلما قمت راكع[1]

﴿يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ فهو: يوم القيامة، والثقيل فهو: الشديد الهائل العظيم الفادح لأهله.

---

(١) من قصيدة للبيد، مطلعها:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

ثم قال سبحانه احتجاجا عليهم بما أنعم الله عليهم، فقال: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾، فقال: ﴿خَلَقْنَٰهُمْ ﴾ أي: جعلناهم وفطرناهم، ﴿وَشَدَدْنَآ ﴾ أي: قوينا، ﴿أَسْرَهُمْ ﴾ والأسر فهو: الخلق وتركيب المفاصل، وتثبيت الأعضاء، فيقول: شددنا ذلك كله ومكناه وثبتناه وفصلناه.

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ ومعنى ﴿ شِئْنَا﴾: أردنا، أي: إذا شئنا أهلكناهم وأبدناهم، وأنشأنا خلقا غيرهم مثلهم، ﴿ تَبْدِيلًا﴾ فهو: جعلناه جعلا وأتينا بمثله بدلا منهم، اقتدارا وانفاذ ارادة، هذا معنى ﴿ تَبْدِيلًا﴾ تأكيد لما ذكر من تبديل المبدل، وإحداث ما يحدث بدلا من الذاهب، وهي كلمة للعرب تؤكد بها المعنى الذي تريده وتذكره، تقول العرب: كلمناه تكليما، توكيدا للكلام، وتقول: ضربناه ضربا، تؤكد بها الضرب، وأخرجناه إخراجا، تؤكد الإخراج بقولها: إخراجا، وكذلك أدخلناه إدخالا، تؤكد الإدخال بقولها: إدخالا، وتقول: بدلناه تبديلا، تؤكد معنى التبديل بقولها: تبديلا.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾، فمعنى ﴿ هَٰذِهِۦ﴾ هي: الأقاويل والمعاني، والإحتجاج عليكم بما كان منا في خلقكم وتركيبكم تذكرة لكم، ومعنى ﴿ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: تنبيها لكم وحجة عليكم، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾، يريد بقوله: ﴿ مَن شَآءَ ﴾ أي: من أراد، ومعنى ﴿ٱتَّخَذَ ﴾ فهو: فعل وقدم وجعل، ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ هو: إلى عند ربه، ومعنى اتخاذ العبد عند ربه هو: تقديمه للعمل الصالح، الذي يجد ثوابه عند ربه في يوم حشره، ومعنى ﴿سَبِيلًا ﴾ أي: وصلة، ومعنى صالحا: يجد عند الله ثوابه.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ يقول سبحانه: وما تقدرون على اتخاذ السبيل

إلى الله إلا أن يجعل فيكم استطاعة وقوة على ذلك، وعقولا تميزون بها بين رضاء الله وسخطه، فتتبعون الرضا وتدعون السخط، فلولا أن الله أراد أن يجعل فيكم تلك الإستطاعة التي تنالون بها التمييز، وتصلون بها إلى العمل، ما قدرتم على ذلك أبدا، غير الله سبحانه، أراد أن يجعل استطاعة ذلك فيكم وتركيبها، فجعل فيكم استطاعة تنالون بها الخير والشر، وأمركم ونهاكم، ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:٤٢].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾، فمعنى ﴿كَانَ﴾ أي: لم يزل، ومعنى ﴿عَلِيمًا﴾ فهو: الذي لا يخفى عليه شيء، العالم بكل شيء كان أو لم يكن مما سيكون، فقد علم ما كان من قبل أن يكون، وعلم ما سيكون أنه سيكون من قبل أن يكون، ومعنى ﴿حَكِيمًا﴾ أي: متقنا لفطرته ولجعله وخلقه، الذي لا يتغير ما أثبت ولا يثبت ما غَيَّر، الجاعل ما لا يصلح غيره، الحسن التدبير، الجيد التقدير، الذي لا تفاوت في خلقه، ولا فساد في تدبيره.

ثم قال سبحانه: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ﴾، والرحمة هي: الثواب، والذي شاء أن يدخلهم في رحمته فهم أهل طاعته دون أهل معصيته، ألا تسمع كيف ميز بينهم وبين الظالمين، فقال: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، فجعل الرحمة للمطيعين، والعذاب الأليم للظالمين، والظالمون فهم: الظالمون لأنفسهم، بإدخالها في عذاب ربهم.

أي: هيأ وجعل، والأليم فهو: الشديد المؤلم الموجع، المبالغ ممن داناه، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليما.

٣٥٥) وسألت عن قول الله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان:٣٠، الإنفطار:٢٧] [1]؟

فمعنى ذلك: إخبار من الله أنكم لم تكونوا تقدرون تشاءون شيئا، ولا تكرهوا شيئا دون شيء، لو لا أن الله شاء أن يجعل فيكم استطاعة على ذلك ومقدرة عليه، بما ركب فيكم من هذه العقول التي بها تميزون الشيء عن ضده، وتفرقون بها المخبوب[2] من غيره، فبهذه العقول المميزة التي شاء الله تركيبها فيكم، يَشِيْنَ [3] شيئا دون ضده، وتركتم شيئا دون غيره، ولو لا مشيئته لتركيب ما نلتم به ذلك فيكم، ما كنتم لتقدروا على المشيئة ولا الترك أبدا، فهذا معنى ما عنه سألت من هذه الأشياء.

٣٥٦) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الإنسان:٢٨]؟

فهذا: إخبار [4] من الله سبحانه أنه خلق خلقه بلا عون من أحد في ذلك له،

---

(١) في (د): ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يقول سبحانه: وما تقدرون على اتخاذ السبيل إلى الله، إلا أن يجعل فيكم استطاعة وقوة على ذلك، وعقولا تميزون بها بين رضاء الله وسخطه، فتتبعون الرضى، وتدعون السخط، فلولا أن الله أراد أن يجعل فيكم تلك الإستطاعة التي تنالون بها التميز، وتصلون بها إلى العمل، ما قدرتم على ذلك أبدا، غير [أن] الله سبحانه أراد أن يجعل استطاعة ذلك فيكم وتركيبها، فجعل فيكم استطاعة تنالون بها الخير والشر، وأمركم ونهاكم ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. المصابيح الساطعة ١/ ٣٢٤.

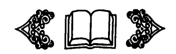
(٢) المخبوب: المغشوش والفاسد.

(٣) في (أ): يستبين. وظنن بها أثبت، والله أعلم بالصواب. ويشين هي: يشئن.

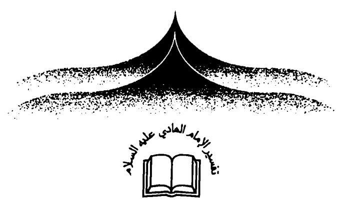
(٤) في (د): فقال: ﴿خلقناهم﴾ أي: جعلناهم وفطرناهم، ﴿وشددنا﴾ أي: قوينا، ﴿أسرهم﴾ فهو: الخلق وتركيب المفاصل، وتثبيت الأعضاء، فيقول: شددنا ذلك كله، ومكناه وثبتناه وفصلناه.

وأنه هو المنفرد بخلقهم وإيجادهم، وشد أسرهم فهو: تقوية أسرهم، وأسرهم فهو: ثباتهم وعقدهم وتركيبهم، على ما جعلهم عليه وقَدَّرهم، ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ المعنى فيه: إذا شئنا أهلكناهم وأبدناهم وأنشأنا خلقا غيرهم مثلهم، ﴿تَبْدِيلًا﴾ فهو: جعلناه جعلا، وأتينا بمثلهم بدلا منهم، اقتدارا ونفاذ إرادة.

فهذا معنى ﴿تَبْدِيلًا﴾، تأكيد لما ذكر من تبديل المبدل، وإحداث ما يحدث بدلا من الذاهب، وهي كلمة للعرب تؤكد بها المعنى الذي تريده وتذكره، تقول العرب: كلمناه تكليما. تؤكد الكلام، وتقول: ضربناه ضربا، تؤكد بها الضرب، وأخرجناه إخراجا، تؤكد الإخراج بقولها: إخراجا، وكذلك أدخلناه إدخالا، تؤكد الإدخال بقولها: إدخالا، وتقول: بدلناه تبديلا، تؤكد معنى التبديل، بقولها: تبديلا، فعلى هذا يخرج ما عنه سألت من قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.







تفسير

سورة المرسلات





تفسير سورة المرسلات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾، فالمرسلات فهو: السحائب المنشآت، ﴿عُرْفًا﴾ يقول: متصلات معا يتبع بعضها بعضا، ولا يفاوت شيء منها شيئا.

﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ فهن: الرياح الهآبات الشديدات الهبوب، المزعزعات لما هبين عليه، الحاملات ما قوين عليه، ﴿عَصْفًا﴾ فالعصف هو: الشدة منهن، وإنما قيل: عاصفة لعصفها للأشياء، وعصفها للأشياء فهو: زعزعتها لها وحملها ورفعها ووضعها لما ترفع من الأشياء وتضع، وإجالتها لما تحمل مما تمر عليه وتقع فيه.

﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ فهن: السحائب الممطرات اللواتي ينشرنه برحمة الرحيم في كل الجهات، وحيث ماشاء من البقاع المحتاجات إلى ماينتشر فيهن وعليهن من الرحمة، ويقع فيهن بوقوع الغيث من البركة، فتنشر رحمة الله حيث شاء، وتنيلها من أمرت بإنالته من المربوبين، فتغيث بذلك من شاء الله من المغاثين.

﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴾ فهن: الملائكة المقربون، الذين يفرقون بين الحق والباطل، بما تتنزل به من التبيين والحجج من عند الواحد المنان، في الوحي والقرآن.

﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾، فهن: الملائكة الملقون بما يلقون إلى الأنبياء والمرسلين، من وحي رب العالمين، و﴿ذِكْرًا﴾ فمعناه: وحيا وأمرا، وقصصا وخبرا، وإعذارا وإنذارا، ألا ترى كيف بيّن ذلك سبحانه فقال: ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾،

والعذر فهو: الإعذار في الشيء بالتقدمة إلى أهله في العذر من وقوعه، وأخذ الأهبة قبل نزوله، ﴿أَوْ نُذْرًا﴾، فالنذير هو: الرسول المخبر بالأمر قبل وقوعه، المعلم المنذر به، فأخبر الله سبحانه أن الملائكة تلقي الذكر والإعذار، وتكون بذلك إلى الأمة نذرا منذرين لهم من بطش رب العالمين.

ثم قال سبحانه جوابا لقسمه الذي أقسم به، فيما أقسم به من المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝﴾، يقول عز وجل: إن كل ما يذكر لكم وتوعدونه من ثواب أوعقاب لواقع حقا، ونازل بكم قريبا صدقا، وإنما أقسم الله بما أقسم به من هذه الأشياء، لعظيم ما فيها من براهينه، وجليل صنعه وتدبيره، فنبه الله جل جلاله بالإقسام بها، على عظيم الدلائل التي فيها الدلالات على جاعلها، المبينة بأثر الصنع صنع صانعها.

ثم دل على وقت وقوع ما يوعدون، فقال: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝﴾، أراد أن ذلك الوعد كائن عند كينونة ماذكر من هذه الأشياء، ومعنى ﴿طُمِسَتْ﴾ فهو: أذهبت وأفنيت وقلعت ومحقت وأبيدت، ففنيت ومحيت فذهبت.

ومعنى ﴿فُرِجَتْ﴾ فهي: فتحت وقطعت ومزقت فانفرجت. ومعنى ﴿نُسِفَتْ﴾ الجبال فهو: تمزيقها وإفناؤها وإبادتها وإبلاؤها، وقلعها من مواضعها حتى تخلو مواضعها منها، وتضمحل فيفنى ما كان يرى من تجسمها، وعظيم خلقها.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝﴾، يريد بـ ﴿أُقِّتَتْ﴾: أنها قد جعل لها وقت إليه تبلغ، وإياه تنتظر، وفيه تبعث وتنشر، ثم بَيَّنَ فقال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ تعظيما منه لذلك اليوم، وإخبارا

بجليل ما فيه من عظيم الأمور، وشدائد النوازل بأهل الوعيد، وكريم المآب، وعظيم الثواب لأهل الوعد، وهذه الكلمة كلمة تقولها العرب، إذا أخبرت عن يوم تنتظره، جليل الأمر، هائل الخطر، قالت: يوم كذا وكذا، تقول: أي يوم كان حرب كذا وكذا؟ وكذلك: أيُّ يومٍ يومُ الموت، تريد بقولها: أي يوم؟ أي: ما أشد ذلك اليوم وأهوله، وأفدحه لأهله وأعظمه، ومعنى ﴿أُجِّلَتْ﴾ فهو: وعدت وجعل لحشرها ولقائها لربها أجل تنتظره، ومدة تقطعها بالإنتظار لبلوغ غايتها، فعند بلوغ غايتها يكون ذلك اليوم الذي يكون فيه بعثها وحضورها، وتَنَجُّز موعد ربها، بنصرها من كربها، وخائف أمرها، وثواب من أطاعها وصدقها، فيما جاءت به عن ربها.

ألا تسمع كيف يقول فيما بَيَّنَ من ذلك اليوم الذي أجلت الرسل إليه، حين يقول: ﴿ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝ ﴾، ثم قال: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝ ﴾، والفصل فهو: القطع بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، وإيصال الوعد والوعيد إلى أهلهما، وانقطاع ما كان الخلق ينتظرون من أمرهما.

وقوله: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾، يريد: ما أعلمك بأمر ذلك اليوم وهوله، وعظيم ما يكون فيه من أموره، لا علم لك منه إلا بما أعلمناك، ولا تدري شيئا إلا بما أدريناك.

ثم قال: ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾، يريد: الويل والعويل والبلاء واللعنة والشقاء يومئذ على المكذبين، ويومئذ فهو: يوم الفصل، ويوم الفصل فهو: اليوم الذي أجلت إليه الرسل.

ثم قال سبحانه توقيفا للمكذبين على جحدانهم، ومكابرتهم لما قد ثبت من الحق في قلوبهم: ﴿ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝ ﴾، يقول: ألم تعلموا إهلاك من هلك من الأولين، ويأتيكم نبأه عن الصادقين، فإذا صح عندكم

عمن صح أنه أهلكهم، فلن يقولوا: إن لهم مُهلِكا غيرنا، ولا أحدا سوانا، فكما أخذنا الأولين بذنوبهم، فكذلك نحن قادرون على أن نأخذ الآخرين منكم ومن غيركم، بتكذيبهم وفسقهم، وجحدانهم للحق الذي جاء من ربهم.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله فعله في المجرمين، وفي كل من تمرد برب العالمين، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾، ذكر الوعيد للمكذبين، والإخبار عما يلقونه من الويل في ذلك اليوم.

والويل هو: البلاء الوبيل، والعذاب الطويل، فقال: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾، والمهين فهو: القليل اليسير، الذليل الضعيف الحقير، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾، والقرار المكين فهو: موضع قرار الماء من الرحم، وسمي قرارا لقرار ما فيه، وقراره فهو: ثبوته فيه ولزومه له، و ﴿مَّكِينٍ﴾ فهو: متمكن، ثابت حصين محصن، ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ ﴾، يريد: إلى وقت معلوم، والمعلوم فهو: المفهوم عند الله، والمفهوم عند الله فهو: الأجل الذي أجله في المقام في الرحم، من قليل من الأشهر أو كثير.

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ يريد بقوله: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ يقول: فقدرنا على جعل النطفة في القرار المكين، وانشائها في الرحم إلى وقت خروجها المعلوم، ﴿ فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ معنى ﴿ نِعْمَ ﴾: تعظيم القدرة، وإخبار عن جليل النعمة، وهذه كلمة تقولها العرب إذا مدحت شيئا وأثنت عليه، قالت: نعم الرجل، ونعم الفرس، نعم الشيء. تريد بذلك: ما أكمله، وأبين فضله، وأظهر خيره، فأخبر الله جل جلاله أنه أفضل بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ أي: أننا أفضل القادرين، وأعظمهم قدرة.

ثم ذكر الوعيد للمكذبين فقال: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم

مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾»، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ توقيفا لهم على أثر صنعه، وتقريرا على ما يقرون به من فعله، ومعنى ﴿كِفَاتًا﴾ أي: ضامة جامعة لكم، إخبارا بها فيها من منازلها وبيوتها ودورها التي تكتفتون فيها وتأوون، وتغلقونها عليكم، تضمكم وتجمعكم، وتكفتكم أي: تجمعكم أحياء وأمواتا، وكفتها لهم أمواتا فهو: ضمها لأبدانهم في حفرها التي هي قبورهم، فكانت الأرض لهم كافتة في حياتهم وبعد وفاتهم، وكفتها لهم فهو: ما ذكرنا من جمعها وضمها إياهم.

والرواسي الشامخات فهي: الجبال الطامحات المرتفعات، ومعنى ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في الثابتات، أي: الراسخات عروقها، الثابتة أصولها.

﴿وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ فمعناها: أنـزلنا عليكم وأوجدناكم ماء فراتا، والفرات فهو: العذب الطيب الذي لا ملوحة فيه، فكلما ذكر الله عز وجل من فعله بهم، وما جعل لهم بها امتن به عليهم من هذه الأشياء المذكورات، والأمور المبينات، فإنها أراد بذلك سبحانه توقيفهم على ما يعرفون أنه من فعله، ويقرون به أنه من صنعه، فيقول تبارك وتعالى: كيف تنكرون بعض ما ذكرناه لكم من قدرتنا على بعثكم ونشركم؟! وقد ترون فعلنا فيكم! وأثر قدرتنا فيها أظهرناه وجعلناه لكم! ليس هذا منكم إلا كفرا وإنكارا! ومضادة للحق واستكبارا.

ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ببعض أمرنا، وبها قد رأوا أعظم منه في قدرتنا.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فهذا أمرٌ أمر به المكذبين الفاسقين الكافرين الجاحدين في يوم الدين، بالانطلاق إلى ما كانوا به يكذبون من جهنم وأغلالها، وعذابها وسعيرها.

﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝ ﴾ فأخبرهم أنهم لا يرون فيها ظلا إلا ما لا يغني من اللهب، ولا يستر من العذاب، فقال سبحانه: ﴿ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾، فمثل لهم ذلك بكل شيء فيه ثلاث شعب، فالشمس تدخل من كل شعبة، ولا يصفو له ظل، ولا يوجد فيه راحة ولا كِنٌّ، فضرب الله لهم هذا الظل مثلا بعذاب جهنم، يريد أنكم لاتجدون في جهنم راحة من العذاب، كما لا يجد طالب الظل في الموضع الذي فيه ثلاث شعب، والشعب فهي: الفُرَج والثلم والمواضع المكشوفة، فهو: لا يجد فيه فرجا من الشمس، ولا يقدر فيها على ما يحب من الظل؛ لأن الشمس من حيث ما دارت دخلت عليه من فُرَجه، ووصلت إليه من ثُلَمِه، كذلك أصحاب جهنم – نعوذ بالله منها ومن عذابها، ومن عمل يقرب إليها – حيث ما دار منها، أو طمع بفرج فيه من جوانبها، وجد فيه العذاب له مضاعفا، ولم يجد في ناحية منه من عذابها فرجا.

﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾ يقول: لا مانع لكم من حرها، ﴿ وَلَا يُغْنِي – لكم – مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ يقول: لا يمنع من وصول لهبها إليكم، ولا يستر عنكم شيئا من العذاب المكتوب عليكم.

ثم أخذ سبحانه في وصف جهنم وشررها، وعظيم ما جعل الله عليه من فطرتها، فقال: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۝ ﴾، والقصر فهو: الدار المبنية الكبيرة المرتفعة، والجمالات الصفر فهي: الجبال الصغار المنفردة من الجبال التي تكون في قيعان الأرض، تسميها العرب: الظراب [1]، واحدها: ظرب، وأهل اليمن يسمونها: جمالات، فشبه الله سبحانه شرر جهنم التي تطير منها

---

(١) الظراب: قال في لسان الميزان: الظرب: هو الجبل الصغير، والجمع: الظراب.

عند استعارها بأهلها، بالقصور والجبال الململمات.

ثم ذكر الوعيد بالمكذبين بوعده ووعيده، فقال: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

ثم أخبر بما يكون منهم في يوم الدين، من ترك المكابرة لليقين، والمجاحدة بآيات رب العالمين، فقال: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾، يقول: لا ينطقون منطقا ينفعهم، ولا يتكلمون بكلام يقبل منهم، ومعنى ﴿يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي: لا يؤذن لهم في التوبة فيتوبون، والرجعة والأوبة إلى الحق فيؤوبون ويرجعون.

ثم أخبر سحانه أن ذلك اليوم لا يجوز فيه توبة، ولا يقبل من ظالم معذرة؛ لأنه يوم جزاء على ما تقدم من الأفعال، وليس بأوان عبادة ولا عمل فيعملون، ثم كرر الوعيد للمكذبين، بقول رب العالمين، فقال: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

ثم أخبرهم بوقوع اليوم الذي كانوا به يكذبون، فقال: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾، ويوم الفصل فهو: يوم القطع بينهم بالحق، وهو يوم القيامة والحشر، ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ يقول: جمعناكم في هذا اليوم والأولين، والأولون فهم: الذي كانوا قبل عصر النبي صلّى الله عليه وعلى آله من الأمم، فسمى الله تبارك وتعالى من كان قبل محمد صلّى الله عليه وآله أولين، وسمى الله من كان في عصر محمد صلى الله عليه وعلى آله ثم إلى آخر الدنيا آخرين.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ يقول: فإن كان لكم علي سلطان أو مقدرة، أو كنتم تستطيعون تغيير شيء من فعلي بكم، أو دفع عظيم صنعي فيكم، فادفعوه لتضادوني بذلك، وإن كنتم تطيقون إدخال ضرر علي فأدخلوه بمكيدة تكيدونها، أو بمجاهرة تجاهرون بها، وإنما أراد الله سبحانه بهذا

القول توقيف أعدائه على ضعفهم وشدة تكبرهم، وقلة منفعة شركائهم لهم، وأوليائهم الذين كانوا يطيعون من دون الله لهم، فقررهم على الإستسلام، وأوقفهم على صدق ماجاء به محمد عليه السلام.

ثم قال: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فأخبر أن الويل والعذاب الطويل عليهم وعلى نظرائهم من المكذبين، من الأولين والآخرين.

ثم ذكر سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، أمر المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۞ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾، الظلال فهو: الظلال الممدود الذي قال الله سبحانه: في ﴿ ظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۞ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ [الواقعة:٣٠-٣١]، وهي ظلال الأشجار والقصور، وما ظللهم الله به من غير ذلك من الأمور، والعيون فهي: المياه الجارية الكثيرة المتفجرة، والفواكه فهي: ما يعرف من الفواكه الطيبات، من ثمار الأشجار المثمرات، وصنوف الأثمار المتصنفات، المتشابهات من الطيبات وغير المتشابهات، التي تشتهيها أنفسهم، وتدعوهم إليها شهواتهم، فهي موجودة غير مقطوعة، مبذولة غير ممنوعة، عطاء من الله غير مجذوذ على صالح أفعالهم، وما قدموا في حياتهم من مرضيات أعمالهم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، يقول سبحانه: تنعموا بالمآكل الطيبة، المشارب اللذيذة، ﴿هَنِيئًا ﴾ أي: جزاء بفعلكم، فمعنى ﴿هَنِيئًا ﴾ فهو: مريا طيبا لا آفة فيه ولا داء، ولا تخافون منه شيئا من الأذى، كما كنتم تخافون في مآكل الدنيا، فهذا معنى قول الله: ﴿هَنِيئًا﴾.

ثم قال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ يخبر أن هذا فعله وحكمه في المحسنين، والمحسنون فمعناها: المحسنون إلى أنفسهم بما عملوا من الطاعات التي

استوجبوا بها الثواب والإحسان، من الواحد ذي الجلال والسلطان، فكانوا بذلك محسنين إلى أنفسهم، مطيعين لربهم، فاستوجبوا بطاعة الرحمن ما صاروا إليه من الفوز والنعيم، والخبر الكريم، والثواب العام المقيم.

ثم كرر ذم المكذبين احتجاجا عليهم، وتوقيفا على جهلهم وتعنتهم، وقطعا بذلك لحجتهم، فقال: ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ۝ ﴾، يقول سبحانه: تمتعوا في دنياكم بأكلكم، وتافه لذاتكم، فإن ذلك قليل منقطع لا يتصل بنعيم الآخرة، ولا تذوقون بعد خروجكم من الدنيا بنعمة فاخرة؛ لأنكم مجرمون، والمجرم لا آخرة له كما تكون الآخرة مع الدنيا للمؤمنين، وكما تتصل كرامة الدنيا بكرامة الآخرة للمتقين.

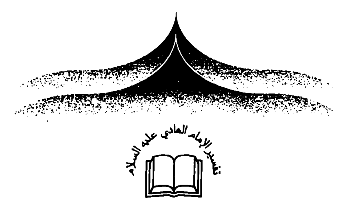
ثم كرر ذم المكذبين فقال: ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾ ثم ذكر ما كانوا فيه في الدنيا من كفرهم، وترك قبول ما يؤمرون به من طاعة ربهم، فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝ ﴾، يريد بـ ﴿ٱرۡكَعُواْ ﴾: اخشعوا لله واخضعوا، ولا تتجبروا ولا تتكبروا، وأدوا فرضه عليكم، فأراد عز وجل بالركوع هاهنا - والله أعلم - التذلل لله والخضوع، والإقرار بأمره والخشوع، والقبول لما به يأمرهم، والإنتهاء عما عنه ينهاهم، وكذلك قال في أصحاب موسى عليه السلام: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ [البقرة:٨٥، النساء:١٥٤، الأعراف:١٦١]، يقول سبحانه: خشعا خضعا ذاكرين الله مقدسين، شاكرين على نعمه، ذاكرين له بصنائعه، عارفين بقدرته وجلاله، مقرين بأن النصر الذي رأيتموه من قِبَلِه، وأنكم لم تدخلوا إن دخلتم إلا بتقويته إن أطعتم فقواكم، فلو كانوا فعلوا ما أمروا به، وقالوا ما دلوا عليه من قول الحطة لكانوا قد نصروا نصرا عزيزا، وحطت عنهم لذلك الذنوب المتقدمة، ووجبت لهم الكرامة المتأخرة، ولكن خالفوا وأبوا وعتوا، فذاقوا وبال أمرهم إذ

عصوا، فذلك معنى ما ذكر الله سبحانه في آخر والمرسلات من الركوع، وهو عندي على معنى ما أمر الله به قوم موسى عليه السلام من السجود، أراد بهما كلتيهما - والله أعلم وأحكم - التذلل لله والخشوع له، والمعرفة به والخضوع.

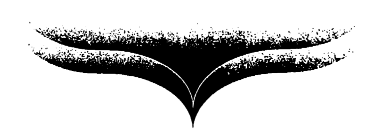
ثم كرر ذم المكذبين تنبيها في الدنيا لهم، واحتجاجا بذلك عليهم، فقال: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

ثم قال: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي: بأي قرآن أو أمر أو نهي بعد هذا القرآن المبين، الساطع نوره، الظاهر برهانه، يؤمنون؟! ومعنى ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهو: يصدقون ويقرون، فأخبرهم سبحانه بما قال من ذلك، أنه لا حديث يعدل هذا الحديث، والحديث فهو: القرآن والنور، وما جاء به من فرائض الدين في كل الأمور.





تفسير
سورة النبأ





تفسير سورة النبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال عليه السلام: معنى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وتأويلها، أي: ببسم الله يبتدأ كل شيء، وهو المذكور قبل كل شيء، ومعنى ﴿ٱللَّهِ﴾ فهو: الإله الواحد الذي لا إله معه، ومعنى ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ فهو: المتعطف على الإنسان، العائد عليهم بالعفو والإحسان، المتفضل عليهم بالبر والإمتنان، الرازق لهم على كل حال، كانوا فيه من هدى أو ضلال.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو: البر الرفيق المنقذ لهم بالدلالة على ما فيه نجاتهم، الدآل لهم على مافيه صلاحهم، المحذر لهم طريق التهلكة، المجنب لهم عن سبيل الهلكة، السالك بهم ابواب الكرامة والرحمة، الداعي لهم إلى ما فيه السلامة والنعمة.

قال الله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال: ﴿عَمَّ﴾ يريد: عن ما، فأذهب النون إدغاما في الميم لتقارب مخرجها، وكذلك تفعل العرب بما كان كذلك، تطرح الألف التي مع الميم استخفافا لها، والعرب تفعل ذلك بالألف تطرحها وهي تريدها، وتثبتها وهي لا تريدها، وكذلك تفعل بـ(لا) كما هي، قال الله سبحانه في طرح الألف وهو يريدها: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة:١]، وإنما معناه: ألا أقسم بيوم القيامة، فطرحها وهو يريدها، فخرج معنى الكلام معنى نفي، وإنما معناه معنى إيجاب.

وكذلك قال الله سبحانه: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد:١]، فطرح الألف استخفافا لها، وإنما معناها: ألا أقسم بهذا البلد.

وقال سبحانه في موضع آخر أثبتها فيه وهو لا يريدها: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات:١٤٧]، فخرج معنى اللفظ معنى شك، حين ثبتت الألف، وإنما معنى الآية: وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون، فأثبت الألف لغير معنى استخفافا لها؛ لأن العرب تفعل ذلك، وهي لغتها، وإنما خاطبهم الله عز وجل بلغتهم.

وكذلك قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، في طرح الألف واللام معا، من الموضع الذي لابد منهما فيه، فيما ذكر من فدية الصيام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤]، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، فخرج اللفظ لفظا يوجب الفدية على من أطاق الصيام، وإنما المعنى: وعلى الذين لا يطيقون فدية طعام مساكين، فجعل على من لا يطيق الصيام - من الشيخ الكبير الفاني، والعجوز الكبيرة الفانية، اللذين لايطيقان الصيام ولايرجوان تجديد قوة، لما قد زال عنهما من القوة، بدخول الهرم والذهاب، وزوال الشدة والشباب - الصدقةَ على مساكين بدل كل يوم، حتى ينقضي شهر الصوم، فيكون كل واحد منهما يتصدق على ثلاثين مسكينا، بدل الثلاثين يوما.

ومقدار مايتصدق به فهو: مُدُّ بُرٍّ على كل مسكين عن كل يوم، أوغير البر مما يأكل أهل تلك الفدية، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، وإنما يريد: وعلى الذين لا يطيقونه، فطرحها وهي أصلية في المعنى؛ لأنها لغة العرب، وبلغتهم خاطبهم الله سبحانه.

وكذلك أثبتها في موضع ولم يردها، ولا أصل لها في المعنى، وإنما جاءت ظاهرة في اللفظ، وذلك قول الله سبحانه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:٢٩]، فقال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾، فخرج معنى اللفظ معنى نفي، وإنما معناه معنى إيجاب، أراد الله سبحانه: لأن يعلم أهل الكتاب أن لا

يقدرون على شيء من فضل الله، فأثبتها وهو لايريدها، فخالف اللفظ المعنى عند من لايعرف تفسيرها، ولايقف على معانيها.

وفي الدليل على أن هذا الفعل لغة من لغات العرب، أفصح لغاتها عندها، وأثبتها في ألسنتها، قول شاعر من شعرائهم في طرحها وهو يريدها:

بيوم جدود لا فضحتم أباكم وسالمتم والخيل يدمى شكيمها[1]

فقال: لا فضحتم أباكم، فأثبت فيها لا، وليس يريدها، ولا لها معنى، وإنما معناها: بيوم جدود فضحتم أباكم.

وقال آخر من شعراء العرب في طرحها وهو يريدها:

نزلتم منزل الأضياف منا فعجّلنا القرى أن تشتمونا[2]

فطرح لا كما طرح اللام، فخرج معنى الكلام معنى ايجاب، وإنما معناه معنى نفي، أراد لئلا تشتمونا، وطرح لا وهو يريدها، فعلى ذلك يخرج معنى قوله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، فطرح النون من عم، لما ذكرنا من الحجة فيها أولا، وطرح الألف من ما لما ذكرنا من استخفاف العرب لها، واستعمال ذلك في لغتها، فبقيت ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ مشددة، شددت لادغام النون في الميم.

والمعنى فيها: عن مايتساءلون، غير أن اللغة والإعراب حذف منها الحرفين النون والألف، يريد تبارك وتعالى بقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي: عم يستخبرون ويتذاكرون، ويترآدون ويسألون، توقيفا لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله على مايفعلون، وعلى مافيه يترآدون.

---

(١) لم أقف على هذا البيت.

(٢) من معلقة عمرو بن كلثوم، بلفظ: فأعجلنا.

ثم قال سبحانه: ﴿ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝ ﴾، فأخبره صلَّى الله عليه وآله أن الذي كانوا عنه يتساءلون، وفي أمره يترآدون، هو النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون، والنبأ هاهنا الذي هم فيه يختلفون فهو: ماكان ينبئهم به رسول الله صلَّى الله عليه وآله ويعلمهم به، من بعثرة القبور، ومن النفخ في الصور، ومن حشر العباد، وتبديل الأرض والبلاد، والحساب والعقاب، والمناقشة والثواب، فكانوا في ذلك يختلفون، ومعنى يختلفون، أي: تختلف أقاويلهم في التكذيب به، وتصنيف معاني رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فيه، فكانت طائفة تقول: إن إنباء رسول الله صلَّى الله عليه وآله لهم بهذا القول سحر، وطائفة تقول: إن إنباءه لهم به شعر وظنون، وطائفة تقول: إن ذلك كله منه كهانة وجنون، فهذا معنى اختلافهم في النبأ، والنبأ فهو: الإنباء، والإنباء فهو: الإخبار والتبيين، والإعلام للعالمين بما لا يعلمون، ولا يتوهم أحد ذو فهم ونظر، وتمييز وبصر، أن اختلافهم فيما كان ينبئهم به صلى الله عليه وعلى آله من ذلك ويقصه عليهم ويقرؤه، إختلاف يكون بعضه إقرارا بما كان يقول، وبعضه إنكارا لهذا القول، بل كلهم كان منكرا له مكذبا غير مقر، وإنما معنى الإختلاف منهم، هو[1]: اختلافهم في تصنيف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، والجحدان لما جاء به صلَّى الله عليه وآله من عند الله.

﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ﴾، معنى ﴿كَلَّا ﴾: معنى الإنكار لقولهمَ الذي قالوا، وإنكار لما هم فيه من تصنيف الكذب على رسول الله صلَّى الله عليه وآله؛ لأن كَلاً هي كلمة جواب رد على متكلم بغير صواب، إنكارا لقوله، وردا عليه في كذبه،

(١) في (أ): وهو.

ودفعا لما يأتي به من جهله، تستعملها العرب في ذلك من محاورتها، وتلفظ بها في لغاتها، فقال: ﴿كَلا﴾ ما جاءوا بحق، ولا تكلموا بصدق.

ثم ابتدأ الكلام من بعدها بالوعيد لهم على كذبهم، وجحدتهم للنبأ العظيم الذي أنبأهم به رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته من بعثهم وحشرهم، فقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، أي: سيعلمون صدق ذلك وحقه، ويعاينون ماذكر من كينونة البعث والحساب، وما أوعدوا من النكال[1] والعقاب.

ثم رجع سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، في إبطال قولهم، والتكذيب لهم في جحدانهم، للنبأ العظيم، وإبطالهم الوعد والوعيد الجسيم، فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾، فكرر الجواب لهم لنفي الصدق عنهم، وإيجاب الباطل عليهم، والتكذيب لهم في قولهم، فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾ أي: باطلٌ ما أتوا به وزور، ومحالٌ ذلك وفجور.

ثم رجع إلى الوعيد فقال: غِبُّ فعلهم، ويجدون ما أوجبنا من الوعيد عليهم، في تكذيبهم وشكهم، ودفعهم ما ذكرنا لهم من نشزهم، وشرحناه على لسان نبينا من الأنباء العظيمة، والأسباب الجليلة، التي لا بد من وقوعها، وكينونتها ووضوحها، من عجائب أفعالها في خلقنا، عند نفخنا في صورهم، وإخراجنا لهم من أجداثهم، وإيصالنا لهم، ما حكمنا به لهم وعليهم، من كريم الثواب، وأليم شديد العقاب.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝﴾، والمهاد فهو: القرار الممهد، والممهد فهو: المسوى المجرد، الذي يضطجع الناس عليه، ويأوون فيه وينشأون عليه، من ذلك ماتقول العرب لمضطجَع الصبي وموضعه ومأواه: مهد الصبي،

---

(١) في (ج): بالنكال

وهو شيء يُسوَّى له من الخشب، يغذّى فيه، ويُجعل عليه، يكفته ويؤويه، ويشده ويقويه، ويستريح إليه، فجعل عز وجل الأرض للخلق مهادا يأوون إليها، ويسكنون فيها، فلما أن كانت الأرض لهم مأوى ومكفتا يمهدون فيها، ويسكنون عليها، سميت: مهادا، إذ كانت لهم مأوى، كما سمي موضع الصبي: مهادا، إذ كان له مضجعا ومأوى.

ثم قال: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾، فأخبر عز وجل أن الجبال أوتاد للأرض تمنعها من المَيَدان بهم، وتوقفها عن التزعزع بمن فيها منهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠]، يقول: أن في الأرض للزومها لها، ومنعها بها من المَيَدان بأهلها، بالأوتاد اللازمة لأطناب البيوت، المقيمة لها على الثبوت، اللازمة المانعة لها عن الزوال، فجعل سبحانه ما جعل من الجبال للأرض أوتادا.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾، فأخبر بعجيب صنعه، وما أظهر من فطرته، وما أرى الخلق من محكم تقديره، في خلق المخلوقين أزواجا، والأزواج فهي: الذكر والأنثى الذي يكون منهما نسل الآدميين، وبتناسلهما تكون كثرة المخلوقين.

ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾، والنوم فهو: الرقاد، والرقاد فهو: خروج الروح من البدن، وبقاء النفس التي منها النَّفَس في مقرها من البدن، وهو شيء جعله الله وركبه في الإنسان، مِنَّة منه سبحانه عليه، وإحسانا منه سبحانه إليه، لما في النوم من راحة البدن، وإراحة الجوارح كلها، وإراحة النفس في كل وجه ومعنى.

من تلك الراحة: راحة البدن من تعبه، وإقباله وإدباره، وراحة العين من النظر والإصعاد والتصويب، وراحة الرجلين من المشي، وراحة الأذنين من السمع و

الإستماع، وراحة اللسان من القال والقيل، وراحة النفوس من الهموم والغموم، وراحة الخائف من وَجَلِ خوفه، وللمرعوب من رعب فزعه، وكل ما شرحنا من هذا القول ومثله، ففي النوم راحة من ألمه، وفرج من فادح عمله؛ لأن النوم يزيل ذلك كله، ويعرف بزولان الروح من البدن، وزوال العقل الذي به يميز ذلك كله، ويعرف به ألمه، فإذا زال صار الإنسان بزواله، في الغفلة عن ذلك [كله][1]، كالميت المفارق لأرضه.

وفيما ذكرنا من خبر النوم وفضله، وجزيل مواهب الله فيه ومَنِّه، وما يزول به عن كل أحد به من فادح همه، ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال:١١]، يقول: تطمينا لقلوبكم، وترويحا به عنكم، إذ بوقوعه يزول عنكم معرفة ما أنتم فيه من الروع والهول، فتبارك الله العزيز ذو الطول.

السبات فهو: الإطراق والخفات، والهدوء والسكون في الحالات.

ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾، يقول: غاشيا لكم ملبسا عليكم ما يلبسكم من ظلامه، ويقع عليكم عند هجومه من ادْلِهْمَامِهِ، فسماه الله لباسا؛ إذ كان يُلبس الأرض ظلمته، ويغلبها اسوداده، فيستر منها القريب الداني، ويواري معها بظلمته المختفي المتواري، فلما أن ستر بظلامه ما ستر، وألبس الأرض ما حجب الناظر به عن النظر، وستر عنه ما يكشفه النور من الخبر، قيل: لباس ملبس، وكذلك تقول العرب: أرخى الليل ستره، وضرب الليل بسجفه [2]، وألبس الليل الأرض ثوبه، تريد: ألبسها من ظلمته ما كان سترا لها، وحجابا دونها، فسمي بذلك الليل لباسا.

---

(١) سقط من (أ) و (ج): كله.

(٢) السجف: الستر.

ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾، يريد سبحانه: متعيشا للناس، ومكتسبا يكتسبون فيه المعائش، ويطلبون فيه المرائش [١]، فلما كانت المعائش من الصناعات وغيرها، مما يكتسب به المعائش لا تكون إلا في النهار، قال الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾، إذ جعله للمعائش سببا، ووقتا ومطلبا.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾، يعني بالسبع الشداد: السموات المبنيات، وهن الطرائق المركبات المجعولات، فذكر سبحانه ما جعل من السماوات، التي جعلهن دليلا عليه وآيات، لما [٢] فيهن وفي من يسكنهن من الدلالات المنيرات على الجاعل لهن، المقدر لتركيبهن، الممسك بلا عمد لهن.

ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾، والسراج الوهاج فهو: ما جعل الله من الشمس والقمر النيرين، السراجين الوهاجين، وما جعل من النجوم الوهاجة المتوقدة، فأضاء ما بين المهاد، وبين السبع الشداد، من الهواء المدلهم، المتكاثف المظلم، بمنور السراج الوهاج، الذي جعله في الليل والنهار سراجا، والسراج فهو: المضيء المنور، الذي يسرج بضوئه وينير؛ لأن معنى السراج فهو: المضيء المنير، تقول العرب: أسرج السراج، تريد: نَوِّرْه وأضئه، واجعل فيه نورا ساطعا، حتى يكون بتنويره سراجا وهاجا، والوهاج فهو: المتوقد الملتهب.

ثم قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾، والمعصرات فهن: السحاب المثقلات، العاصرات لما فيهن من الماء، وعصرهن للماء: حبسهن وحملهن له، وإمساكهن إياه، فَسُمِّينَ لحبسهن لما فيهن من الماء وإمساكهن له: معصرات،

---

(١) في (ج): المعاش، ويطلبون فيه المراش.

(٢) في جميع المخطوطات: ولما. ولعل الصواب ما أثبت.

ومن ذلك ما سُمِّيَتْ العصر عصرا، لما يعصر بها، ويحبس عن الظهر الذي قبلها، فسميت عصرا للإمساك عنها، والتعصير بها، والعصر فهو: الحبس، ومن ذلك ما تقول العرب في كلامها وأمثالها، لحابس الشيء إذا حبسه عنها: كم تحبسه وتعصره، وتقول: أكثرت عصر هذا الشيء، أي: تزيد حبسه وإمساكه.

وقد قيل: إن معنى ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ هو: العاصرات لما فيهن من الماء حتى يخرج من خللهن، وشبه ذلك بعصر الإنسان للشيء وغمزه، حتى يخرج ما فيه من مائه، والقول الأول أحسن القولين عندي وأصوبهما، وأولاهما بالحق وأشبههما.

وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ أهبطنا، ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾، ومعنى ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي: كثيرا جرارا، قوي السيلان، كثير الهطلان، يثج في الأرض ثجا، ومعنى يثج ثجا أي: يدفع دفعا كثيرا اتيانه معا، وتدافع سيوله جميعا، يعضد بعضه بعضا، ويقوي كلُ آخرِ منه أولا، فهو: لتلاحقه وكثرته يثج ثجا، ويتدافع تدافعا، ويتحامل على مالقيه من الأرض تحاملا، يقلع بتحامله وثجه كل مانبت من الأشجار في مجره، أواعترض له في وجهه.

ثم قال سبحانه: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ ﴾، فأخبر سبحانه أنه أنـزل هذا الماء ليخرج به ما ذكر.

ومعنى ﴿ نُخْرِجَ بِهِۦ ﴾، هو: ننبت به، ونجعل منه وببركته، والحب فهو: كل حب يؤكل أو ينتفع به، مما يتولد في أشجار الأرض بالماء، كائنا ماكان من الأشياء.

﴿وَنَبَاتًا ﴾ فهو: ما كان غير الحب من أوراق الأشجار المختلفات، من أفنان الحشيش النابتات، وغير ذلك من زاهرات الأرض المورقات.

﴿ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾، الجنات: الحدائق الملتفات، المشتبكة فيها الأشجار

المثمرات، من الفواكه كلها المأكولات، الملتذ بأكلها، المتنعم بطعمها، وغير ذلك من الأشجار الملتذ برائحتهن، المتفكه بشمهن، من الرياحين وغيرها من الأشجار المنورة، المختلفة بنوارها[١] التي تجري من تحتها المياه، قد فجرت فيها أنهارها تفجيرا، وأبهجت سبلها سبلا سبيلا [٢]، وأعد فيها مما اتخذ من مجالس دورها، ومنتزهات قصورها، فاختلفت [٣] هذه الجنان لأهلها، وتزينت لهم بما فيها، فإذا كانت كذلك، وكان السبب فيها على ذلك، فقد انتظمها اسم الجنان، وفي ذلك مايقول الرحيم الرحمن[٤]: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ ﴾ [الدخان:٢٥-٢٨]، فسمي [٥] ما كان على ما ذكرنا من الأرض: جنانا، وإنما سُمي [٦] ما كان من الأرض كذلك: جنانا، لما فيها من الملك والنعيم، والسرور والخير الكريم، فشبهت في الإسم بالجنان التي ذكر الله في الآخرة التي فيها النعيم، الذي هو النعيم حقا، المقيم أبدا، فاشتبها في الاسمين، وتفاوتا - ولله الحمد - في المعنيين والحالين والصفتين.

وكيف لا تتفاوت وكل ما في الآخرة فدائم أبدا، لا يعدم صيفا ولا شتاء، ولا يكون له أمد يبلغه وانتهاء، نعيمها مقيم، وملكها سرمد كريم، وما في الدنيا فيزول

---

(١) كذا في المخطوطات.

(٢) في (أ): سبلا وسبيلا. وفي (ب): سبلا سبلا.

(٣) في (أ): فاختلف.

(٤) في المخطوطات: الرحمن الرحيم. ولعل الصواب كما أثبت.

(٥) في (أ) و (ب): فسمى.

(٦) في (أ) و (ج): فسمى.

مع زوال الأزمنة، ولا يدوم منه شيء أبدا، ما أكل من لذيذ مأكلها إلا عدم في غير هذا الوقت من الزمان، فيتقلب مع تقلب الأزمنة، فلا يوجد منها ثمرة صيف في شتاء، ولا يوجد ثمرة الشتاء في الصيف أبدا.

هذا مع تصرم ذلك كله وانقضائه، وخروج أهله منه بالموت وفنائه، وترك ماجمعوا لذلك لغيرهم، وما تكالبوا عليه لورثتهم.

وكلما ذكره الله سبحانه من قوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝... إلى قوله: وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ۝ ﴾، فإنما أراد الله تبارك وتعالى بذكر ما ذكر: احتجاجا على المكذبين بالنباء العظيم، بما جعل من ذلك كله وركب فيه، من الدلائل الدآلة عليه سبحانه، والشاهدات على تصديق النباء العظيم، الذي هم في تصنيف الكذب به مختلفون، فأخبر جل وعلا جلاله، عن أن يحويه قول أوينا له، أن في أقل مما رأوه من جعله، وعاينوا من أثر خلقه، دليل على عظيم قدرته، وصدق وعده ووعيده، وأن الذي عاينوا من أثر صنعه في هذه الأشياء، أعظم في بيان القدرة ومضي الإرادة من نشر الموتى، وما نبأهم به رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم من الأشياء، التي ذكرها في يوم المعاد، وأنذر بها ورغب ورهب جميع العباد.

ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۝ ﴾، ويوم الفصل فهو: يوم الجزاء والقطع بين العباد، والقضاء بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وبه من النبأ يكذبون، فسمى الله سبحانه ذلك اليوم: يوم الفصل؛ ليفصل الأمور، وتفصيلها فهو: قطع ريبها، وبيان أمرها، وثبوت صحتها، عند من كان جاحدا لها.

ومعنى قوله: ﴿مِيقَـٰتًا ﴾ أي: موعدا وعائدا، وغاية ومدى، وإليه يوعدون،

وفيه يثابون ويعاقبون، والميقات فهو: الوقت الذي إليه يؤخر الخلق فيما يوعدون، وإليه يجتمعون، وفيه يحصلون، وإليه يجرون.

وقوله: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾، يريد بقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾، أي: أن هذا الميقات واليوم الذي فيه الميعاد، هو يوم ينفخ في الصور، والصور فهو: صُوَرُ الآدميين، فذكر سبحانه أنه ينفخ فيها بعد فنائها وبلائها، روح الحياة بعد الفناء والبلى، فتعود من بعد ذلك صورا أحياء، معتدلة الخلق والبناء، كما كانت عليه من الخلق أولا.

ومعنى ﴿يُنفَخُ﴾ هو: يجعل فيها الحياة، ومعنى يجعل فيها الحياة فهو: ترد إليها الأرواح في الأجساد المبتدأة.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه، فيما أمر به الملائكة عليهم السلام من السجود له، عند إظهار ما يظهر من قدرته في خلق آدم صلى الله عليه، حين قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩، ص:٧٢]، قال: نفخت فيه من روحي، يقول: جعلت فيه وركبت وسويت وخلقت فيه روحا به تمامه، وبكينونته فيه قوامه، ثم نسبه إليه؛ لأنه خلقه وفعله، كما قال: ﴿ ۞ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، فنسبهم إليه إذ هم فطرته وخلقه، وفعله وأمره، قال الله سبحانه في مريم عليها السلام: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم:١٢]، يريد: جعلنا في الرحم ماجعلنا من خلقنا، وخلقنا فيه من غير ذكر ما خلقنا من عبدنا، الذي جعلناه آية لعبادنا، ثم نفخنا في ذلك الخلق روحا، ونفخنا فهو: ركبنا وجعلنا وأدخلنا، وثبتنا فيه روحا به كمال ذلك الخلق المخلوق، وقوام ذلك العبد المجعول.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾، والأفواج فهي: الجماعات الكثيرات الآتيات معا معا، زمرا زمرا، يقول: تأتون إلى الميقات الذي وُقِّتَ لكم، والموضع المحشر الذي جعل لكم محشرا، وموضعا للحساب وموقفا.

ثم قال: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾، يخبر سبحانه عن تقطع السماء وتفتحها، وتقلعها وتمزقها، حتى تكون بعد جودة الإنحباك قِطَعاً، وبعد الإستواء أبوابا مفتحة ومزقا، حتى تكون كالمهل السائل، بعد العظم والتجسيم الهائل.

ومعنى قوله:﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾، وتسييرها فهو: نسفها وإذهابها، والنسف فهو: القلع والإهلاك، والإزالة عما هناك، حتى تعود أمكنتها قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، والقاع الصفصف فهو: الموضع الأملس المرت الخالي من كل شيء، الذي لا يستتر منه جانب عن جانب، ولا يتوارى فيه صاحب عن صاحب، والعوج فهو: المتفاوت في الإرتفاع والإنخفاض، والأمت فهو: الإختلاف.

ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾، والمرصاد فهو: المرصد، فأراد بقوله: ﴿مِرْصَادًا ﴾ أي: أنهم يرصدون لجهنم، وأنها لهم مرصد، أي: مكانا وموضعا لا معدل لهم عنه، ولا منحرف لهم منه، ولا مصرف ولا مراغ، ولا ملاذ سواها، ولا مساغ غيرها، وفي ذلك ما تقول العرب: مرصد فلان مكان كذا وكذا، تريد: مكانه الذي يرصد فيه.

ومعنى يرصد هو: ينتظر فيه، حتى يأتيه ويصير إليه، فيصادفه فيه راصده، ويجده فيه طالبه، وهو المكان الذي لا مراغ له عنه، ولا يوجد إلا فيه، فأراد سبحانه

بقوله: ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي: كانت مكانا وموئلا، لا بد للطاغين منه، ولا متصرف لهم عنه.

ألا تسمع كيف بين سبحانه بقوله: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾، أي: للعاتين الجبارين المكذبين معادا، وموئلا ومكانا ومقرا، يأوون فيه، ويصيرون إليه، والأوب فهو: الرجوع، والمآب فهو: المكان الذي يصار فيه، ويرجع إليه.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ فاللابث هو: المقيم، ومعنى ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ فهو: مقيمون، الأحقاب فهو: الدهور الدائمة، وقد قيل: إن واحد الأحقاب حقب، وإن الحقب ثمانون سنة [1]، فإن يكن ذلك كذلك، فهي أحقاب متوالية متواترة متصلة، لا آخر لها ولا انقطاع، ولا فرغ لمدتها ولا فناء؛ لأن الله سبحانه ذكرها أحقابا، ولم يذكر لها غاية ولا مدى، فدل بذلك على أنها أبدا دائما سرمدا.

---

(١) أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن سالم بن أبي الجعد قال: سأل علي بن أبي طالب هلالاً الهجري: ما تجدون الحقب في كتاب الله؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة منها اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة.

وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود في قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب ثمانون سنة.

وأخرج البزار، عن أبي هريرة رفعه ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب: ثمانون سنة.

أخرج هناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم كألف سنة مما تعدون.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير مثله.

وأخرج عبد بن حميد، عن أبي هريرة ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب ثمانون عاماً، اليوم منها كسدس الدنيا. الدر المنثور ٨/ ٣٩٥.

ثم قال سبحانه: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ يريد: لا يجدون فيها فسحة ولا راحة تُبرد عنهم كربهم، ولا تنفس عنهم ألمهم، ولا تكشف عنهم حرارتهم، ولم يرد هاهنا بقوله: ﴿ بَرْدًا﴾ وَقْعَ البرد وحسه، وإنها أراد بالبرد تهوين الأمر، لأن العرب تقول: برد عني غمي كذا وكذا، وبرد عني ألم علتي كذا وكذا، يريدون: هون عني وسهل علي، وفرج كربي كذا وكذا، لا أنها تريد بقولها: أنه أصاب القائل لذلك برد أبرد جلده، فهذا معنى ما ذكر الله سبحانه من البرد الذي لا يذوقه أهل جهنم، يريد: أمرا يسهل عليهم عذابهم، ويفرج عنهم كربهم، من أمر يطفي عنهم حر جهنم، وأمر يهون عليهم عظيم الألم.

والشراب الذي لا يذوقونه فهو: الشراب البارد الهني، الطيب المريء، فذكر الله سبحانه أنهم لا يذوقون من ذلك الصنف شيئا؛ لأنه صنف كرامة، من الله لمن سقاه إياه ونَعَّمه، وأن شرابهم هو الحميم الذي ذكر الله أنه:﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ [إبراهيم:١٧]، ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى: ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾، فالحميم فهو: الماء المحمى المسخن، الذي قد منع الأيدي عن مسه، لشدة حموه وحره، والغساق فهو: الذي قد غلى حتى رمى بِجُبِّه [١]، وتطاير نضحه [٢] من جوانب إنائه، فهو: يتطاير من الإناء لشدة الغليان.

﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ يقول: جزاء وفقا مثلا بمثل، بالسوأة سوأة، وبالمعصية

---

(١) الجُبُّ: الجباب شيء يعلو أكباب الإبل فيصير كأنه زبد. والجباب أيضا: الهدر الساقط الذي لا يطلب.

(٢) في (أ) و (ج): نضجه. مصحفة.

نقمة، وبالمخالفة عذابا، فهذا معنى الوفاق، أي: أنكم عُذبتم بفعلكم، ونُكلتم بجرمكم، ولم تظلموا في شيء من أموركم، وكان ذلك منا جزاء فعلا على فعلكم، ومجازاة على صنعكم، فأذقناكم من عذابنا، ما جعلناه في حكمنا به جزاء لمن عَنَدَ عنا، فكان منا حقا حقا، ولم نسأله ولم نعذبه تجاهلا ولا ظلما، ولا ابتداء ولا غشما، بل كان جزاء بعد الإعذار والإنذار، والإحتجاج والإمهال.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾، يقول سبحانه: لا يأملون محاسبة على فعلهم، ولا يتوهمون مجازاة على صنعهم، ولا يوقنون ما أخبرناهم به من شرهم، ولا يصدقون بشيء مما أنبأنا به من الوعد والوعيد.

ومعنى ﴿يَرْجُونَ﴾: يأملون في مخرج الكلم هاهنا هو: لا يخافون ويتقون ويخشون ﴿حِسَابًا﴾، أي: محاسبة منا على ما قدموا، ومجازاة على ما صنعوا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾، يقول جل جلاله: وكذبوا بها رأوا وأبصروا من الآيات الدآلات علينا، وجحدوا بها بينت لهم حجتنا، المركبة في صدورهم، من العقول المجعولة فيهم، من دلائل الحق، وبراهين الصدق، في ما يرون من الآيات، من عجائب الصنع في الأرضين والسماوات، وغيرهن مما جعل الله من المجعولات، وفطر سبحانه من بدائع المفطورات، اللواتي يشهدن لخالقهن، ويدللن على فاطرهن، وينطقن بربوبيته بنواطق ما فيهن، من أثر صنعه الذي لا يجهله منصف، ولا يدفعه إلا مكابر مخالف، فذكر الله سبحانه، أنهم كذبوا بذلك بعد بيانه، ودفعوه بعد صحته في عقولهم، وثباته في صدورهم، بأبين البيان، وأوضح البرهان.

وقوله: ﴿كِذَّابًا﴾ فمعناها: تكذيبا وملآدة وتعطيلا، ومناكرة وكفرا.

ثم قال: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾، ومعنى أحصيناه فهو: علمناه وحفظناه، ومعنى ﴿كِتَٰبًا﴾ أي: محفوظا مثبتا، معلوما مبينا.

وإنما ضرب الله لهم بما ذكر من الكتاب مثلا، إذ كان أبين ما عندهم بيانا واضحا، وأثبته ما كان في الكتاب مكتوبا، وفي الصحف المعروفة موقعا، فذلك عندهم أبين ما يعرفون، وأوضح ما يعلمون، وأحصى ما يحصون، فَمَثَّل الله عز وجل بما يكون حفظه لما يكون منهم، وإحصاؤه إياه عليهم، بما هو أفضل الأشياء عندهم، وأبينه بيانا، وأثبته صحة، مما يكتب في الكتب، ويوقع فيها.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾، يقول سبحانه: فذوقوا ما نـزل بكم على فعلكم، وما نـزل بكم من الجزاء الوفاق على كفركم.

وقوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ يقول: لن تروا فرجا ولارخاء، ولن تزدادوا بالمكث الطويل في جهنم إلا عذابا وبلاء؛ لأن عذابهم دائم سرمد، وخلودهم في النار دائم أبدا، ومن كان كذلك لم يزدد بالمكث في جهنم إلا عذابا.

ثم قال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ﴾، والمفاز فهو: موضع الفوز، والفوز فهو: النعيم والخير والسرور، وقرة العين من المآكل والمشارب، والمناظر والمناكح والمطالب.

ثم فسر سبحانه ذلك المفاز فقال: ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾، والحدائق واحدتها حديقة، والحديقة فهي: الحظيرة المجتمع فيها جميع الثمار، المأكولات الطيبات، والمياه المشروبات.

﴿وَأَعۡنَٰبٗا﴾ فهي: الأعناب المعروفة، التي يغني اسمها عن تفسيرها، لمعرفة الناس بها. والكواعب فهن: النساء النواهد، والناهد فهي: التي قد برز ثديها، وتبين للناظرين في صدرها، الذي لم ينكسر ولم يمل، فتلك تسمى كاعبا وناهدا، والأتراب هو: الأمثال المشبهات في القد والجسم والصورة والخلق.

﴿دِهَاقٗا وَكَأۡسٗا﴾ والكأس فهو: ضَربٌ من الأقداح يشرب فيها الماء وغير الماء من العسل واللبن، تكون الكأس من الفضة والذهب، ويكون في الآخرة من ذلك ومن غيره من الجواهر والياقوت الأحمر، والدر الأبيض، والزمرد الأخضر، ودهاقا فمعناه: مملوءا مترعا، فأعد الله ذلك كله للمؤمنين.

ثم قال: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ۝﴾، واللغو فهو: الباطل والمحال، والأذى والطرح والمقال، وما يغم المؤمنين سماعه، ويكرهون استماعه، ﴿وَلَا كِذَّٰبٗا﴾، والكذب فهو: الخلف للمواعيد، والكذب في الأقاويل، فأخبر أنهم لا يجدون في تلك الدار خلفا لما وعدوا، ولا كذابا لما أملوا ورجوا، وأنهم سيجدون ما وعدوا، ويعاينون في دار الخلد ما أملوا، وأن آمالهم ورجاءهم وظنونهم غير كاذبة ولا باطلة، وأنها لهم على أفضل ما ظنوا، وأكمل ما رجوا، وأوفر ما طلبوا، لم يكذب الله لهم ظنا، ولم يخلف لهم أملا، هذا معنى ﴿كِذَّٰبٗا﴾.

ألا تسمع كيف يقول القائل: ظننت ظنا فكذبني ظني، يريد: أملت أملا فأخلفني أملي.

﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ۝﴾، يقول تبارك وتعالى: إن ذلك منه كله جزاء للمؤمنين على أفعالهم، وعطاء منه على أعمالهم، المرضية له، المتبعة أمره،

﴿عَطَآءً﴾ ومعنى عطاء فهو: هبة وجزاء، ﴿حِسَابًا﴾ يقول: عطاء كثيرا، إن حسب كثر حسابه، وإن عد لم يحط بعدده، كثيرا جسيما، جزيلا عظيما.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾، ومعنى ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هو: مالكها وقاهرها، وصاحبها ومقدرها، وكذلك الأرض وما بينهما، ومعنى ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فهو: ما على وجه الأرض من الإنس وغيرهم من الأشياء، ومافوق ذلك من الجن والإنس والسحاب والنجوم في الهواء، فهو: مالكهما ومدبرهما، ومالك ما بينهما، وسيدهما ومليكهما، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فهو: الرحمن صاحب الرحمة والسلطان، والعظمة والبرهان، وهو اسم من أسامي العزيز الجبار، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا ينالون عنده مخاطبة ولا بهتانا، ولا مكابرة وجحدانا، و ﴿مِنْهُ﴾ فمعناها: عنده، فقامت مِن مقام عند، وهذه حروف الصفات يخلف بعضها بعضا، ويجزي بعضها عن بعض، من ذلك قول الله سبحانه فيما حكى عن فرعون اللعين: ﴿ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١]، والجذع لا يصلب فيه، وإنما يصلب عليه، أراد: لأصلبنكم على جذوع النخل، فقامت ﴿فِي﴾ مقام (على)، وكذلك قامت (مِن) مقام (عند)، في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، فأخبر عز وجل أنهم لا يملكون عنده قبول معذرة[1]، ولا ينفعهم جحدان، ولا يجوز عنده إلا الحق في ذلك اليوم، وهو: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾، وقيامهم فهو: وقفهم فهم بين يدي ربهم، وانتظارهم لأمر خالقهم، و ﴿صَفًّا﴾ فهو: صفوفا، و ﴿ٱلرُّوحُ﴾

---

(١) في (ب): قبول عذر. وفي (ج): عذر معذرة.

فهو: جبريل صلى الله عليه، و﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ القيام، صفا في ذلك اليوم فهم: الشهود والكتبة والحفظة على الآدميين ما كان من أفعالهم في دنياهم، وهم الذين قال الله سبحانه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾ [ق: ١٧ - ١٨]، ومن الملائكة الوقوف، ملائكة موكلون بإيصال المثابين إلى الثواب الكريم، وإيصال المعاقبين إلى عذاب الجحيم، وكذلك سائر الملائكة كلٌ منهم واقف ينتظر أمر ربه، معظما لما يرى من فعله.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يقول: لا ينطقون من هيبته، ولا يتكلمون من إجلاله وتوقيره، سبحانه وتقديسه، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ منهم، والإذن هاهنا هو: الأمر من الله له بالكلام بها يأمرهم من توقيف العباد على أفعالهم، ومحاسبتهم على أعمالهم، ﴿وَقَالَ صَوَابًا ۝﴾ معناها: قال حقا، من توقيف الحفظة للآدميين على ما كان من فعلهم، وتعريفهم ما تقدم من خطاياهم، التي أحصوها عليهم في دنياهم، فوقفوا من ذلك على الصواب، والصواب هاهنا فهو: الحق في جميع الأسباب، من قول كان أوعمل.

ثم قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾، يريد أي: ذلك يوم حق، معنى يوم حق أي: أنه يوم آت حق، كفلق الصبح لا خلف في إتيانه، ولا بطلان لما ذكر منه، فإتيانه حق، وكينونته حق، وكل ما يفعل فيه فحق لا ظلم فيه ولا حيف.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝﴾، يقول سبحانه: فمن شاء من الخلق اتخذ في دار دنياه، وقبل فنائه وانقضائه، إلى ربه سبيلا، أي: يجده غدا عنده، من العمل بطاعته، والإتباع لمرضاته.

ومعنى ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ هو: جعل بينه وبينه وُصلةً لا تنقطع، وسبيلا يوصله إلى جناته، ويوجب له ما وعد المطيعين من ثوابه، حتى يدخر له بطاعته، واتباع مرضاته، فوزا يؤوب إليه، ويؤوب: ينقلب فيه وإليه، ومعنى ﴿مَـَٔابًا﴾ هو: موئلا ومرجعا يجده عند رجوعه إلى ربه، وسببا عند الله يصادفه عند مآبه، إلى دار آخرته، يسره المنقلب إليه، وينفعه المآب فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، يريد: دانيا قد أزف حينه، وقرب وقته، ومعنى ﴿أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾ هو: حذرناكم، وتقدمنا إليكم، وأعذرنا في قطع الحجة بيننا وبينكم، قبل مصيركم إلى العذاب، بتماديكم في المعاصي المهلكات، والمآثم الموبقات.

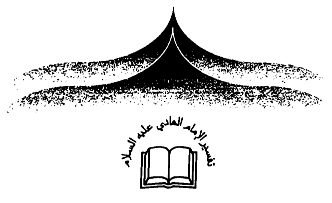
ثم أخبر بوقت ذلك العذاب فقال: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، فأخبر سبحانه أن ذلك العذاب يكون في ذلك اليوم الذي ينظر فيه المرء ما قدمت يداه، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝﴾، وهو يوم الحشر والحساب، ومواقعة العقاب والعذاب، ومعنى ﴿يَنظُرُ﴾ فهو: يجد ماقدمت يداه، معنى وجوده لما قدمت يداه هو: وجوده لجزاء فعله، ومواقعته ومعاينته لصدق ما وعد وأوعد على فعله، مما اكتسبته يداه في حياته، وقبل وفاته.

ومعنى قول الكافر: ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ فهو: تحسُّرٌ منه وتندم، وفرق وهلع، وشدة وجزع، مما يعاين مما أعد الله له من العذاب الأليم، وما يسحب إليه من الجحيم، وما يصب فوق رأسه من الحميم، جزاء على كفره، وعذابا على صده عن طاعة ربه في حياته، فيقول عند معاينته ما يعاين من البلايا: يا ليتني لم أُرِدْ حيا،

ولم أُبعث في هذا اليوم بشرا سويا، وكنت في القبر كما كنت ثاويا ميتا، وباليا فانيا، ورميما رفاتا ترابا، فيتمنى أنه بقي ترابا رميما، ولم يلق ما لقي من جزاء فعله الردي، وعمله السيء ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

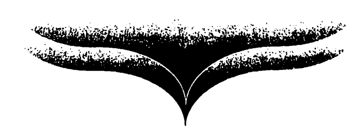
فنعوذ بالله من البلاء، ونسأله الرحمة والهدى، والمعونة على أمور الآخرة والأولى، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الجليل.





تفسير

سورة الإنفطار





ومن سورة الإنفطار

٣٥٧) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الانفطار:١١-١٢]؟

فالكرام هم: الملائكة الموكلون ببني آدم. ومعنى كاتبين فهو: حفظه، وإنما ضرب لهم بالكتاب مثلا لحفظ [1] الملائكة فعال الخلق، فأخبر أن حفظهم في الإحصاء مثل حفظ ما كُتب، وأنه لا يزول [2] عنهم شيء ولا أشياء، وأنه في علمهم وحفظهم عندهم كالكتاب المكتوب، يعرفون كل ما يفعله الآدميون، والكاتبون فهم: الذين يعلمون كل ما يفعل الآدميون، فهم الذين قال: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝ ﴾ [ق:١٧-١٨]، وهما: ملكان موكلان بكل إنسان، يحفظان ما يفعل ويحيطان، عن يمينه وشماله قعيدان [3].

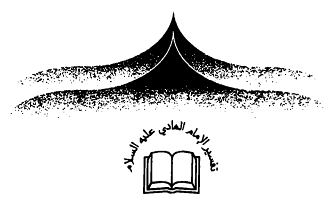


(١) في (أ): لحفظه.

(٢) في (أ): لا يزل.

(٣) سقط من (ب): هذا السؤال وجوابه.





تفسير

سورة البـروج





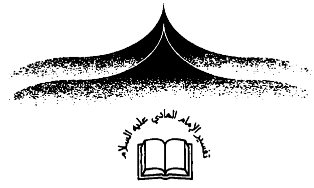
ومن سورة البروج

٣٥٨) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝ ﴾ [البروج:٢١-٢٢]؟

والقرآن فهو: القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والمجيد فهو: الكريم العظيم، واللوح المحفوظ فهو: العلم المكنون، ومحفوظ فهو: الذي لا يزل منه قليل ولا كثير، ولا صغير ولا كبير، قد أتقن حفظه، وأحصى عدده، لا يزل منه زالٌّ، ولا يشتبه منه مشتبه، فأخبر سبحانه أنه كذلك في علمه، محفوظ معلوم.







تفسير

سورة الكافرون





ومن سورة الكافرون

٣٥٩) قال أبو القاسم الإمام المرتضى لدين الله: سألت أبي الهادي إلى الحق صلوات الله عليه عن: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١] في من نزلت؟

قال: نزلت في الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص، عرضوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعبدوا ما يعبد، ويعبد ما يعبدون[1].



---

(١) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، عن سعيد بن ميناء مولى أبي لابختري قال: لقي الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، وأميه بن خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاًن وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كمنا قد أخذنا منه حظاً، فأنزل الله ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ حتى انقضت السورة. الدر المنثور ٨/ ٦٥٥.





مسائل فقهية





مسألتان عقائديتان

٣٦٠) وسألني عن القضاء من الله ما هو؟

فقلت له: القضاء يا بني يخرج على ثلاثة معاني:

فمنها: قضاء أمر وحكم، وذلك قوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]، يريد: أمر وحكم بأن لا تعبدوا معه سواه.

والمعنى الثاني: بأن يكون القضاء خبرا عما يأتي، أو سيأتي ويكون، وذلك قوله: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٤]، يقول: وأوحينا بذلك إليهم وأعلمناهم بما سيكون من أخباركم وأفعالكم.

والوجه الثالث: أن يكون القضاء قضاء حتم جاريا، وفعلاً من الله في كل ما يريد ماضياً [1]، وذلك قوله جل جلاله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت:١٢]، ومثل قوله: ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الزمر:٤٢].

٣٦١) وقلت: لأي علة بعث الله الرسل؟

فقال: بعث الله سبحانه للرسل ليكونوا حجة له على خلقه، وليبلغوهم عنه ما تعبَّدهم به من فرضه، إذ مفروضاته سبحانه معقول ومسموع، فما كان من المسموع

---

(١) في المخطوطتين: ماض. ولعل الصواب ما أثبت.

فلا بد فيه من مُسمِع يؤديه، وناطق به عن الله بما فيه، وهم الرسل عليهم السلام، المؤدون إلى خلق الله رسائله، والمبلغون إليهم عنه مراده منهم، فلهذا المعنى من تأديتهم عنه بعثهم.

مسائل فقهية

٣٦٢) وسألت عن المحيض كم أكثر ما يكون وأقله؟

فأكثره عندنا عشرة أيام لا غيرها، ولا يحل لهن أن يتركن الصلاة أكثر منها، وأقله: فثلاثة أيام، عند أهل العلم والتمام.

٣٦٣) وسئل عن الصلاة خلف اللاحن الأمي؟

فقال: إذا كان مؤمنا عارفا بالله سبحانه، ولم يكن يلحن في كل ما يقرأ، وكان لحنه حرفا بعد حرف، في السورة بعد السورة، ولم يوجد خير منه لموضعه، واضطر إليه، فلا بأس بالصلاة معه، ولا يجوز أن يعطى على الصلاة أجرة، ولكن من كان فقيرا محتاجا أعطي معونة وقوتا لنفسه ولعياله، على طريق العون لا على طريق الأجرة، لكي لا يموت جوعا.

وقلت: ما الدليل على أن الله خلق الأشياء لا من شيء، أو من غير شيء؟

فإن خلقها من شيء أزلي فقد كان معه في الأزلية والقدم غيره من الأشياء، ولو كان ذلك كذلك، تعالى الله عن ذلك، لم تصح له الأزلية، وإذا لم تصح له الأزلية لم تصح له الوحدانية، وإذا لم تصح له الوحدانية لم تصح له الربوبية، لأن من كان معه شيء من خلقه، فليس برب الأشياء كلها، إذا لم يكن لها كلها خالقا، فمن هاهنا

صح أنه خلق الأشياء من لا شيء، وابتدع تكوين ابتدائها من غير شيء.

٣٦٤) وسألت عن السارق متى يجب القطع عليه؟

قال يحيى بن الحسين رضي الله عنه: يجب القطع على السارق في ربع دينار أو قيمته [1].

وقيل: في عشرة دراهم أو قيمتها.

وقيل: إن قيمة المجن الذي قطع فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان ربعا [2].

وقيل: قيمته عشرة دراهم، ونختار ونصحح في ذلك عشرة دراهم قفلة، وذلك فأصح ما ذكر فيه عندنا من الأخبار.



---

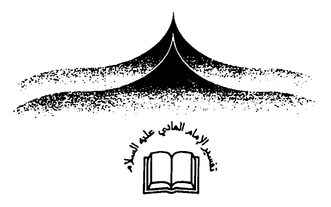
(١) أخرج البخاري، ومسلم، عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا)). الدر المنثور ٣/ ٧٣.

(اقطعوا في ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك). أخرجه أحمد ٦/ ٨٠ من حديث عائشة.

(٢) قالت عائشة: لم تكن تقطع يد السارق في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أدنى من ثمن المجن، ترس أو جحفة، وكان كل منهما ذا ثمن.

أخرجه البخاري ١٢/ ٨٩، ومسلم (١٦٨٤)، ومالك في الموطأ ٢/ ٨٣٢.





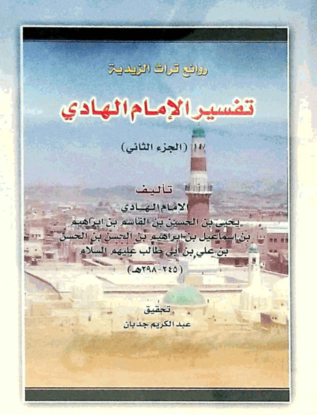
فهرس
الجزء الثاني





الفهرس





Design by
00967-737234854
777742918